قصص قصيرة

من الحياة والتراث والخيال والخراب

عبد الجبار عدوان

قصص قصيرة

من الحياة والتراث والخيال والخراب

دار الفارابي

الكتاب: قصص قصيرة
من الحياة والتراث والخيال والخراب
المؤلف: عبد الجبار عدوان
لوحة الغلاف: «سنعود» للفنان عماد ابو اشتيه

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١ (٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥ (٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ – الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠٢٥
ISBN:978-614-485-318-4

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الإهداء ٩
رؤى، وأسى ١٣
تأملات ٢٩
سماويات ٤٩
إبراهيم وسليمان ٦٩
قسمة ١٠١
روحانيات ١١٥
رغائب وغرائب ١٣٩
أساطير ووقائع ١٥٥
الحب ١٧٥
التعساء ١٩٧
الأعراب وحكمة المختار ٢١٥
ماذا بعد؟ ٢٣٣
الخراب ٢٤٧
من الهوامش ٢٨١

الإهداء

إلى والديّ، وعائلتي، وأحفادي.

نصنع الخيال؛ فيبدو مقبولاً على غرابته، ونعيش واقعنا الذي لو فهمناه لكان أغرب من أي خيال؛ فدرجة الفهم مرتبطة بقدرة التخيل.

لعل أهم ما يميز القصص القصيرة أنها تبدو سهلة الفهم بسيطة، ولكنها تحتوي على عبر عميقة. وسواء كانت هذه القصص حقيقية حياتية معاصرة، أو حدثت في الماضي المؤرخ، أو مستوحاة من أساطير وأديان تعود إلى آلاف السنين؛ فالحكمة وراءها تبقى حقيقية صالحة لتمحيص وتشخيص كل الأزمان والأوقات.

جرش – الأردن

صيف ٢٠٢٤

رؤى، وأسى

الجنة

جلس على مقعد مريح وأمامه طاولة خشبية السطح أسمنتية القوائم، مثبتة على أرضية الحشائش الخضراء المشذبة. حضر غلام وسيم وسأله كيف يمكنه خدمته، وبماذا يأمر؟ «فنجان قهوة دون سكر، ولكن مع ملعقة بودرة شكولاتة.. لو سمحت». تبسم الغلام، وأومأ له بالطاعة، وذهب. تأمل جريان النهر أسفل موقعه، وشاهد متحابين على الجسر يتبادلون القبل.

سرح ذهنه، وربما نام بضع ثوانٍ، وحلم بأشياء جميلة، ثم أفاق على نحنحة الغلام يطوف ويقدم له ما طلب ويسأله إذا أراد شيئاً آخر.. شكره بإيماءة من الرأس، وتنبه لمرور سرب من الحور يتهادين بين مجلسه ومجرى النهر. تأملهن، لاحقهن بعينيه.. وظن أنه نائم، وتمنى ألا يفيق، فقد ظن أنه يحلم بوصوله إلى الجنة، وإقامته فيها.

اقتراب الميعاد

استغرب كل من رآه يبكي بهذه الحرقة والهدوء وهو مغطى الوجه يمسح دموعه؛ فقد عرفوا عنه الشدة والموضوعية وقلة الإيمان بالدين.. لم يعرفوا ما يدور في خلده وهو يجلس أمام جثة صديقه المكفنة بانتظار نقلها من البيت إلى سيارة الموتى لأخذها إلى المقبرة. كان المتوفى آخر

الأصدقاء الذين يكبرونه سناً، وأصبح هو من كبار السن يناهز السبعين عاماً. صحته الجيدة لم تولد الكثير من الاطمئنان؛ فالأيام تمر متتالية.

شاهد أثناء الدفن الكثير من الأقارب، بعضهم من أبناء الصديق، وأحفاده أيضاً، وغيرهم ممن شاهدهم وهم في سن الطفولة الأولى وها هم قد تجاوزوا الخمسين ولدى بعضهم أبناء تزوجوا وأنجبوا.

في أيام شبابه كان يتمنى لو عاش حتى سن الخمسين، والآن أصبح يفكر ويخطط لما بعد موته.. يزور المقابر بحثاً عن المناسب منها لتحديد أين سيُدفن وكيف والتوصية بذلك. لم يستقر رأيه إذا كان سيترك للأحياء تقرير الإجراءات، أم يقيدهم بعدم الصلاة عليه وتكفينه بملابس أنيقة بدل التعري.

الحورية

أفاق مع الفجر شاعراً بضيق نفس. مر بخاطره وهو ينسل من بيت مُضيفه أن السبب قد يكون من تعب الرحلة من مدينته الجبلية إلى الساحل، وتذكر أيضاً بعض العلل الصحية التي قد يكون بعضها أو مجموعها هو السبب. نسي علته بسرعة وانتقل للتفكير في لقائه الأول مع البحر. كان يعرف أن عليه الاتجاه غرباً، واستدل بنسمات الهواء الأقرب إلى البرودة.. لم يكن يعرف المسافة التي سيقطعها سعياً إلى الشاطئ، ولم يفكر في الأمر أو يتمن أن تلحق به أي مركبة، أو كارو تحمله بقية المسافة.

بهره المنظر حين تصادمت عيناه مع كل هذا الأزرق المتسع؛ فواصل رحلته دون أن يشعر أكان يسير أم يركض أم يقفز. اتجه إلى اليمين تيمناً قبل أن يصل إلى الأمواج.. نفض رأسه وأعاد النظر وفرك عينيه.. أنثى عارية تتهادى خارجة من الماء؛ فتوقف حتى لا تشعر به.

«أهي إنسية؟ لا يعقل ذلك، فماذا تفعل إنسية فجراً وهي عارية على الشاطئ، وكيف تتحمل البرودة النسبية؟» قد تكون حورية أجاب ذاته ولم يبدِ جسده المتجمد الحركة بعد. خطر له أنه قد مات في منزل مضيفه هذا الفجر وأنه يمر الآن بمرحلة ما بعد الموت، وتذكر أنه لم يحادث أو يشاهد أي إنسان هذا الصباح.

تمالك شجاعته وتحرك في اتجاهها، وزادت رهبته وهو يراقب عدم اكتراثها لرؤيته واقترابه منها. «صباح الخير». قال لها وأضاف السؤال عن وضع الماء.

«لطيف جداً.. هل تريد أن تجرب»؟ رد عليها بأنه لم يجلب معه ملابس السباحة؛ فضحكت وأشارت إلى ذاتها العارية. تعرى مثلها ونزلا إلى البحر معاً، ولم يخبرها أنه لا يجيد السباحة؛ فغطس وواصل بجانبها طريقه إلى الجنة.

السعادة

«السعادة قائمة على القناعة؟ ليس فقط». سأل وأجاب. فكر أن اليوم السعيد هو الخالي من المصائب، والزمن السعيد هو الذي

لا تخلط فيه التعاسة وتعمم خارج حدودها. حين تنظر إلى النصف الممتلئ من الكأس، وحين ترى هذا النصف دوماً؛ تكون قد تعرفت إلى السعادة.

سأل صديقه: «هل يمكن لكثرة المال أن يسبب التعاسة مثل قلته»؟

«هذا صحيح تماماً، ولكنني أفضل الشقاء المالي على الفقر».. ضحكا على هذه الإجابة غير المرتبطة بالسؤال.

«هل تُعتبر من السعداء إذا بحثت عن مكان مناسب لقبرك وأنت في تمام صحتك وجاهك؟»

«السعداء أحباء الله..» أجاب ثم توقف وهو يقرأ ملامح صديقه واستطرد: «الفيلسوف قد يفعل ذلك، وكذلك الملحد غير الخائف من الموت، أو من العالم الآخر.. وقد فعلها الفراعنة وغيرهم استعداداً لما بعد الموت».

السعي للهاوية

لو التزم كل إنسان بتطبيق الإيجابيات من عقيدته؛ لما تواصل السير البشري نحو الهاوية. المتعلم المتطور الغني يساهم في خراب الكرة الأرضية أكثر من الجاهل الفقير المتخلف، وكلاهما ومن بينهما لا يطبقون مبادئهم الأخلاقية المفترضة، وكأنهم متفقون على السير في طريق الانتحار. كلما زاد العلم والتطور

والمال والجهل والفقر، زاد الخطر على البشرية أسرع، واقتربت النهاية.

تأمل ذلك وشعر بالوحدة تلفه وباليأس يسعى لإيقاف تفكيره وتأملاته. كيف يبتلع الجميع ما يعرفون أنه آفات؟ ما فائدة الدماغ والتفكير إذا لم يؤديا إلى التدبير؟ كيف يتقبل هؤلاء البشر من كل الأطياف والطبقات والجنسيات حياتهم المتناقضة بين المنطق والخيال، المفترض والممتنع؟ كيف يعيشون في عالم متطور تقنياً ويتعاملون مع كل الأدوات، ويحتفظون بعقلية عقدية خرافية غيبية سائدة منذ آلاف السنين؟ استنتج أن عالم الغيب يطمئن عالم الواقع.

المغادر

دار في خلده أن غالبية الوجوه التي يراها في بيت عزاء صديقه، هي نفسها التي شاهدها قبل سنوات في حفلة زواج الصديق نفسه.. تنبه إلى الأحاديث خارج إطار كلمات التعزية المعتادة عند الحضور والمغادرة؛ فوجدها ذات الأحاديث، تدور حول كل شيء وأي شيء، ولا شيء عن الميت وذكراه وأفعاله.. لقد غادر الحياة بالفعل. عموماً لم يكن صديقه من أنصار مقولة: خذ ما تريد واترك لي الحياة، خذ زينة الحياة واتركني بدونها.. بل كان قد تقاعد من الحياة منذ زمن وانتظر عزرائيل في أي لحظة وهو في تمام صحته؛ فجاءه في النوم وذهبا غير آسفين على ما تركا.

طهارة القلب

تأمل في سؤال إذا ما كان هناك أناس أطهار القلب والعمل.. يظن الكثير وخصوصاً من بين المؤمنين المحافظين على العبادات أنهم ذوو قلوب طاهرة، وأن أعمالهم صالحة. قال: من ناحية دينية بحتة؛ فعلى طاهر القلب أن لا يجد في نفسه غشاً لأحد، ولا حسداً على خير وصحة أعطاها الله لأحد، وهذا ما لا يطيقه بشر. حاول تفحص قلبه فلم يجده طاهراً؛ فقد تمنى الكثير من المحظورات، لكن أعماله في المجمل جيدة وصالحة ونافعة إن لم تكن ذات علاقة بالطهارة فضفاضة التعريف.. أكد لذاته أنه إذا كانت هناك جنة بالفعل؛ فسيكون مصيره في إحدى طبقاتها المتوسطة.

الجحيم

كان وجهه يعكس الحيرة والضياع وقلة الحيلة، وربما اليأس. يصل إلى باب مكتبه ليغادره؛ فيرى الشبان يُنقذون محتويات المكتب المجاور؛ فيستدير إلى الداخل وينظر إلى الطاولة وما عليها والأثاث الكامل والملفات، كل شيء أمامه مهم بالنسبة له، ولكنه لا يعرف ماذا يُنقذ وماذا يحمل نازلاً السلالم أو ربما المغامرة ببقية العمر وركوب المصعد مع الشبان؛ فالوقت المتاح للهروب بالحياة دقائق قبل أن ينهار البرج بمن فيه على من هم تحته وحوله، وهو لا يدري كم مر من الوقت،

وكم تبقى. «يلا يا حاج تعال معنا». نظر إلى مصدر الصوت على باب المصعد واستدار مجدداً يستطلع محتويات عمل عمره واستثماره، سيخرج فارغ اليدين، كل الأشياء مهمة، ولن يفضل بعضها على بعض، ثم ماذا يمكنه أصلاً أن يحمل؟ «تعال يا حاج الضربة مش لهذا المبنى، لكن للمجاور ونحن نخلي للاحتياط». تغيرت ملامح وجهه، ودبت فيه الحياة نتيجة لهذه الكذبة من الشاب الذي يعرف تماماً أن الوقت ينفد، ولا بد من إنقاذ الحاج لذاته ومنحه بعض الثواني ليبتعد عن موقع البرج حين تصله القنبلة الأميركية الموجهة من أبناء الرب المُختارين. في المصعد شعر وكأنه يُحمل على الصراط المستقيم، أسيذهب إلى الجنة أم إلى الجحيم؟!

العروس

كان ينتشل بقايا البضائع من محله الذي تعرض لقنبلة أمريكية، وحين انتشل فستان السواريه الأحمر، تذكر تلك الفتاة الجميلة وخطيبها الوسيم؛ فتوقف عن عملية الإنقاذ. كانا قد زاراه قبيل العيد يبحثان عن تجهيزات اقتصادية للعرس وبناء عشهما. قال لذاته بصوت مسموع: «كانت ماهرة في الفصال، وأظهرت بهجة عارمة حين تمكنت من خفض السعر الذي طلبته منها للفستان». تذكرها جيداً وهو ينفض الفستان؛ فقد قالت لخطيبها: سنكافح معاً لنقيم بيتنا الصغير بأقل التكاليف، فإذا ما قصفه الاحتلال لن نحزن كثيراً. كانت تقرأ بعضاً من

المستقبل، احتمال القصف، والتحقق من الزواج والسعادة في ثالث أيام العيد. «لم تحضر لأخذ الفستان الذي حجزته». .. قال التاجر لمن توقفوا يستمعون، وأضاف: «سألت عنها، وتمنيت أن تكون قد نجت من القصف الهمجي كما نجا فستانها، لكن يبدو أن الفستان كان أكثر حظاً، فلم يمنحها القصف المجنون من الوقت ولو ليلة واحدة، لتنعم بالبهجة والحب».. خاطبها: «هذا الفستان لم يعد للبيع، ولكنه سيعرض للجميع للتذكير بك».

الموت

«أتفضل أستريح شوية». قال له ضابط الجوازات. كان يعرف الروتين في هذا البلد الشقيق؛ فعليه الانتظار حتى ينتهوا من بقية المسافرين من كل جنسيات العالم، ثم يرافقه أحدهم لجلب حاجاته ومن ثم إيداعه الحجز ريثما يكتمل عدد ركاب قافلة باصات تحملهم تحت الحراسة والتفتيش المتكرر في الطريق وصولاً إلى حدود بلدهم المنكوب بكل شيء.

لاحقاً عرف الأصدقاء بوصوله سالماً من زيارته لولده في أوروبا.. استغربوا اختفاءه في البيت أياماً؛ فقرروا زيارته ظناً منهم أنه مريض. «لست مريضاً».. قال لهم وأكمل: «لكن أنتم وأنا أموات وها نحن في الجحيم». فتحوا أفواههم ثم استغفروا ربهم وطالبوه بالاستغفار. «إذا لم يتح لكم رؤية الجنة بأعينكم كما رأيتها، حسب المواصفات

الربانية، فلن تعرفوا طبعاً أنكم متم وحوسبتم وتقطنون الآن في النار عقاباً على ما جنيتم، وما جناه آباؤكم وكل من رحل عن بلده خوفاً أو إكراهاً».

الإخواني

سمع كلاهما عن الآخر عبر صديق مشترك، أحدهما ستيني والآخر ثمانيني، ولكنهما في الأصل من قريتين متجاورتين، وبالتالي يعرف الثمانيني أهل ومعظم أقارب الستيني. «البقية في حياتك، الله يرحمها الحجة». قال الستيني معزياً بعد اللقاء الأول لهما في خيمة العزاء، واقترب منه وأضاف بصوت منخفض: «ناوي تشوف غيرها أو كل الفشك خلص؟»

«في فشكتين ثلاثة، لكنا تعاهدنا منذ زمن على الوفاء». جاءت الإجابة وسط ضحكات خافتة.

في لقائهما الثاني تحت شجرة زيتون صار الثمانيني يسأل عن معارفهما المشتركين والستيني يجيب؛ فوق الأرض حيث كانت الأقلية، وتحت الأرض للأغلبية مع إضافة الترحم وبعض القفشات عن هذا أو ذاك. الستيني علماني وأقرب إلى الإلحاد، بينما الثمانيني من زعامات الإخوان المسلمين المحليين، لكن الرابط بينهما كان فوق الاعتبارات الأيديولوجية ولم يتطرق أيهما إلى محاولة هداية الآخر.

في اللقاء الثالث لاحظ الستيني أن رفيقه أصبح يستصعب الرؤية، ثم سمع الإجابة عن التساؤل الصامت: «ذهبت إلى طبيب العيون؛ فصار يحلل ويشرح. أخبرته أنني فهمت ولا بأس أن يزيد العور واحداً».

«أعور أصلح من أعمى» قال الستيني؛ فضحكا وانتقلا إلى (خُرافيّات) التاريخ المضحك المبكي.

ضباب

وجدا ذاتهما في مدينة صغيرة على الأرجح إنها في شمال أوروبا؛ فهو لا يعرف لغتهم، ولكن غالبيتهم عند سؤالهم للاستدلال بالإنجليزية يجيبون بها. ظن أنه كان في المدينة قبل ذلك؛ فقد التقى مجموعة أصدقاء من جنسيته وظن أنه شاهد دعاية لفيلم سينما؛ فأخذ الأصدقاء إلى القاعة أو هم أخذوه إلى هناك في الحافلة العمومية.

عندما نزلوا اكتشف أن الفلم رومانسي وغير ما كان يتمناه، وأن زوجته تخلفت وسط المدينة؛ فقرر تركهم وركض عائداً بعد أن أخبرهم أن ينتظروه. وجدها في محل لشراء الملابس يعرض تنزيلات؛ فغضب قليلاً وطالبها بالذهاب معه سريعاً حيث ينتظر الأصدقاء.. ترددت وتباطأت؛ فغضب وأخبرها بنهاية كل شيء وغادرها.

عاد في الطريق الذي حضر منه ركضاً، تذكر أنه لا يعرف أين السينما ولا اسمها.. سار قليلاً لكن الوقت يمضي بسرعة، سأل بعضهم عن موقع أي سينما قريبة؛ فذكر له شاب الاسم وكتبه له على قصاصة

نظراً لصعوبة نطقه.. سأل آخرين كيف يذهب؛ فأرشده أحدهما لأسرع طريقة وهي ركوب تاكسي سيحضر له فوراً لو ضغط زراً أخضر في الجدار.. ضغط الزر وتوالت في الظهور سيارات تكسي صغيرة تبدو مقطوعة من نصفها الخلفي، لكنها مشغولة بركاب. توقفت سيارة تاكسي سوداء تقودها أنثى سوداء ومعها راكبة بيضاء وهي تنادي باسم المكان الذي ستتوجه إليه.. اطلعت الأنثى السوداء على العنوان في القصاصة ولكنها رطنت بما لم يفهمه وإن كان قد فهم رفضها وراكبتها البيضاء لأخذه معهم.

طوال الوقت كان غاضباً مرتبكاً يفكر كيف سيصل إلى الأصدقاء وتذكر أنه ليس لديه أرقام هواتفهم، بل هاتفه لا يعمل في هذه المدينة، وكان غضبه الأشد على زوجته وعلى غضبه السريع وقراره الأسرع.. أفاق بعد الفجر من الحلم ليجدها إلى جانبه، ولوهلة خطر له أن يهزها، ثم تذكر ما جاء في ورقة دوائه الجديد من أعراض جانبية محتملة: كوابيس، رؤية وسماع أشياء غير حقيقية.

الفقر درجات

هل الموت جوعاً هو أشد درجات الفقر؟ ربما ، لكن الدرجات عديدة ومتنوعة. بينما كان يستمع لقصة فقير كان يعيش في أثناء دراسته في المدينة الجامعية ثلاثة أيام على الماء، وثلاثة أيام على ما يدخره له أهله من طعامهم الشحيح.. تذكر من طفولته كيف كان أولاد البدو

القاطنون في طريقه إلى المدرسة ينهبون ساندويتشاته المحشوة بمخروط الفلفل الأحمر والزيت، وعندما أصبح يحمل الخبز دون إضافات تواصل النهب، وصاروا يأكلونه مع خبزهم المصنوع من الشعير والقشور..

العاقرة

كانت حبوبه بسيطة وزوجها أبسط منها بدرجات. لم يُنجبا؛ فكثر القيل والقال والمعايرة. انتقلا من أجواء القرية وسكنا في المدينة، لكن الزيارات لم تنقطع، وكلما التقيا قريباً وقدما له أي خدمة تمنى لهما أن يرزقهما الله ولداً. كان التذكير أكثر من يومي، وظنت أن بعضهم يوسوس لزوجها بالزواج بغية الإنجاب؛ فقررت تبذيراً متواصلاً للمداخيل الشهرية لحرمانه من الفرصة التي لم يكن يفكر فيها أصلاً.

زارت الأطباء والمشعوذات، ودفعت زوجها لشراء سيارة لزيادة النفقات. حين اهتديا إلى فكرة تبني بنت صغيرة، لم يتقنا تربيتها ثقافياً وعلمياً؛ فكبرت شبه أمية عدمية، وتزوجت بعد وفاة الباسطين معدماً مثلها وانتهى بهما الحال أسوأ ما يمكن.

تبادل اللقم

روي أن قحطاً شديداً تواتر لسنوات، وكان عند امرأة لقمة من الخبز وضعتها في فمها، وقبل أن تلوكها سمعت السائل: الجوع يا عبيد

الله. ترددت ولكنها أخرجت اللقمة من فمها إلى فم السائل. مرت الساعات وسمعت فجأة صراخ صغيرها الذي خرج ليحتطب إذ خطفه الذئب. عدت الأم في أثر الذئب وطفلها حتى تعبت، وقبل أن تستسلم هبط الملاك؛ فأخرج الغلام من فم الذئب ودفعه إلى أمه: «يا أمة الله، أرضيت لقمة بلقمة»؟

قالت: «نعم رضيت، ولكني ما زلت والغلام جائعين، وأصبحت متعبة الآن، لماذا لم تحضر معك مكافأة من طعام لا ينضب، أو يكفينا شهراً من الزمان؟» تجاهلها ورفرف وطار؛ إذ شعر بأن لديها أسئلة أخرى.

العصفور

قاوم عطشه، وانتظر ريثما ابتعد الغلام عن نبع الماء حتى لا يرشقه بحجر. رفرف ونزل ليشرب؛ فإذا بشيخ ملتح يبدو عليه الوقار قد وصل إلى النبع.. لكن العصفور اطمأن وواصل الشرب؛ فإذا بحجر يصيب عينه ويفقؤها. ذهب إلى الملك مطالباً بالقصاص، فسأله: هل تريد أن نقلع عينه بدل قلعه عينك؟ لا، قال العصفور، وأكمل: يكفي أن تحلق ذقنه حتى لا يغش آخرين.

تأملات

تخيلات

كان صامتاً غارقاً في ذاته؛ ثم تبسم دون سبب ظاهري؛ فقلت لنفسي ها هي تعاوده وربما تطيعه هذه المرة. كانت تطارده كلما ذهب إلى الفراش وتتكرر التخيلات، لكن كبرياءه في النهار تردعه عن التواصل معها لطلب الوصال، وفي المساء تعود إليه؛ فلا تقترب منه ولا تبتعد عنه.

عطر الجن

وصل من أوروبا إلى بيته قبيل موعد صلاة الجمعة، أفرغ حقيبته ووضع زجاجة الجن على الطاولة مع دخول شيخ الحارة ليرحب به ويصحبه إلى الصلاة.. حاول التعذر ولكن الشيخ أصر وفتح الزجاجة وسكبت يده اليمنى في كفه اليسرى بعض ما فيها، ومسح به وجهه وشعره مادحاً طيب الرائحة.. هكذا طلبت منه شياطينه أن يصاحب الشيخ إلى الجامع ويقلده في الصلاة. لم يفعلها من قبل ولم يكررها مطلقاً.

انتصار ثور

حدق الثور إلى المرأة؛ فشاهد الثور يحدق إليه، كان غاضباً من الثيران وملامحه تظهر اشمئزازه من الوضع.. هز رأسه؛ فقابله الثور

العابس بهز الرأس، نطحه؛ فجُرح وشاهد دم الثور الآخر الذي اختفى.. هذا انتصار فقد هرب الخصم.

«كواعب أترابا»

كن ثلاثاً سبحان الخالق يسرن في شارع عام، ودون أن يتوقفن، خلعن الجلباب دفعة واحدة عن لا شيء تحته مطلقاً، وسرن بضع ثوان تحت العيون وأمام الأفواه المفتوحة الصامتة، والرؤوس الملتوية لأجساد مشلولة.. يبدو أن البعض لم يصدق عينيه، والبعض الآخر ظن أن الرب يريه الحوريات ذوات «الكواعب أترابا». سرن حتى وصلن إلى منعطف؛ فارتدين الجلباب بسرعة خاطفة دون توقف وواصلن المسير في الانعطاف.. كانت تجربة علوم اجتماعية ذات مدلولات جمة .

وصال الذكريات

ذهبت الوالدة إلى السوق وتركته في البيت وأغلقت باب الحوش؛ فجاءت من النافذة تفوح منها رائحة الصابون المعطر والورود، تحادثا وسمحت بأشياء وتمنعت عن أخرى كونهما ما زالا صغيرين يعرفان الممنوع والمسموح.. تلك الذكريات بقيت أزلية لهما ومقياساً للشوق والجمال والسعادة. بعد سنوات وفراق التقيا، وقبل الفراق مجدداً مدت يدها تصافحه مودعة إثر لقاء عائلي.. قالت وهي تشده إلى أعلى:

لقد كبرت وعجزت؛ فانتصب أمامها دون اتكاء وقال: ما زال بوسعي حملك على ظهري.. لم يفهم سواهما مغزى ما كان يقول.

الجنيه

دخل المنعطف المؤدي إلى بيته؛ فلاحظ انطفاء اللمبة وتخييم الظلام، وتذكر وتعجب أنه ذات يوم غير بعيد من نهاية عمر الخمسينيات؛ كان على استعداد لتسلق مواسير المجاري ليصل إلى نافذة حبيبته الصغيرة وسريرها. حين وصل إلى عمود الظلام تجلت له أجمل مخلوقة شاهدها أو تصورها في حياته. بدت كعروس بلباسها الأبيض وزينتها، وتغيب هو عن أي نوع من التفكير، وحين سألته: هل تتزوجني؟ أفاق ومر شريط سريع في مخيلته ألغى كل المشاعر والأحاسيس الممكنة ما عدا الخوف؛ فأطلق ساقيه للريح حتى اصطدم بباب منزله.

استرجع ما حدث بين الشك واليقين، واستنتج جنيتها، وندم على رفض طلبها وإضاعة الفرصة وهو يقارن بين حسنات الزواج بالجنيات وسيئاتهن.

استنساخ

تذكر المدن الأوروبية والأميركية التي عاش فيها، أو التي زارها طوال عقود، وكيف أنها تعج بكل الأجناس والألوان البشرية وحتى

اللغات المتنوعة.. ناهيك عن اختلاف اللباس في الشوارع من العمة للطاقية الإفرنجية وتسريحات الشعر إلى الحجاب وأخواته، وعلى الشواطئ كان يشاهد كل شيء تقريباً بين البوركيني وما دون البيكيني، كل في حالة وفي تناغم واعتبار التنوع غنى.

ما أحيا تلك الذكريات هو المعايشة الأحادية في كل المدن والقرى والنجوع العربية، ما عدا العواصم.. فأينما ذهب يجد ذاته مكررة ولا أحد في الأزقة والشوارع مختلفاً، بل كان ترديده للسلام بلغة القوم لا يمنع نظراتهم المستغربة لوجوده كغريب في بلاده خارج العواصم.

مناطق وأرياف جميلة خالية من أي أجنبي بأي لون أو جنس، ودون تنوع سواء أكان في الصيف أم الشتاء، حتى أصبح يشتهي زيارة أي مدينة أوروبية ليتذكر اختلاف أنواع وأشكال وطباع البشر المنتشرين في هذا الكوكب الجميل.

السمكري

«تريد لحام الغطاء لتنكة الزيت لترسلها إلى أميركا!» لم يكن يريد الإيضاح عن مصير الزيت؛ فوافق على تفسير السمكري، وقرر استنطاقه وهو يتأمل دكانه الممتلئ ببقايا البوابير ودفايات الكاز، ولونه المخلوط بالزيوت؛ فحتى لو التقاه في الشارع كان سيخمن فوراً أنه سمكري.

«ما رأيك في أميركا إذاً؟» صب غضبه سباباً وشتائم على الحكومة الأميركية.

«لكنهم يتصرفون وفق سياستهم ويريدون نشر الديمقراطية!» قال للسمكري ليستفزه.

«أميركا تزعم نشرها للديمقراطية، وتريد نشر الحداثة هنا أيضاً، لكنهم مستعجلون، وهذه تحتاج إلى أسس وأصول وإلى عمر، ويمكن ما تزبط».

أعجبه رد السمكري هذا، فسأله رأيه في قيس سعيد في تونس فأجاب: «هو الرجل الوحيد النظيف بين القادة العرب اليوم، لكن الإخوان المسلمين لن يتركوه يأخذ فرصة للتغيير، ولا يوجد له دعم عربي أو دولي». سأل السمكري إذا كان يريد أن يرشح نفسه لانتخابات البرلمان القادم؟ «كلهم نصابون، ورغم حالي المتواضع، والحمد لله؛ فلن أقبل أي منصب حكومي !!». يبدو أن جاره الذي يجهل هوية صاحب تنكة الزيت كان يستمع للحديث؛ فحضر طالباً ناراً لإشعال سيجارته؛ فطلب السمكري سيجارة بدل النار، وتغير مجرى الحديث.

الزهايمر

شعر قبيل المرض بتهميش دوره في البيت ووسط عائلته، ومع بداية المرض ظنوا أنه يمثل عليهم لينتقم منهم؛ فساءت العلاقات وساءت صحته العقلية وتلاها الجسدية، وأصبح لزاماً عليهم خدمته

كطفل. تطور الزهايمر إلى شوتسفرينيا؛ فصار أحياناً يتصور الأعداء قادمين لاغتياله، وأحياناً أخرى يُصرح أن نسيبه هو الذي قتل أباه، بل اتهم زوجته السبعينية شبه المقعدة بأنها تقابل عشيقها في الحديقة. أصبح لزاماً على أهل بيته أن يدرسوا أمراضه ومظاهرها حتى يواجهوا ردات فعلهم النفسية، لكن بعضهم لم يصدق قط أنه لا يمثل لينتقم منهم.

الزنديق

تساءل عن أشياء في الدين يعتبرها غير منطقية؛ فدارت عليه الدوائر واتهموه بالزندقة، نُزعت عنه شرعية زوجته، واستبعدته القافلة وحيداً في الصحراء؛ فاضطر في نهاية الحساب والعقاب إلى الرحيل عن البلاد.. كان محظوظاً؛ فقد نجا إلى حين بحياته من أحد البلدان التي تعتمد ثلاثة قوانين مختلفة، المدني والعسكري والديني.

مناجاة

في المدينة المزدحمة، سكن هو على السطوح، وكانت هي تقيم خلف البلكونة المقابلة. لم تتردد في مغازلته حتى تجاوب معها؛ فاتفقا بالإشارات على اللقاء ليلاً، تهربا من الرقابة، فوق سطوح العمارة التي تسكنها.. تحادثا وتحاضنا، وقبل تطور السعادة ظهر أخوها أمامهما؛ فهنا كل مُراقب مراقب.. ادعى هو بسرعة أن بعض أوراقه طارت

من سطحه إلى سطحهم ولكنه لم يجدها؛ فربما واصلت الطيران إلى الأرض، نزل مهرولاً ليبحث عنها، وادعت هي أنها حضرت لمساعدته. لم يكررا تلك الطريقة، وأصبحا يلتقيان بعد خروجهما من المدارس في وضح النهار.

استراحة عزرائيل

تنبه لكثرة تمنيات الناس بعضهم لبعضهم الآخر؛ بطول العمر؛ ولحقيقة أن الدعاء المفضل لله هو شفاء المرضى وطول عمرهم!! تأمل إمكانية أن يستجيب الله لعباده ويطيل أعمارهم عشرين سنة إضافية عن المقرر.. سوف يستريح عزرائيل كثيراً، وسوف تمتلئ المشافي ودور العجزة، وسوف تفلس خزائن الدول التي تدفع المعاشات للعجزة، وسوف تقل المواد الغذائية وترتفع الأسعار بنسبة زيادة السكان المستهلكين وغير المنتجين نفسها، وبالطبع ستقفز نسب الطلاق لقلة صبر الزوجات على الحماوات.. دعا الله ألا يستمع لدعاء القوم.

اندماج

ضبطته يتأمل وجهها؛ فقال: أمامك طريقان ولك الاختيار، الأول طريق السماء، والثاني طريق الحب والإنجاب. تبسمت وقالت متساهلة معه إن الله خلقها لمهمة محددة وعليها التنفيذ. أيقن

أنها ذكية أيضاً إلى جانب الجمال، واعتبر أنها قد قبلت وأدمجت الطريقين.

الشاكر

قال لمتأمل: كل هذا يجري للأمم والأفراد ويقال إن ربك رؤوف رحيم؛ فجاءه الجواب: لو لم يكن رؤوفاً رحمن رحيماً وتواباً؛ لكانت الأمور وحوشاً أسطورية ناهشة وداهسة، وتبادل الأرض والبشر بين البراكين والزلازل.. يا صديقي إن خرجنا سالمين؛ فهذه رحمة، وإن هلكنا؛ فهذا الجزاء العادل.

قمامة

خفف سرعته حتى لا ترتطم بسيارته تلك العلبة الفارغة التي قفزت من سيارة أمامه. على جانبي الطريق السريع تراكمت قمامة متنوعة من كراتين وأكياس بلاستيك وعلب فارغة وبقايا خضار. لم يكن المنظر مختلفاً على الطريق الريفي الذي سلكه قبل قليل، ولكن الزبالة هناك كانت زبلاً وشوالات ملأى ببقايا مواد البناء والهدم. استمر يفكر في القمامة حتى وصل إلى العاصمة؛ فوجد أن أكوام القمامة الملقاة إلى جانب الحاويات أكثر مما في داخلها.. خطر له تساؤل عجيب: كيف نطلب ممن لا يتقنون وضع القمامة في مكانها، أن يحسنوا وضع النواب والمديرين والرؤساء والقادة في مواقعهم!!

الخميس

كانت أقرب ما تكون للفراشة، مريول مدرسة أخضر مخطط بالأبيض، وشعر أسود متطاير، وحقيبة ظهر زهرية لامعة تبدو خفيفة ولا تشكل معيقاً لقفزاتها وركضها على جانب الطريق مجنحة وتتمايل ذات اليمين وذات اليسار.. كانت الفرحة تشع من كل جوانبها وتصرفاتها. خمن عمرها بين التاسعة والعاشرة، نبهها بزمور خفيف؛ فالتفتت إليه ملوحة بيدها للتحية؛ فرد تحيتها بمثلها وأضاف ابتسامة عريضة وواصل الطريق بسيارته.

تذكر أيامه وهو خارج من المدرسة ظهر كل خميس.. كانت أسعد أوقاته وهو ينطلق من المدرسة إلى الشارع العام بحثاً عن بائع الصحف والمجلات الجوال؛ فينقده ادخار الأسبوع ويأخذ في المقابل مجلتي ميكي وسمير الأسبوعيتين، وإذا فاض شيء من المبلغ يطالب البائع بإحدى روايات مسلسل أرسين لوبان البوليسية المترجمة. كان ينسى كل ما حوله ويباشر في مطالعة ميكي أثناء الطريق لمتابعة ما انقطع من المغامرات، وينتهي من مطالعة كل المشتريات قبل مساء الجمعة.. هنا تعود المناكدة، الواجبات المدرسية التي لم يتعامل معها ويؤجلها ساعة بعد الأخرى وثم يؤكد لذاته أنه سيقوم من النوم مبكراً صباح السبت ليتعامل مع الواجبات.

في الصباح يبدأ بالاستعداد النفسي والجسدي لتلقي العقاب

بالضرب على اليدين.. قال لذاته وقد ابتعد عن الصغيرة مسافة وعن زمانه بعقود: إن نظام التعليم ما زال طارداً للعقول ومكرهاً للمدارس.

السبت

بفضل بعض ذكائه الفطري، ودفع والدته ليهتم بدراسته الابتدائية والإعدادية، انتهى من تعليمه الأساسي، ولاحقاً الجامعي. كانت نقطة ضعفه وخوفه يوم السبت؛ ففي كل الأيام كان يهتم بدروسه في الفصل، ويقوم بواجباته المدرسية طوال بعد الظهر وبداية المساء، لكنه يومي الخميس والجمعة لا يتعامل مع أي شيء ذي علاقة بالمدرسة، وكان يستغرب كثرة الواجبات التي يكيلها المدرسون للطلاب يوم الخميس، وبالتالي كان يوم السبت حتمياً لتلقي العقاب بالضرب.

قيل له إن دم الحراذين والسحالي على اليدين يلغي الوجع من الضرب؛ فكان مع نظرائه يتصيدونها صباح السبت ويلطخون أكفهم بدمها. الذين صدقوا المقولة كانوا يتحملون الضرب بكل ثبات.. والمتشككون كانوا يسحبون أيديهم قبيل ارتطام العصا الهاوية؛ فتواصل طريقها على ساق المدرس الذي يستشيط غضبه ويباشر الضرب الانتقامي على الأكتاف والأذرع والظهر.

الشبح

قيدت حركته، حاول التملص من دون جدوى. هو كالمصلوب

على بطنه، لا يرى من يركبه ويعيق حركة يديه وقدميه وجسده تماماً. أدار رأسه إلى اليسار؛ فرأى أخاه نائماً بهدوء على فراشه بجانبه؛ فحاول الاستنجاد بأخيه، لكن لسانه لم يطاوعه وقيدت الكلمات في فمه.. اشتد رعبه وسأل نفسه هل هو نائم يحلم؟ لا يبدو الأمر كذلك؛ فهو متيقن أنه صاحٍ. عندما فكت عقدته لم يشعر بتغير من نوم الى إفاقة، لكن كل شيء انتهى وبقي متيقظاً حتى طلوع الشمس؛ فقد خاف العودة إلى النوم.

الثعبان

تنبه أنه ملتصق بصدره إلى الجبل، تحسس مواضع قدميه فلم يشعر بالأمان وشك في قدرة تحمل أصابعه العشرة لجسمه، وتوقع الانزلاق والسقوط والتدحرج فوق النتوءات.. لم يتجرأ على الالتفات إلى أسفل خوفاً من الارتباك.

كان قد شاهد ثعباناً على الأرض بين الحجارة والرمال؛ فلاحقه بدافع الغريزة؛ ثم تسلق خلفه بخفة لم يشعر بها ولا يدري كيف وصل إلى كل هذا الارتفاع. أيقن السقوط وربما الموت، أو أقله الإصابة حيث لن يسمعه أحد، ولن يعثروا عليه إلا حين يفتقدون غيابه.

لا يدري ماذا حصل بعد ذلك، ولكنه وجد نفسه قائماً على قدميه فوق الأرض حيث بدأت مطاردة الثعبان، ينفض ملابسه ويتفقد جسده. طوال عقود تلت، وكلما تذكر تلك الحادثة تراوده الشكوك في إلحاده.

أحب الدنيا

كان على ثقة أنه رجل طيب صالح، أمد الله في عمره وحسنت صحته، وحين ناهز قرناً من الزمان تزوج بكراً عشرينية؛ فجاءته الملائكة بالبخور والعطر ليلة الدخلة. بهر بهم؛ فترك عروسه وذهب معهم، ولم يعد بعد.. النهم والمتع لا تشبع إلا بالموت.. أحب الدنيا فأحبته الآخرة.

الساحرة وشلتها

كانت تظن أنها ساحرة! أو تتمنى ذلك؛ فهي من أشد المؤمنين بالسحر والجن، وأنفقت ما لديها من نقود على السحرة والبخور سعياً لكشف مخابئ الذهب بجانب المراحيض حيث يقيم الجن.. وكان هو يكرهها ويتمنى يوم آخرتها. كلما رأته مدحت صحته ووسامته، ثم نبهت من حولها وزوارها لتمام صحته، واكتمال عافيته وشبابه حتى في سن السبعين. كان يعرف سعيها لحسده؛ لكنه لم يعبأ؛ لاقتناعه بحماية والدته من القبر، التي كانت تدعو له دوماً: الله يرزقك أولاد الحلال، الله يحنن عليك الناس، الله يحميك من الحسد والحساد. كل دعواتها تحققت على أكمل وجه، وصارت الحياة حنونة معه.

إبليس

شلة الشمطاء، التي تظن نفسها ساحرة، يؤمنون بالسحر والعفاريت على أنواعها. أراد أن يعزز جهلهم ويفرض تفوقه عليهم..

أقر في مناسبة اجتماعية جمعته ببعضهم بوجود السحر والشياطين: إنهم في معظم آيات القرآن، ومن يتفقه في بعض زوايا الكتاب يمكنه التوافق، بل والاتفاق مع الشيطان ليقدم له خدمات بسيطة، في مقابل ضمان الشيطان للصحة ومنع الشيخوخة وتوفير المال والحب. فغروا أفواههم بين مصدق ومتعجب، وتحققت شكوكهم في أسباب توفيقه وصحته وتواصل شبابه ووسامته. لم يجب عن التساؤلات بخصوص الآيات والطريقة للتواصل، وغير الموضوع؛ ليظهر لهم أنه قد تجاوز الحد بذلك الاعتراف.. قال فقط: يجب مطالعة عشرات، بل مئات الكتب.

الحبيبة

تغيب الحبيبة وتنقضي سنوات العمر، ولا يغيب الحب.. تذكر لحظة رضى وتقارب.. طاف بيده خلف جسدها واعتلت وجهها ابتسامة فاضحة للمخفي. أصبحت هذه الذكرى تساوي كل شيء وبقيت في ذاكرته، إذ سحرتهما معاً، لكن الأهل والظروف قمعت أفكاراً وأمانيهما.. طلبت مقابلته فأسرع إلى الموعد مبكراً وفاز بمخالفة مرور، وحين حضرت متأخرة متعذره تظهر الاطمئنان من بين أنياب القلق، جلست تأكل الأيسكريم وتلتفت متلصصة إلى كل قادم إلى المحل؛ لتطمئن أنه لا يعرفها.. حينئذ شعر بعدم التناسق والتوافق، ولكنهما تواصلا وتواعدا على لقاء آخر. تواصل الحب المكنون بأحاديث العيون؛ وذلك على

الرغم من زواجها وتجديد ذاتها طبق الأصل بإنتاجها لزينة الحياة. حب الدنيا دليل على الصبر والمثابرة ومرتبط بعشق الجمال والكمال وطاعة وشكر الخالق على التفهم والستر.

المجنون

كان طبيبه النفسي قد تحقق من حالته، وخصص له أدوية تبقيه هادئاً، لكنه وعلى الرغم من ذلك كان يراهم أحياناً ويحدثهم. والدته هي الصديقة الأقرب إليه، وكان أحياناً يخبرها بزياراتهم، بل كانوا يوجدون وهو يحدثها عنهم ويتحدث إليهم. كان على ثقة بحقيقة ما يراه حتى لو أخبرته والدته عندما يذهبون أنها لم ترهم.. حالته هذه أثرت في العائلة وأحزنت والدته، ولم يتمكن هو من الحصول على أي عمل. ذات صباح وجدوه أمام المنزل، ولم يعرفوا هل قفز من الطابق الثالث حيث كانت شقة خاصة به، أم أنه سقط سهواً من هناك، أم أنهم غضبوا منه وقذفوا به. عندما شرحوا جثته عرف الطبيب المختص أنه كان مريضاً بالقلب، وأن الأدوية النفسية لم تكن تلائم وضعه الجسدي.. كانت كارثة إضافية لوالدته كونها لم تفكر في احتمال علل أخرى غير النفسية.

العفريت

عندما عاد إليه بعد أقل من ساعة في ظهر يوم خريفي مشمس، وجده راقداً ورجله مكسورة، وذلك في قطعة أرض صغيرة لها بوابة

على شارع عام مأهول بحركة سير المارة والمركبات، لكن قطعة الأرض المشجرة بلا مساكن مجاورة. كان قد أحضر ابن أخته هذا، المولود والمقيم في المخيم، ليساعده في العمل، ثم تركه لإحضار بعض الأشياء. «ماذا دهاك، وكيف كسرت رجلك؟»

«جاءني على البوابة عفريت شعره أشعث، يحرك رأسه بسرعة.. أطلق أصواتاً مبهمة». قال الشاب العشريني بكل ثقة واقتناع، وأضاف: «سألته ماذا يريد؛ فهرب، ركضت إليه؛ فوجدت البوابة مغلقة بالقفل، حاولت تسلقها للحاق به لكنني وقعت وكسرت رجلي».

العربيد

تحرش العربيد به ليلاً، وعندما فشل في تجنبه قتله وواصل طريقه إلى البيت. في الصباح حضرت شرطة وأخذوه للمحاكمة بتهمة القتل. مروا بالموقع فإذا بجثة إنسان بدل العربيد؛ ففتحوا باباً في الأرض ونزلوا حيث عقدت محاكمة متكاملة.. كان حكم الموت ينتظره، لكن محاميه أثبت جهله بمن قتل، وأنه كان في حالة دفاع. أفرجوا عنه وأخرجوه من الباب نفسه.. لكن شعره أصبح أبيض وتجعد وجهه، وصار ينصح الناس بعدم قتل العرابيد.. هذا ما حدث مع ذلك المواطن في كل بلد عربي.

الجني

«هس هس، لا ترفعوا صوتكم حتى لا يهربوا». نظرت إلى من حولها وقد صمتوا، ثم نظرت في الفراغ. «ها هم قد وصلوا، ترونهم؟»

سألت بصوت منخفض من يجلسون معها من الأهل الذين نظروا بعضهم إلى بعض ثم فتشوا بأنظارهم عن الذين وصلوا. رأت في عيونهم أنهم لم يروهم: «أنتم عميان ها هم ينظرون إليكم».

«كيف حالكم؟» سألت أمها زوار الخفاء لطمأنة البنت، لعل وعسى أن تسمع منهم إجابة أو تغير البنت نظرتها إلى الأمور. «لا أسمع ردهم يا بنتي هل قالوا شيئاً؟»

«لم يتحدثوا إليكم بعد، ولكنهم يلعبون بالكرة في الممر، ألا ترونهم؟ ألا تسمعون صوت الارتطام؟» اصفرت وجوه بعض أقاربها الذين تذكروا ما كانوا يسمعونه في بيتهم القديم من أصوات ارتطام الكرة بالأرض وظنوا أنها أصوات قذائف، لكن بعضهم شاهد كرة غريبة تتدحرج ثم تختفي؛ فعرفوا أن الحرب بريئة.

أغلبية العائلة نجمها خفيف تعتقد بوجود الجن والشياطين وظهورهم ليلاً، لهذا يكثرون من الإضاءة في كل الأماكن كلما سمحت الظروف وتوافرت الطاقة. لكن أياً منهم لم تصل به الهواجس مثلها؛ فهي تراهم ويرونها وتهامسهم، وتنفذ طلباتهم.. مثلاً إلقاء كل الأثاث خارج البيت والاعتكاف بداخله فارغاً للفسح في المجال لهم.

توصلوا إلى شبه قرار أنها مركوبة من أحد الجن؛ فاتفقوا على إحضار الشيخ شحدة الذي يقال إن والدته كانت عاقراً ثم شحدته من الله؛ فاستجاب لها بهذا الصبي الذي كبر وأصبح شيخاً له بركات منها طرد الجن. حضر الشيخ شحدة إلى البيت؛ فوجدها في حالة شبه

طبيعية وتحتم عليه تشخيصها دون تلبس. اقتنعت بالتجاوب وتمددت على الأريكة بعد أن غيرت حجابها بنقاب بناء على طلب الشيخ.

ارتفع صوت تلاوة القرآن، هبط الشيخ برأسه قرب أذنها.. توقف عن التلاوة وباشر بالتكبير، ثم طالب الساكن بالخروج. لم يسمع إجابة ولم يعرف أحد ردات فعل صاحبة السكن لأن البرقع شامل كامل، لكن جسدها اهتز. قال الشيخ الحمد لله، وظن زوجها أنها اهتزت من شدة الضحك المكتوم. أقنعوها أن الجني غادرها؛ فطلبت منهم أن يوزعوا أطفالها على العائلة لأنها ملتهم وملت انعدام تربيتهم. شرحوا لها عدمية رأيها؛ ففي النهاية لا يريد أي منهم تحمل مسؤولية كهذه.

سكنت فترة تخللتها عدة شجارات مع الزوج وتبادل لكمات وشتائم. فكرت ملياً في وضعها وقررت الهروب من الجن والإنس والزوج والأطفال والأهل.. ليس إلى الجنة، لكن بالبحث عن بلد يستقبلها كمهاجرة، أو لاجئة، أو حتى سائحة متخلفة، المهم هو استنشاق الوحدانية في مكان جديد.

سماويات

التفاخر

استمع لفريق ممن يظنهم أصحابه يتفاخرون بأصولهم وأنسابهم؛ فيمر هذا على أحد المشاهير ويعتبره جده الأول، ويطوف آخر على مجموعة أبطال من الماضي المجهول ليربط بينهم وبين ذاته، ويسلك ثالث أصوله إلى ذلك المقدس في تلك البقعة.. ثم نظروا إليه وأنصتوا؛ فقال: أنا أشرفكم نسباً وأعلاكم قامة؛ فجدي المؤكد بغير جدال هو النبي نوح، وجده أبو البشر آدم الذي خلقه الله بيديه وصنعه على شاكلته، وبالتالي فأنا حفيد من شاهد الله بعينيه وحاكاه وتعلم منه مباشرة.. من أشرف مني إذاً؟ تبادر لبعضهم الضحك، ولكنهم لم يفعلوا ورفرف على رؤوسهم الطير توقعاً لتفعلها.

طيران الأولين

نقل عن الأولين الأجانب، أن ملك جزيرة قد احتجز في متاهة واسعة عالماً وولده عقاباً على تهربهما من تنفيذ أوامر الآلهة. استقر رأي الأب على مغادرة المتاهة والجزيرة عبر صنع أجنحة وتثبيتها بالشمع وربطها إلى الأذرع. «عندما نقلع مقلدين الطيور اتبعني، وإياك الارتفاع كثيراً والاقتراب من الشمس». قال الأب لابنه، الذي استهواه الطيران وأصعده الفضول إلى أعلى، حتى اقترب من حرارة الشمس؛

فبدل البرودة ذاب الشمع ووقع الريش عن ذراعيه حين استمر يحاول التحكم في الطيران، لكنه دون الريش فشل، ووقع في البحر وغرق ومات.. وتوتة توتة خلصت الحدوتة.

القاتل

لن أسمح لك بالزواج بها مهما كلف الأمر، وستكون زوجتي أنا. قال الأخ لأخيه في مخالفة لما هو سائد. استمر النقاش وتطور إلى تهديد بالقتل؛ فاقترح صاحب الحق أن يحتكما إلى الآلهة عبر تقديم كل منهما لقربان، واتفقا على ذلك.

قدم صاحب الحق فخذاً سميناً من اللحم؛ فقد كان راعياً، ولم يكن أخوه الفلاح متديناً؛ فقدم بعض المنتجات قليلة الجودة، لكن المفاجأة كانت أن ضربت الآلهة قربان الفلاح بالصاعقة؛ فاحترقت من شدة رفض الآلهة لها حسب تفسير صاحب الحق.

أصر الفلاح على تزوج العروسة الجميلة ورفض نتيجة اقتراع القرابين، وقتل أخاه وتزوج الجميلة والأخت الأخرى أيضاً وباشر في الإنتاج لقتله الإخوة والآباء والأبناء والأقارب والأصدقاء والحلفاء واليتامى والمساكين، وقتل غيرهم من أهل السبيل سعياً للمصلحة والرخاء والسيادة الذاتية.. ويستمر مسلسل القتل والاقتتال المتوارث عبر الجينات والتربية الأنانية.

الخيانة

قيل إن جدتها تسببت بكارثة للجميع، واتهمت هي بخيانة زوجها، ليس جنسياً، ولكن بعدم الانصياع لأفكاره المتفردة، وبإفشاء أسراره لجماعتها.. حاول إقناعها بالانضمام إليه، وحذرها من مصيبة قادمة على الجميع، لم تصدقه وكان مصيرها وبعض ذريتهما الفناء..

وفي رواية أخرى أنها سايرته، لكنها لم تكن طيبة معه على الرغم من إنقاذه لها، بل إن أحد أولادها هزئ بوالده؛ فغضب عليه وتمنى على الآلهة أن تصبغ لون ذريته بالسواد. من أولادها وسوء تربيتهم بدأ الصراع العنصري وتعمق.

القصة تكررت بحذافيرها تقريباً مع غيرها من الخائنات لأزواجهن الصالحين، لكن بعضهن أسخطن مباشرة، والبعض الآخر أصبن بالعار؛ فكل طالحة مع صالح وترفض الانصياع تلاقي المصير الشائن نفسه بعد سيل من التهم والشرشحة، وتصبح جداتنا الأُوَل من رفيقات الشيطان، ومصيرهن النار مع الداخلين.. ولا يبدو أن من اتبعوا الأزواج قد ضمنوا بالضرورة الجنة.

مقايضة

كرر عليها القول وهما يسيران وسط الصحراء أن القحط هو الذي يدفعهما للرحيل. عندما اقتربا من أول المدن طلب منها أن تخبر

القوم أنهما أخوان وليسا زوجين. عرفت بغريزتها المطلوب؛ فتجملت ورتبت شأنها قدر الإمكان، وأكدت أنهما أخوان في طريقهما إلى بلاد أبعد. سمع الملك بهما فقرر المساعدة وتقدم لزواج الأخت، ودفع مهرها الكثير من الأغنام والمواشي؛ فأصبح الأخ غنياً واستأجر العمال والرعاة..

لم تنقض مدة طويلة حتى وصل إلى الملك أن الأخوين حين يلتقيان يفعلان ما لا يفعله الإخوة. عند المواجهة الغاضبة قال الملك: لقد أخزيتني وجعلتني أخالف قيمنا أمام قومي؛ فنحن لا نتزوج زوجة رجل آخر، لماذا كذبت علي؟ جاءه الجواب أنه الخوف من الموت إذا عرف الغرباء أنها زوجته، فقد يقتلونه لأخذها منه!

بل حبك لمهرها، قال الملك وأمره أن يأخذ أخته ومهرها ويغادر بلا عودة. لكن القصة تكررت بتفاصيلها مع ملك آخر أعظم من الأول، وعاد الزوج إلى الديار بالمزيد من المواشي والرعاة.

الضرة

جاء أمر زوجته الأولى واضحاً حاسماً: اطردها مع وليدها وألق بهما في البراري. لاحظت تردده فكررت وأنذرت. لم يسأل ذاته عن سر خنوعه لها؛ فلم تكن ذات مال أو جاه، ربما كانت جميلة وهي شابة ولكنها الآن عجوز! «لكنك أنت التي طلبت مني زواجها لتنجب لنا ولداً، وقد فعلت أنا وفعلت هي؛ فلماذا القسوة

والحكم عليهما بالموت البطيء؟» لم تجبه، وأعلنت عبر جسدها وتقاسيمها تأكيد الأمر؛ فخنع وسأل الغريمة أن تحمل ولده وتتزود بالماء والطعام وتسير خلفه. وصلوا إلى القحل وابتعدوا عن آثار البشر؛ فاستدار وعاد تاركاً الرضيع وأمه تلبية لطلب العجوزة.. فتولدت الأساطير والروايات واستمرت السواقي تدور بقوة الحمير السحرية.

الأعرابي

يحكى أن أعرابياً تزوج سيدة، وعندما طال انتظارهما للإنجاب من دون جدوى، تزوج خادمتها الصغيرة ؛ فأنجبت ولداً؛ فغارت العجوز وأنجبت هي الأخرى ولداً، وبدأت حياة الأعرابي تتنغص بدل السعادة بالابنين. ذات ليلة جاءه كابوس أراه أن الحل بقتل أحد الولدين، لكن معضلته كانت أيهما يكون المجني عليه؟ أيقتل بكره ابن خادمته الجميلة المطيعة، أو المدلل الصغير ابن الأولى الأكثر رقياً وإزعاجاً؟

استشار بكره فأطاعه وتطوع بالاستسلام؛ فألبسه جميل الثياب، وقبل أن يخرجا شاهدتهما أم المدلل وسألت بغيرة عن سر الرحلة. قال لها: أخبرني الوحي بقتل أحد الولدين؛ فتطوع هذا، لكن يمكن أن أستبدله بابنك لو رغبت! دعت لهما بالسلامة والتوفيق. كان يفكر في الطريق إلى الجبل بطريقة القتل، استقر

على الذبح، وبعد أن أتم الاستعدادات وقبل أن يستل السكين، أغار عليهما خنزير بري ذو أنياب وقرون ونطح الأعرابي في مؤخرته؛ فأفاق من الكابوس، وشكر الآلهة أن الأمر لم يكن أكثر من ذلك، وبعد القليل من التفكير رأى في الكابوس أوامر إلهية لإنهاء الإزعاج؛ فقرر أن يكثر من الزيجات والأبناء والبنات فتنصهر المشكلات بعيداً منه.

الخال

سيئة الطباع، أفسدت بين الأخوين التوأمين، وبين مفضلها وزوجها، وبحجة حمايته من الانتقام الأبوي الأخوي أرسلته على وجه السرعة بعيداً جداً.. إلى مضارب أخيها، وطلبت من مدللها أن يتزوج هناك ابنة خاله.

وجد هناك ابنتين، الصغرى راقته فخطبها مقابل عقد عمل طويل الأجل. في يوم الصباحية وجد أختها في الفراش.. احتج لدى خاله على هذا الخداع، لكن التقاليد تحتم تزويج الكبيرة أولاً، وبوسعه زواج الأخرى ولكن بعقد عمل جديد طويل الأمد..

انتهى به الحال بالأختين وبالخادمتين وهرب بالأربعة وبالأغنام والمواشي وما أنجبه من دزينة أبناء، وعاد بعصبته لاستكمال الصراع مع أخيه وبقية الجيران، القريب منهم والبعيد.. لم تكن الوالدة تتوقع كل هذا وما سيليه من مدللها.

أجداد وأحفاد

شهد الجميع على الأم بكل الموبقات، ونالت في نهاية القصة العقاب الشديد، وكون الابنتين يفترض أن تكونا تربية الأم؛ فقد نسب إليهما أشد فعل السوء.. أشربتا والدهما المسكر وضاجعتاه، وحبلتا وأنجبتا. البكر أنجبت من أصبح في صف أقداس القوم، ومؤسس لقبيلة ومملكة حملت بلغتهم اسمه: ابن أب. والصغرى أنجبت مثلها وتلقب منتجها بتلك اللغة ما يعني ابن شعبي.. هو الآخر أسس قبيلة ضخمة مجاورة.. والد الابنتين المنجبتين مقدس موقر من الجميع، وهو ابن أخ المقدس المؤسس.. العلوم والبحوث الحديثة ترفض حقيقة وجود ذلك المؤسس، وأن قصته وورثته لفقت لاحقاً عن قصص لأقوام أخرى؛ فحولوا قصص الملوك الحقيقيين إلى أنبياء وهميين وغيروا الجغرافيا؛ فثبت الوهم واندثرت الحقيقة، ولكن، كالعادة، إلى حين.

سيدات وعبيد

هي ابنة ملك، وخالها ملك آخر، وزوجها وزير ملك ثالث. هو سليل عائلة فقيرة جوالة بحثاً عن الحبوب، ادعى أحفادها لاحقاً أنهم يتوارثون القداسة أباً عن جد، ويورثونها. كلاهما جميل الملامح، شاءت ظروفهما اللقاء كما سيدة وخادمها، فوسوس لهما الشيطان اللعين، كالعادة. هم بها وهمت به، لكن الباب فتح عليهما بيد الوزير؛

فاتهما كلاهما الآخر ببداية العزم.. بعد كل العقاب الذي أصابهما، وتأثير السنوات في جمالهما، وعلى الرغم من فارق العمر استمر الحب الصامت.

عندما مات الوزير تمكن الأسير بفنون القداسة المتوارثة من الوزارة؛ بل من البلاد، وتزوج سيدته، وأنجبت له على الرغم من سنها ولدين، وأنجب الأول والداً مقدساً، وزوجة مقدس آخر، ولم يتوقف الإنتاج والبركة طوال قرون تلت.

الذكية

كانت من عاملات المعابد؛ فأنجبت غلاماً ترفضه الظروف والقوانين ولكنها أحبته؛ فما العمل؟ قتله غير وارد بالنسبة للأم التي تعتبره هدية من السماء ويفترض بالتالي أن يكون له شأن، واتهام رجل ذي شأن بالأبوة قد ينقلب إلى ضده!

خياراتها: وضعه في سلة وإرساله في النهر، أو تضعه أمام باب المعبد.. لكن هذا الحل يحمل مخاطر وسينهي علاقتهما ويحرمها منه. اهتدت إلى الحل الأمثل: أن تضعه في السلة في حديقة رجل عالي الشأن والعلم ذي زوجة جميلة عقيمة الإنجاب..

أصبح الطفل هدية مقدسة من السماء لأمه الجديدة، وتمكنت أمه عاملة المعبد من تأييد العطاء السماوي والتهليل له، وساهمت في حلول مشكلاته اليومية بينما كان يتلقى أفضل وأجل التربية والتعليم

في زمانه، حتى أصبح يكلم الآلهة ويتقن علوم الكيمياء والسحر ويصنع الأساطير.

الشمطاء

خرجت لهم شمطاء عوراء تسألهم، فسألوا عن الرجل الصالح ساكن البيت، وقالوا إن السماء امتنعت، والأرض أمحلت في بلادهم، ويريدون من الرجل أن يدعو الآلهة لتحسين الحال. أخبرتهم بعجز زوجها عن الدعاء المستجاب بدليل قحطهم، ولكنها أعلمتهم أين يجدونه.

وصلوا إليه وأخبروه بأمرهم؛ فصلى ودعا لهم، وأخبرهم أنها أمطرت في بلادهم الآن. قبل أن يغادروه سألوه عن الشمطاء العوراء في بيته، وأنها قالت لهم: لو كان زوجي داعياً لدعا لنفسه فإن زرعه قد احترق. قال لهم: تلك أهلي، وأنا أدعو لها بطول البقاء؛ فقالوا: وكيف ذلك؟! قال:

«لأنه ما خلق الله مؤمناً إلا وله عدو يؤذيه، وهي عدوتي، فلئن يكون عدوي ممن أملكه خير من أن يكون عدوي ممن يملكني».

الحسون

«أين ذلك الحسون اللعين»؟ لم يجب أي من الحيوانات والطيور المجتمعة، والأسماك المستمعة. «من يراه منكم يبلغه بالمثول الفوري

أمامي، وإذ لم يكن معه سبب وجيه للغياب لأنتفن ريشه ولأمثلن به». عندما وصل الخطب إلى الحسون تمالك مخاوفه وتعجب: كيف لم يعرف الساحر بمكانه وهو يدعي عظائم الأمور؟ قرر الحسون أن يخادع طلباً للنجاة وسعياً للحقيقة.

حضر الحسون أمام الساحر متظاهراً بالتعب والإرهاق وبدأ يروي كيف سافر بسرعة خارقة إلى بلاد بعيدة وشاهد ملكة غاية في الجمال، ولكنها لم تسمع بالساحر ومجده، ثم بالغ في وصف جمال جسدها وما تحت لباسها الفضفاض حيث رقد الحسون وهو يخاطب الملكة ويخبرها عن سيده.

قرر الساحر إحضار الملكة، وتشكر للحسون المخلص، وطلب من العمال صنع أرضيات عاكسة حتى يرى، وهو على كرسيه يستقبلها، ما شاهده الحسون من تحت ثيابها. أعجبته الفكرة وطلب من الجن إحضارها، ونجا الحسون بريشه.

النحات

كان من عادتهم أن يُقرعوا على رعاية الأيتام بعد خروجهم من الملاجئ؛ فكانت الصبية من نصيب النحات، هو أيضاً يشتغل في الأخشاب.. متزوج ولديه خلفه. مرت الأيام وحملت الصبية سراً وبدون قصد ومعرفة، وعندما أبلغته تلعثم لسانه وتشتتت أفكاره، لكن الأيام سريعة الدوران ولا بد من مخرج.

كانت الخيارات محدودة، مغادرة الجميع البلد، أو مغادرتها وحيدة ريثما تلد، أو الإشهار.. كلها حلول غير مناسبة، فكر وقال لها: سوف تلهمنا الآلهة الحل وتساعدنا، وحتى يتحقق ذلك لا تحدثي أحداً، وانظري إلى السماء إذ توجه إليك سؤال مباشر، والبسي الفضفاض، وقبل الولادة بزمن سنتوجه إلى زيارة الأولياء وقبور الأنبياء والأماكن المقدسة، ونترك للآلهة اقتيادنا. سافرا كاثنين، ورافقتهما النجوم، ووصلوا كثلاثة رابعهم الحمار.. ظهر الدعم الإلهي وبدأت مسيرة المعجزات.

الصابرة

كبرا في السن، وكانا غنيين صحيحين لديهما العديد من الأبناء، اشتهرا بالصلاح وخصوصاً الزوج. تدخل الشيطان لدى الآلهة، فانقلبت الأمور على الرجل، ذهب المال ومات الأطفال، وكثرت الأمراض بأنواعها الداخلي والخارجي؛ فانفض القوم عنهما، وطلبوا من الزوجة أن تخرجه من بينهم للبراري خوفاً من العدوى. اشتغلت في الخدمة لتطعمه، وعندما رفضوا تشغيلها قرفاً منها ومما تفعله لتغسله وترعاه وتزيل جربه، حينذاك باعت جدائلها لتضمن حياته التعسة. لاحظ الزوج ما فعلت؛ فغضب وزمجر بما تبقى لديه من همة، وأقسم أن يجلدها مائة جلدة حين تعافيه الآلهة من بلاويه، واجتهد في الدعاء وجاءت الاستجابة وكان لا بد من الوفاء بالقسم.. لكنه خجل

من ذاته قليلاً؛ فجاءه الوحي بالحل: اربط مائة قشة رفيعة معاً واضربها مرة واحدة. فعل وكانت الأمور قد عادت إلى سابق عهدها، بل رزقوا مجدداً البنين والبنات وعاشوا في ثبات ونبات.. واشتهر هو، واختلف الخلف حول اسمها ومن تكون.

الأخ والعم

ذهب العجوز مع ابنه العاشر ليخطب له زوجة؛ فشاهد ابنة عمها، وخطب الأولى لابنه والثانية له، وعرسا معاً ودخلا في الليلة نفسها. بعد انقضاء شهور العسل الثلاثة ارتحل الابن مع تجارته، ومرض ومات ودفن قبل عودته.. انقضت الشهور وأنجبت زوجة الأب ولداً، وأنجبت زوجة الابن ولداً هي الأخرى نسب لأبيه، وأصبح بعد حين من مشاهير زمانه. الإشكالية التي صنعها العلماء والنساب هي اعتبارهم ابن الأب أسن بعامين، أو أكثر من ابن الابن، وما زال علماء يؤكدون هذا الفارق الإعجازي في السن. عند سؤالهم عن التناقض في موقفهم واقتراح أن يعتبروا الاثنين من سن واحدة، يدعون أن زوجة الابن احتفظت بالحيوان المنوي لزوجها المسافر، أو بالجنين راقداً في رحمها طوال المدة المختلف عليها، سواء أكانت سنتين أم أربعاً!! وتستمر المهزلة من دون تصحيح للمراجع على الرغم من شهرة العم وابن أخيه ومكانتهما.

الشيخ والطفلة

كان في الخمسين، وزعيماً لجماعته المتنامية، وكانت ابنة صديقه في السادسة حين زارهم في البيت؛ فوجدها تلعب بمجسم خشبي لحيوان مُجنح. سألها مداعباً وباستغراب: وهل للبغل أجنحة ليطير بها. نعم، قالت له وشرحت أن والدها اشترى لها هذه اللعبة من تاجر قادم من بابل.. وأضافت: هناك تطير الخيول. انشغل مع صديقه عن الطفلة، ولكنه لم ينس جمال وبراءة الطفولة التي تشع من وجهها، وسرح خياله فيما يمكن لحصان طائر أن يفعل، وكيف يستفيد من حيوان كهذا في تنمية جماعته وعصبته.. لم ينس خيالاته وأمانيه، وصار لهذه الزوجة الصغيرة ولعبتها فضل واسع عليه.

المكيدة

كلما تزوج واحدة، يكرمها بضعة أيام ثم يخصص لها يوماً مثل الأخريات. لكن هذه الزوجة كانت جميلة نبيلة، وتنبهت اثنتان من الأخريات لحقيقة ميله هناك، ورجحتا احتمالات الخطر؛ فقررتا التخطيط والتنفيذ.

«إذا جاءك من عندها؛ فقولي له إن رائحة لباسك عفنة، أين كنت تجلس؟» وعندما جاء لإحداهما أسمعته ذلك؛ فقال إنه قادم من عند فلانة وجلس على فراشها.. انتهى الأمر حتى تكرر الحال

في الدورة التالية، وأسمعته الثانية الموال نفسه؛ فأجاب كما في المرة الأولى وأضاف أنه لن يجلس على ذلك الفراش العفن مجدداً. لكن الله ألهمه، وكشف له المكيدة، وعرف آباء المتآمرتين بالفعل، وفزن بالتوبيخ والتهديد بالطلاق وتزويج الزوج بأحسن منهما.

الوصية

قال إن زوجته التي مُنع من الزواج عليها، طلبت منه وهي على فراش الموت أن يتزوج ابنة أختها، كونها تعرف أولاده وسترعاهم بعناية.. وهكذا كان، ثم توالت الزيجات حتى أصبح له واحد وثلاثون ولداً وبنتاً. لم يكن هناك مانع اجتماعي من زواج الصغيرات؛ فقد فعلها من سبقه من القدوة، وطالبه بها لاحقاً صديق تزوج ابنته الصغيرة، وكلتاهما كانتا حفيدتين لصاحبهما المتوفى.. وتمر المياه في الأنهار طويلاً وما زال الشيوخ يحبذون نكح الصغيرات الفقيرات وضحايا الحروب، ويستشهدون بالأولين.. لو أراد الشيوخ الاستشهاد؛ لقلدوا الرسول وزواجه بخديجة، الأحب على قلبه وأم بناته، والتي كبرته بربع قرن وكانت قد تزوجت اثنين من قبله، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت.. هذا المثال والقدوة لا يخطر على بالهم.

الأمير والإمام

كان الإمام على يقين بأحقيته في خلافة الزعامة بحكم القرابة

والمصاهرة من الزعيم الأول المتوفى، لكنه فشل في نيلها، وتحمل التبعات إلى حين، ومن ضمنها تقدم الأمير وريث الوريث لطلب مصاهرته..

إنها صغيرة على الزواج أيها الأمير؛ فهي دون العاشرة!

ليس بغرض النكاح أريدها، ولكن لقرابتها لزعيمنا وتمنياً للتقرب ونيل رضا الرب. فشلت محاولات الوالد لردع الأمير، فأرسلها إليه حاملة قماشاً ليراهما. استبشر الأمير وأخبرها إخبار أبيها بحسن البضاعة والحامل وبقبوله للاثنين.

تم الزواج مع الستيني وتبعه الإنجاب لصبي وبنت، وطُعن الأمير الأب ومات. تغيرت الأحوال السياسية بسرعة وتخوف أمير لاحق أن يطالبا بالحكم كوريثين؛ فعمل على تسميم الأم والابن وموتهما في ساعة واحدة.

المزواج

حين توفيت الأولى انطلق في الزيجات، ثيب وأبكار ومطلقات وأرامل ومسبيات؛ فلم يرفض أياً من نعم الله. أراد توسيع النسب وتقوية الظهر، لكن الله في المقابل لم يرد له عزوة الأولاد الإنجابية. هو في الأصل لم يكن من مؤيدي تعدد الزوجات، وقد رفض ومنع صهره من الزواج على ابنته، واشترط أن يطلقها قبل أن يجلب لها الضرة. اعتبر ذاته وزيجاته استثناء لأهداف سياسية، ولم يكن وحيداً

عبر التاريخ؛ فقد سبقه وتبعه الكثير على هذا الطريق، مع فارق أن معظمهم أنجبوا البنين والبنات بالجملة؛ فاقتتلوا على ورثة الزعامة.. هكذا فقد أحبه الله ورحم قومه؛ فحرمه من البنين ومن سلالة الإناث أيضاً غير المعترف بها عند العرب.

من الكتاب المقدس، سفر التكوين: زواج يعقوب من ليئة وراحيل

.. وقال (الخال) لابان ليعقوب: «هل لأنك قريبي تخدمني مجاناً؟ أخبرني ما أجرتك؟». وكان للابان ابنتان، اسم الكبرى ليئة واسم الصغرى راحيل، وكانت ليئة ضعيفة البصر، وأما راحيل؛ فكانت جميلة الصورة وحسنة المنظر؛ فأحب يعقوب راحيل. وأجاب يعقوب خاله: «أخدمك سبع سنين لقاء زواجي براحيل ابنتك الصغرى»؛ فقال لابان: «أن أزوجها منك خير من أن أزوجها من رجل آخر؛ فامكث عندي؛ فخدم يعقوب سبع سنوات ليتزوج من راحيل، بدت في نظره كأيام قليلة، لفرط محبته لها».

ثم قال يعقوب للابان: أعطني زوجتي لأن خدمتي قد كملت فأدخل عليها؛ فجمع لابان سائر أهل الناحية وأقام لهم مأدبة، وعندما حل المساء حمل ابنته ليئة وزفها إليه؛ فدخل عليها ووهب لابان زلفة جاريته لتكون جارية لابنته ليئة. وفي الصباح اكتشف يعقوب أنه تزوج بليئة، فقال للابان: ماذا فعلت بي؟ ألم أخدمك سبع سنوات لقاء زواجي براحيل؟ فلماذا خدعتني؟ فأجابه لابان: ليس من عادة بلادنا أن نزوج الصغيرة قبل البكر، أكمل أسبوع ليئة ثم نزوجك راحيل، لقاء

خدمتك لي سبع سنين أخر. فوافق يعقوب، وأكمل أسبوع ليئة، فأعطاه لابان راحيل ابنته زوجة أيضاً ووهب لابان بلهة جاريته لتكون جارية لابنته راحيل؛ فدخل يعقوب على راحيل أيضاً، وأحب راحيل (أم النبي يوسف) أكثر من ليئة. وخدم خاله سبع سنين أخر.

(للقصة بقية، حيث دخل يعقوب على الخادمتين أيضاً فأسس لزواج الأربع، وعندما ظن أن خاله يغالطه في الأجرة، أخذ المواشي والزوجات والأولاد وغادر من دون إذن..)

بعد مرور أربعة أنبياء بعد يعقوب، أي ٢٨٨ عاماً تكررت القصة مع موسى إثر هروبه من مصر إلى الصحراء وقبل أن يصبح نبياً.. **كما ورد في القرآن:**

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. [سورة القصص، آية ٢٧]. هكذا قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى الغنم، واتفق معه على تزويجه صفورة بدل الرعي ثماني سنوات، والأفضل عشر سنوات.

الساحرة

لم يتغزل بها الرجال ولكنهم اشتهوها، ولم تكن تعرف سر سحرها هذا على الذكور، إذ لم تر وجهها إلا نادراً منعكساً في صفحات الماء. طلبها الحاكم وراودها عن نفسها؛ فرفضت الانصياع. «لقد سمعت

أن تلك الفتاة ساحرة وعنيدة». قال الحاكم للراهب الذي فهم مراده وأجابه:

«هي ساحرة بالفعل وتشتغل في الأعشاب التي تجمعها على ضوء القمر، وقد أخبرني البعض أنها تكره الرجال وتمتطي عصا المكنسة وتطير بها في الليل، ولا ندري ماذا تفعل غير ذلك». أرسل إليها الحاكم من يوجه لها تهم السحر ويخبرها بطريق النجاة الوحيد، لكنها استهزأت بهم، وفسروا عنادها على الاستعانة بالشيطان لحمايتها، فأعلنوا تهمها ورفضها التوبة وتقرر الحكم عليها بالحرق مصلوبة في الساحة العامة، ولم ينقذها الشيطان. ماذا لو كان الراهب صادقاً وكانت الجميلات يطرن على المكانس في ضوء القمر؟

إبراهيم وسليمان

الآلهة

«لا توجد أمة تقدمت وازدهرت بفضل اعتمادها على الآلهة أو الدين، ولم تنقذ الآلهة أي أمة متدينة من الإفلاس أو الجوع، ولم تبتعد الكوارث عن المتدينين الفقراء». قال بحسم ظناً منه أنه حسم الأمر مع صديقه المبتسم على الدوام في مثل هذه النقاشات.

«هذا صحيح ظاهرياً، الآلهة لم تتدخل لنصرة المظلومين وتصحيح الأوضاع أو منع الضرر عن المتقين، أو من يدعون أنهم متقون..» نظر إلى صديقه الذي تناول قدح البيرة يغب منه فاتحاً المجال لرد دون مقاطعة «.. لكنك تقر معي أن التربية، وليس الفعل الإلهي، هي المسؤولة عن تصرفات وبالتالي رفاهية أو خراب الأمم. وللدين بالطبع دور أساسي في تربية الأفراد والمجتمعات. أرجو أن تتفق معي على عدم وجود فوارق مصنعيه بين أجناس البشر تسبب الاختلاف في التنمية بين مجتمعاتهم ..» أوحى الصديق بالموافقة وهو يمرر قدح البيرة البارد على وجهه. «.. مثلاً بالمراقبة الآن نرى التربية البروتستنتينية والإنجيليكية قد أنجبت دولاً متقدمة في الشمال الأوروبي مثل هولندا وألمانيا والدنمارك والسويد والنرويج وغيرها. بينما جماعات الجنس نفسه، ولكن من معتنقي الطائفة الكاثوليكية،

تربوا على الاسترخاء والاتكالية وتعاني بلدانهم بالتالي اقتصادياً، مثل ايرلنده وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال. أما التربية الأرثوذكسية فقد أوصلت شعوبها إلى التطفل مثلما حصل مع قبرص قبل سنوات ومن ثم حدث في اليونان، يريدون نقود الغير من دون تحمل مسؤولية».

«والمسلمون؟» لم يفهم الصديق السؤال وخمن أن البيرة أخذت تتفاعل مع صديقه.

«نعم المسلمون ككل أقل نمواً من الغرب المسيحي، لكن هناك أيضاً فوارق جلية في الأداء والمنجزات بين الطوائف الإسلامية المختلفة، وهذا يعزز ما أقوله بأن الدين له دور في التربية التي تتحكم بدورها في حجم وتوجه التنمية لدى المجتمعات».

«لقد خرجت عن صلب الحديث يا صديقي..» قال بعد أن أزاح القدح وضم كفيه معاً مثلما يفعل الهنود عندما يتشكرون: «.. وأخطأت في المقارنة أيضاً. فأنا تحدثت عن فعل الآلهة الخالقة تجاه المخلوقات وأنت تتحدث عن التربية وتربطها بالتعليمات الدينية. لكن حقيقة الأمر أن الفوارق بين الشعوب التي ذكرتها موجودة قبل ظهور المسيحية وتشعب طوائفها. أظن أن للمناخ علاقة بالأمر فالشمال نشط بفعل البرودة والجنوب كسول بفعل الحرارة..» ارتفعت حواجب الصديق حين لاحظ أن البيرة لم تخدر بل فتحت عقيرة صديقه الذي أكمل حديثه: «.. تعاليم الدين الإسلامي لا تختلف في مجال التحريض على العمل والإخلاص عن التعاليم المسيحية، يعني الخلل ليس في الدين

وتأثيره في التربية نشاطاً أو كسلاً ولكن العيوب في البشر..»

«كلامك أصبح خطيراً لأنك الآن تقر بوجود اختلاف في مصنعية البشر، وأن الله لم يخلقهم سواسية ويمنحهم الفرص نفسها ..»

«دعني أؤكد لك ..» استرد الحديث بعد أن أفرغ بقية ما في الزجاجة الثانية في قدحه: «.. لو نزل القرآن في برلين أو ستوكهولم وليس في جماعة أبي جهل، لأصبح الغرب أكثر نشاطاً ونمواً وغنى حتى دون نفط. لأن طبيعة بلادهم تحثهم على النشاط. أنت ترى العرب متخلفين فتسبب ذلك بدينهم، ولكنهم متخلفون لأنهم عرب ولدوا وعاشوا في هذه المنطقة الصحراوية».

«لا يمكن أن يكون المناخ هو العامل الرئيس في النمو والرخاء لأن الجنوب المسلم تفوق في الماضي على الشمال المسيحي عندما كان الإسلام أكثر ارتباطاً بالعدل، والعرب الآن يتفوقون كأفراد في المجتمعات الغربية التي تتيح لهم حرية التفكير والعمل ..» مد الصديق يده بقدح البيرة إلى صديقه ليوقف النقاش ولكن هذا أزاح يده برفق وأكمل: «.. سوف أوجز لك وأقنعك بمثال الصين. فهي دولة ملحدة وجنوبية وكانت متخلفة لقرون بفعل الاستعمار، ولكنها بعد أن أعادت تربية المجتمع بعيداً من الأديان أصبحت في مقدمة الأمم إنتاجياً، المهم هو التربية المجتمعية ونظم التعليم المنطقية والعلمية».

لم يسمع أي تعليق من صديقه الذي رفع حاجبيه ورسم بسمة عديمة التعريف على وجهه فقد كان يتذكر كيف يرمي العرب زبالتهم

من السيارات على الطريق السريع، ويؤكد لنفسه أن مثل هذه التصرفات تعارض السليقة والفطرة البشرية.

الملحد

«اشرح لي إذاً كيف خُلق الإنسان ولا تكرر علي نظرية التطور». سأل سليمان صديقه بعد نقاش حول الخلق والخالق وما اعتبره إبراهيم تناقضاً في الروايات الدينية.

«إذا كانت الديانات ملفقة ومعظم الأنبياء لا وجود لهم والبشر لم يخلقهم الله..»

«أنت تبالغ في التوصيف يا صديقي؛ فهناك خالق بالطبع ولكنه لم يخلق البشر بل خلق من خلقهم، ونحن صدقنا الروايات الدينية السهلة فوقعنا في التبسيط والأخطاء». قاطع إبراهيم صديقه ثم واصل بعد لحظات سكون: «هل لك أن تخبرني كيف تطابق البناء في مصر وأميركا اللاتينية قبل آلاف السنوات حيث لم تكن هناك سبل تواصل بين القارتين؟» كان الصديقان قد تناقشا مراراً حول تشابه الآثار القديمة بين مناطق جغرافية تفصلها المحيطات. إبراهيم يعتقد أن البشر خلقوا كتجربة من قوم يسكنون فضاء آخر، جاءوا إلى الأرض ووزعوا مخلوقاتهم البشرية في عدة قارات وعلموهم بعض الأساسيات ومنها البناء؛ فجاءت أهرامات مصر مثل أهرامات أخرى في عدة مناطق بجنوب أميركا. أما سليمان؛ فيعتقد بالرواية الدينية التي سجلتها

اليهودية وأخذت بها الديانات الأخرى بخلق الله لآدم ولحواء من ضلعه، وهي الرواية التي يرى إبراهيم أنها تزخر بالتناقضات.

«بصراحة يا إبراهيم أنت وحيد بين خلق الله في تبنيك لهذه النظرية الفضائية».

«لست وحيداً إلى هذه الدرجة، ودعني أخبرك بوجود مليار ملحد منتشرين في الأرض ولكنهم قلة قليلة في الشرق الأوسط الأكثر تخلفاً واقتتالاً، والأشد إيماناً بالديانات كون هذه المنطقة هي منبع الأساطير الدينية.. يعني واحد من كل ستة لا يؤمن بنظرية الديانات، بينما الآخرون يتوزعون على ديانات ذات منبع واحد ولكنها متحاربة بعضها مع بعض وكل منها تنفي الأخرى أو أقله تتهمها في أوقات السلم بالتزييف».

«تعني أن الديانات ذات منبع واحد سماوي..»

«لا تتصيد في المعاني يا سليمان، تعرف تماماً أنني أشير إلى الأصل الأسطوري الذي نقل عنه اليهود آياتهم وقوانينهم ثم جاء عيسى اليهودي بتجديد لكتاب اليهود وانفصل أتباعه عن اليهود وشكلوا الدين المسيحي معتبرين التوراة جزءاً أساسياً من دينهم، وجاء الإسلام ليجدد هاتين الديانتين ضمن الأسس نفسها». لم يكن هناك حدة في الحديث بين الصديقين اللذين تعودا مثل هذه الحوارات وحرصا على عدم التهور في مثل هذه الأحاديث على مسمع من الآخرين.

«أفهم منك يا صديقي الملحد أن كائنات من فضاء آخر صنعتنا

لغرض ما ووزعتنا على بقع هذه الأرض وتركتنا تحت المراقبة بعد أن علمتنا بعض الأساسيات.. وهناك بالطبع خالق آخر لهذه المخلوقات الفضائية؟» أجاب إبراهيم صديقه محركاً رأسه بنعم وبلا في الوقت نفسه؛ فأكمل «إذا وافقتني على ذلك ففسر لي لماذا تصدق نظريتك هذه وتكذب أن الله هو الذي خلقنا مباشرة وأرسل لنا الأنبياء لنهتدي؟»

«بكل سرور» قال إبراهيم وهو يبتسم وكأنه أوقع بسليمان حيث يريده. «لأن ما تعتبره أنت كتباً سماوية؛ فهي مشحونة بتناقضات هائلة وتضارب جلي، وتفهم على عدة أوجه، وتسببت للآن بخلافات ودمار بين الناس، وسحل وجلد وحرق وخوزقة وشنق، وبالتالي لا يعقل أن تكون كتباً منزلة. كل أوضاعنا تشير إلى أننا حقل تجارب ولسنا مخلوقات عاقلة من إنتاج خالق عليم بكل شيء».

«وماذا يختبرون ويراقبون فينا إذاً؟»

«تصديقنا لكل شيء مثلاً.. وأنا لم أقل إنهم يختبروننا بل قلت يراقبوننا، وهذا شيء أوسع بالطبع. لقد خلقونا متساوين في العقل والأعضاء، متقاربين في الشكل الخارجي، وعلمونا بعض الأساسيات، ومن ثم تركونا للمراقبة».

«والنتيجة كما تراها أنت؟» سأل سليمان صديقه متماشياً مع نظريته.

«إحدى النتائج قد تكون أنه لا يمكن تطبيق المساواة والعدالة بين الأمم، أو بين الدول، أو بين أتباع الملة أو العائلة الواحدة، حتى ولو

كان البشر متساوين في الأساسيات». صمت إبراهيم وهلة ثم أضاف: «يعني لو كانوا خلقونا ويختبرون مثلاً إذا كنا نصلح لخدمتهم؛ فستكون النتيجة سلبية لأننا مخلوقات أنانية بالفطرة ولا نؤتمن على شيء. لكن إذا كانوا قد صنعونا للتسالي، كما نصنع نحن المسلسل التلفزيوني؛ فقد أفلحوا، وربما زجوا لنا بفكرة الأديان لتنشيط القتل والظلم تحت تسميات الحب والعدالة، وهذه قمة الحبكة التراجيكوميدية لمسلسل التسلية المتواصل».

المؤمن

«دعنا نتفق على حقيقة أن المؤمنين ستة أضعاف الملحدين في العالم، وبالتالي الأكثرية على صواب.. أليس كذلك؟» سأل سليمان صديقه إبراهيم في جلسة حوارية جديدة وهو متيقن أن إبراهيم سيفند رأيه هذا.

«لسنا في عملية انتخابية يا عزيزي لتخبرني أن الأغلبية فازت وعلى الأقلية الانصياع. كذلك وصفك لغير الملحدين بأنهم مؤمنون غير دقيق، والمؤمنون بالفعل بينهم قلة». توقف إبراهيم لارتشاف الشاي ثم واصل مجادلته لصديقه: «الأغلبية التي تشير إليها هي مجموع أتباع لعدة ديانات متصارعة بعضها ضد بعض ومتحزبة لطوائف متخاصمة في كل منها، وبالتالي لا تشكل هذه الأغلبية كتلة متجانسة. لا تنس أيضاً أنهم اكتسبوا الصفة الدينية بمجرد الولادة، أي بالتطبع وليس بالاقتناع،

ولذلك تجد من يطبقون الطقوس من البالغين قلة، خصوصاً لدى أتباع الديانة المسيحية.. وبالمناسبة هل تلاحظ التناسب بين مناطق الالتزام الديني من جهة وبين التخلف التنموي والبشري من جهة أخرى، بينما العكس صحيح لدى التجمعات المتسامحة دينياً والملتزمة بالقوانين المتجددة والمتطورة..»

«تقصد التدين ينتج التخلف، بينما التسيب يؤدي إلى الرخاء!» قاطع سليمان صديقه باستهجان ثم واصل حديثه لمناقضة إبراهيم في مجال آخر: «أتدري أن نظريات علمية حديثة قيد الإثبات تشير إلى أنه لا يوجد كون دون وجود الإنسان؟؟ أي إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون لنا، ولو لم نكن لما كان الكون». رفع إبراهيم حاجبيه وابتسم في انتظار توضيح من سليمان. «قبل ثلاثة قرون أثبت نيوتن أن الضوء يتكون من جسيمات صغيرة، ثم تبعه توماس يونغ واكتشف أن الضوء يتكون من موجات، وساد الاختلاف حتى أثبت العلم لاحقاً أن الضوء يتكون من كليهما. المهم هنا أن الضوء يتغير من الموجي إلى الجسيمي عندما نراقبه ونفحصه ونقيسه، أما إذا غبنا عنه؛ فيعود إلى طبيعته الموجية..»

«يعني الضوء يعرفنا؛ فيتحول عندما يرانا إلى شيء آخر.. هذا يذكر بالجدل العقيم: هل الشجرة في الغابة وقعت بالفعل إذا لم يراقبها أحد..»

«أنت تقاطعني ولا تريد حتى الاستماع إلى النظريات العلمية

التي قد تغير الرؤية للخلق والخليقة حين تثبت عبر الفحص العلمي».

أسكت سليمان صديقه وعاد يواصل ملخص تبيان ما طالعه: «إذا صعب عليك تصديق نتائج فحوصات علمية في جامعات مرموقة؛ فدعني أخبرك أنهم يقولون: ما ينطبق على فوتونات الضوء ينطبق أيضاً على الإلكترونات التي تتكون منها جميع المواد». كانت ابتسامة إبراهيم قد اتسعت ملء شدقيه ولكنه لم يقاطع شروحات صديقة. «طبعاً تريد سؤالي كيف تمكن العلماء من رصد هذه الظاهرة وكيف أثبتوها؟» أومأ إبراهيم لصديقه بنعم؛ فأكمل سليمان: «لن أخبرك، ولكن راجع أنت أشهر التجارب بهذا الصدد وتسمى Double Slit Experiment أي تجربة الشق المزدوج، وأيضاً تجارب جون ويلر عالم الفيزياء الأشهر في القرن العشرين».

«والنتيجة يا سليمان لهذا الاكتشاف العلمي؟» لم يظهر إبراهيم أي استخفاف بشروحات صديقة، ولكنه كان يعرف بوجود محاولات من علماء متدينين لتأكيد رؤية الديانات.

«النتيجة كما تؤكد التجارب أن الإنسان الذي خلقه الله ليس شيئاً مهملاً في الكون بل إن مجرد وجوده فقط يغير من طبيعة الكون، وبالتالي لو لم نكن موجودين لما وجد الكون، أو كما يقول ويلر: وجودنا يؤثر في الكون حاضره ومستقبله وماضيه».

«ها قد وجدت ما تكتبه ويكيبيديا عن صديقك الأميركي ويلر..» قال إبراهيم وهو يطالع شاشة هاتفه الذكي: «إنه من مخلفات الحرب

العالمية الثانية، ويمكنني في عجالة مطالعة أنه شارك في تطوير القنبلة الذرية وأختها الهيدروجينية، يعني هو فيزيائي شهير بالفعل، لكن يبدو أن ما تقوله أنت كان إحدى النتائج الجانبية لتجارب تلك الفترة. إجمالاً أعدك بمراجعة الأمر، لكن عقلي يخبرني أنه لو لم نكن موجودين كبشر لما وجد الكون حقاً لأننا لسنا هنا لندرك هذا أو ذاك».

«تدعي أنك تؤمن بالعلم والنتائج الملموسة فلماذا ترفض أي إثبات علمي لوجود الدين؟» سأل سليمان ببعض الحدة وقال إنه راجع ما كتب عن تلك التجارب.

«يا صديقي أنت تمتلك رؤية دينية تهيمن على أفكارك ومحيطك. المجتمعات المتدينة لا تنشأ فيها مناخات لتطوير الدماغ، لأن الدين عموماً يقدم إجابات عن أي سؤال ويحل أية معضلة ويعالج أي مرض ويريح دماغ المتدين».

الهرمون

كان تركيز إبراهيم على صحن فتة الحمص، كلما تناول بعض الفول أو الحمصية يعود إلى الفتة التي يعشقها إلى درجة الإدمان، وكثيراً ما يتردد مع سليمان إلى هذا المطعم الشعبي الذي حافظ على طعم خلطة الفتة. «هل دماغك متوقف عن التفكير في غير الطعام حتى تشبع؟»

«بالعكس تماماً يا سليمان، أنا آكل؛ فأنا أفكر، وكلما تعمقت يزداد

شوقي للطعام، وكلما تناولت ما أحب تكون أفكاري أوضح». توقف عن الكلام وتناول ملعقتين من الفتة غمسهما بزيت الزيتون. «هل ترى ذلك الصبي؟» أشار إبراهيم بعينيه إلى فتى مر بهما تواً، فنفى سليمان بحركة من رأسه أي معرفة بالفتى. «أنا أعرف أباه. هذا الفتى شيوعي مثل أبيه».

«لكن لا يبدو أنه تجاوز العاشرة».

«في الحقيقة عمره تسع سنوات فقط، ولكنه شيوعي». أعاد إبراهيم التأكيد وهو يقضم من ربع بصلة ناشفة.

«يا رجل عمره تسع سنوات وتصفه بالشيوعي، والله لو سألته عن بعض مقولات ماركس أو ماو تسي تونج لما عرف شيئاً. في هذه السن يكون الصغار مغرمين بأشياء أخرى، كما أن النظام الاقتصادي الشيوعي معقد جداً..» توقف سليمان وقد لمح ابتسامة على فم إبراهيم المغلق على بعض الفتة.

«أترى تلك الطفلة الصغيرة خلف والدتها المحجبة؟» أومأ سليمان بنعم وقد تشكك في أنه قد وقع في أحد فخاخ صديقه الملحد. «إنها طفلة مسلمة». سكت إبراهيم ولم يعلق سليمان منتظراً أن يطبق الفخ عليه. «لم ولن تحتَجّ لوصف الطفلة بالمسلمة. هل تظن أنها استوعبت أياً من شؤون الدين واقتنعت مثلاً بقصة آدم وحواء، والطوفان، وسحر النبي موسى، ومولد عيسى بنفخة وسيره على الماء ومعجزاته الأخرى، ناهيك عن معجزة الإسراء والمعراج، وهل تلك

الطفلة اقتنعت بالغيبيات والجن، بل وبتفسير كل شيء في الوجود والكون كما يُقر الدين؟»

«كل مخلوق متدين بالفطرة منذ لحظة ولادته، ويكون على دين آبائه، بعضنا يؤمن ويسلم ويقتنع بما يقوله أهله ومجتمعه، وقلة مثلك، تتمرد عندما تدرك وتتنكر لكل هبات الله». أنهى سليمان الحديث وأشار إلى النادل طالباً براداً من الشاي بالنعناع إذ توقع جلسة غير سريعة مع إبراهيم.

«هل تستمتع بالتعبد وترتيل القرآن والصلاة ..؟»

«نعم» قاطع سليمان صديقه الذي كان ينظف صحن الفتة. «صوت المؤذن يريح أعصابي والصلاة بين يدي الله تعطيني الأمل والثقة والطمأنينة، والأعياد تفرحني الآن كما كانت في الطفولة، وكلما ضاقت في وجهي أدعو ربي؛ فيفرج عني، ولكن كل دعواتي لك بالهداية لم تفلح، لا أدري إلى الآن حكمة الله في عدم هدايتك».

«دعك من هدايتي وأجبني، بعد أن كبرت وتعلمت ألم تساورك شكوك في صدقية القصص الأسطورية التي تحتاج إلى إيمان مطلق؟»

«لا طبعاً» أجاب سليمان وهو يسكب الشاي من الإبريق في الكاسات. «عندما تؤمن؛ فهذا يعني بالغيب وبالله وبالآخرة، وما يعصى على فهمك لا يعني أنه خطأ، وإنما أنت لم تنضج بعد وعليك مواجهة الأمر بالإيمان، لو كنت تعرف كل شيء؛ فأنت نبي أو أكثر».

«إذاً الإيمان هو السر في ديمومة الديانات. اسمح لي أن أعطيك

تفسيراً علمياً لماذا أنت مؤمن ملتزم بالطقوس والعبادات». أمسك إبراهيم بملعقة السكر ووضع لصديقه ملعقتين منه وهو يذكره بأنه مدمن الحلو. «كما أنت مدمن السكر وأنا مدمن الفتة؛ فجسدك مدمن أيضاً الطقوس الدينية وعقلك يقاوم كل من يحاول أن يثنيك عن معتقداتك التي هي معتقدات عائلتك وقبيلتك وربما وطنك وأوطان أخرى تدين بهذه العقيدة نفسها».

«هذه المحاضرة ستطول على ما يبدو، فلا تبالغ في التفسير، لديك وقت احتساء كوبين من الشاي فقط».

«حتى كوب واحد سيكفي..» وأضاف مبتسماً لسليمان الذي يتيح له تنشيط أفكاره ويواجهه بالمضادات. «يحتوي الجسم على هرمونات متنوعة، ننتجها في ظروف معينة؛ فيصبح الهرمون الممتع منها طلباً متكرراً. خذ مثلاً هرمون الجنس عند الذكر والأنثى؛ فهو الذي يحببنا بتكرار تلك الممارسة ولا نكتفي بما تطلبه الديانات باقتصار النكاح لحفظ النسل فقط». تلفت سليمان حوله خوفاً من وجود إناث بالقرب منهما؛ فذكره إبراهيم أن هذا مطعم ذكوري ومجتمع ذكوري وواصل حديثه: «لدينا هرمون السيروتونين المتوافر لدى كل الثدييات ويتحكم في المزاج العام؛ فإذا ربحت مرسيدس الآن سيرتفع الهرمون لديك ويسعدك، وإذا طردك أبوك من البيت سيهبط الهرمون وتنكد حياتك. أما هرمون الدوبامن فهو المختص بالمتعة ويطالب بتكرار الفعل الذي ولد تلك المتعة سواء فتة حمص أو مضاجعة جنسية. أنت تعرف طبعاً

الأدرنالين الذي يُسرع عدد نبضات القلب وهو عادة يُفرز في حالات الخطر لكي يساعد الجسم على نقل السكر إلى جميع الخلايا بشكل سريع للتعامل مع الخطر. ولا ننس أوكسيتوسين، هرمون الحب والثقة والتعاطف ويقوي الترابط وهو ما تفرزه الأم المرضعة في العادة، ولهذا يقال دلل البيبي تحبك أمه. وهذا الهرمون له أهمية كبيرة عند الحديث عن الأديان بسبب موضوع الثقة والتعاطف والترابط الاجتماعي. أي نظام فكري يستغل هذا الهرمون هو نظام رابح. ونختتم بالمورفين الذي يخفف الشعور بالألم». نظر إبراهيم إلى كوب الشاي ليؤكد لصديقه أنه اقترب من النهاية. «أعرف الآن يا صديقي أن الطقوس الدينية تحفز الدماغ على إفراز الهرمونات الإيجابية؛ فتقوم هذه بعمل الأدوية المهدئة. طقوس التراتيل أو الرقص أو حركات الصلاة، وتعود التكرار الأسبوعي أو اليومي عليها، تجعلك تتمسك بهذا الطقس وتتصدى لكل من يهدد سعادتك وتماسك عائلتك وقبيلتك لأنك لا ترى في الحوار تهديداً لأفكارك فقط وإنما نسفاً لكل شبكتك الاجتماعية، وأنت لن تغير رؤيتك لأنك أصبحت مدمناً».

«هذا تفسير عجيب غريب». قال سليمان وقد نهض مع صديقه الذي سدد الحساب وأخذ يوضح له أثناء عودتهما إلى السيارة أن حركات الصلاة مثل الرياضة تسبب إفراز المورفين لمواجهة الألم، بينما الدوبامين ينتج السعادة أثناء الصلاة لأسباب روحانية، ثم يتدفق هرمون الحب عند الخشوع لله الصديق الحبيب في السماء.. ولهذا لا

توجد ديانة دون طقوس تؤدي في النهاية إلى الإدمان والتعصب ضمن الجماعة، لذلك أنا لا أخطط لأبعادك عن دينك لأن هذا يتطلب مني أن أقدم لك خلطة البديل الكيميائي والاجتماعي.» ..

الأناني

«وما العمل يا إبراهيم؟»

«يمكنني الإفتاء بأن الحل الأنجع هو إلغاء الأديان كلها والالتزام بالقوانين الدنيوية التي تضمن الحقوق وتنمي الأخلاق والقيم بما يتماشى مع التطور البشري. لا يمكن أن تسير الآن مجتمعات تسعى للحداثة، بوقود وقيم وقوانين سادت منذ آلاف السنين. لكن تغيير الأديان وإلغاءها مستحيل وبالتالي نحن بحاجة إلى تقليد من كانوا مثلنا، متخلفين، ونجحوا حين فصلوا بين الدين من جهة وبين التعليم والقوانين والأنظمة من جهة أخرى. هذا أقل ما يجب علينا فعله حتى نتخلص من حالة الانفصام والتخبط». كانا قد وصلا إلى الجامعة للمشاركة في حفلة تخرج أحد أصدقائهما.»ألا تلاحظ أن البنات كلهن محجبات، ولم أر ذكراً يتحدث مع أنثى».

«دعنا من هذا». قال سليمان وأضاف: «أتفهم أهمية تحديث نظم التعليم ولكن لماذا تريد عزل الدين عن شؤون الدنيا وإلغاء التربية الدينية؟» ضرب سليمان صديقه بكوعه ليعيده للتركيز وغض النظر عن مجموعة طالبات يضحكن. «الدين يعلم الرحمة وينمي روح التعاون

ويدعم مفهوم العدالة ويحث على الإخلاص في العمل؛ فما الضرر في تعليمه بالشكل الإيجابي للأطفال في المدارس وفي الجامعات؟»

«كيف ستعلم الطفل درساً في الكيمياء أو العلوم يعتمد على التجارب وثم تعطيه في الساعة التالية درساً في الدين يعزز لديه روح الغيبيات، ويقدم له كل الحلول من منظور لم يتغير منذ قرون بعيدة؟» توقف إبراهيم عن الإجابة ثم استدار لمواجهة صديقه وأكمل: «حديثك عن تنمية روح التعاون يذكرني بدراسة أجريت حديثاً على مجموعة أطفال من ست دول هي أمريكا والصين والأردن وجنوب أفريقيا وكندا وتركيا. تلاحظ أنهم اختاروهم من دول مسيحية وإسلامية وملحدة وأخرى غير متشددة في موضوع الدين. وكانت التجارب البحثية بإدارة جامعة شيكاجو تسعى لمعرفة ما إذا كان الأطفال من المجتمعات والأسر المتدينة أكثر تسامحاً وأقل أنانية من مثيلهم من الدول والأسر غير المتدينة». استدار إبراهيم وعاود المسير بجانب سليمان دون أن يقدم إجابة عن نتائج البحث.

«طبعاً تريدني التخمين من هو الطرف الأقل أنانية؟ طالما أنك لجأت لهذه الدراسة في حديثنا هذا؛ فبالتأكيد أصحابك الملحدون هم الأقل أنانية».

«استنتاجك صحيح يا سيدنا سليمان، ولا تنس أن هذا اختبار علمي تم على حوالي ١٢٠٠ طفل وبإشراف جامعة في بلد متدين. ثم ألا ترى كيف تقدمت الصين في بضعة عقود، وليس قروناً، من بلد

متدين مفلس يتعاطى الأفيون إلى أول بلد منتج في العالم ونقودها هي التي تسير دولاً كبرى وفي مقدمتها أمريكا؟»

«ها هي تركيا المسلمة تتحول إلى دولة صناعية مصدرة..»

«أراهنك أنها ستخوض في وحل حرب دينية أو طائفية أو مع جيرانها في غضون العقد الحالي، ونموها لم يأت على أيدي الأحزاب الإسلامية». قاطع إبراهيم صديقه وهما يقتربان من باب صالة الاحتفالات: «ثم إننا نتحدث عن التربية والتعليم وأنانية أطفال الأسر والدول المتدينة وهذا لا يعني أنها لا تستطيع إنتاج بعض الصناعات». دخلا الصالة وشاهدا أن الإناث يجلسن على اليسار والذكور على اليمين. «الدنيا لسه بخير؛ فعلى الأقل لم يفصلوا بين الجنسين بساتر». بين طنين الحضور سأل سليمان صديقه كيف تم ذلك الاختبار في شيكاجو وإذا كانت هناك استنتاجات أخرى. «كان الاختبار عبارة عن فحوص نفسية يشمل تبادل الأطفال لملصقات ومشاهدة أفلام كرتون يصطدم بعض شخصياتها بآخرين عمداً أو مصادفة ثم يجيب الأطفال عن أسئلة إذا كان التصرف خطأ أو لا وماذا تستحق الشخصية الفاعلة من عقاب. والنتيجة أن أطفال المتدينين عبر العالم كانوا أكثر تأثراً سلبياً وانتقاميين وغير اجتماعيين وهذا يطرح السؤال حول مقولة أن الدين يعلم الأخلاق وأن العلمانية تفعل العكس. آباء المتدينين كانوا يظنون أن أبناءهم هم الأكثر رحمة وتعاوناً وتسامحاً وحساسية ولكن النتائج أثبتت أن أطفال المتدينين لا يحبون التقاسم ويسرعون للأحكام على

الآخرين وعقابهم، وليسوا خيرين بمستوى الأطفال الآخرين الأكرم منهم».

«حتى في الكرم الصين أفضل من العرب». قال سليمان بحيادية وسكت إذ بدأ عريف الاحتفال حديثه، كما أن سليمان تذكر ما طالعه قبل فترة وجيزة بأن دولاً عربية جاءت في منتصف ومؤخرة دول العالم فيما يخص موضوع الكرم الذي فازت به دولة فقيرة مثل مانيمار، وخطر له أن يضع هذه النتائج أمام إبراهيم ليثبت له أن الدول الدينية هي الأكرم وأن الصين لم تتصدر القائمة.

الكريم

«الصين هي أكبر دولة ملحدة في العالم، وثاني أكبر اقتصاد بعد الولايات المتحدة، لكنها لا تحتل أي موقع متقدم في قائمة العطاء». نظر إبراهيم إلى سليمان مستوضحاً إياه ما يريد إثباته؛ فأكمل: «يعني أصحابك الملحدون ليسوا كرماء، والكرم جزء أساسي من الأخلاق كما تعرف، وستجد أن دولاً غير ملحدة هي التي تتصدر قائمة العطاء».

«حتى من سموك باسمه كان لديه كنوز يجمعها له الإنس والجان ولم يُقل ويُكتب عنه أنه كان يوزع منها على الفقراء. ما قلته عن الصين صحيح، لكن لا تنس أنهم أكثر الدول تعداداً للسكان، وأنهم حديثو نعمة لديهم أكبر عدد ملياردية في العالم ولكن حاجة بقية الشعب كبيرة

ومقياسك هذا يحتسب التبرعات من الأفراد لآخرين ومساعدة الأفراد لأناس غرباء عنهم». التفت إبراهيم إلى سليمان وهو يقود سيارته مغادراً باب الجامعة. «والترتيب الذي تتحدث عنه قديم؛ فقد تسلقت الصين بسرعة من الذيل إلى المركز الرابع في قائمة العطاء الأحدث وسبقت كل الدول العربية». أعاد إبراهيم تركيزه على السير لتجنب الحوادث تاركاً لصديقه فرصة للحديث.

«لو قلت لك إن الأخلاق في الدول الدينية أفضل مما هي في الصين، ماذا سيكون تعليقك؟»

«سأطلب منك أن تسأل جوجل عن مستوى نسب الجرائم في الصين وفي أي بلد آخر يحلو لك أن تقارن به، جرائم السرقة والقتل والاغتصاب للإناث وللأطفال، وانتشار الرق والعبودية، وشيوع الفساد والرشوة. دع جوجل يرشدك وأخبرني بالنتيجة». انتظر إبراهيم وهلة مستغلاً انشغال سليمان مع شاشة هاتفه الذكي ثم سأل: «هل تعتقد فعلاً أن العرب أكثر أخلاقاً وكرماً من غيرهم؟» همهم سليمان بنعم من دون أن يرفع عينيه عن شاشة الهاتف، فأكمل إبراهيم: «يمكنني أن أطمئنك أن القوم هم الأكثر إسرافاً وتبذيراً في العالم، ولو أردت محاسبتهم بقوانين الإسلام والقرآن فهم إخوان للشياطين».

«الآن أصبحت تستعمل القرآن لتقريع أهله..»

«يا رجل ذكرت لك مراراً أن لا مشكلة لي مع القرآن، اللهم إنه قابل لتأويلات متناقضة وبالتالي يمكن استغلاله لعمل الخير أو

للانغماس في الشر وهذا ما حصل على مر تاريخ المسلمين». بهذا التعليق من إبراهيم كف سليمان عن البحث في الإنترنت وعاد للقول إن العرب أكثر أخلاقاً وكرماً من غيرهم وطلب من صديقه أن يركز ناظريه على الشارع حيث تسبقهم سيارات من اليمين واليسار وتقذف بنفسها أمامهم. «هؤلاء كرماء وذوو أخلاق يا سليمان؟ أليست هذه القيادة قمة الأنانية؟» لم يجب سليمان؛ فأكمل: «أصحابك كرماء في المناسف والبهرجة والهبل..»

«إكرام الضيف قمة الأخلاق، أتريد الآن أن تتهم الطائي؟»

«الطائي أهبل، وسيدك إبراهيم الذي ذبح لثلاثة ضيوف عجلاً سميناً علماً أن سارة أخبرته بوجود نصف شاة في المطبخ، هو أيضاً من المبذرين، وكل حديث أو آية تسردها الآن للاستشهاد، سأرد عليك بحديث أو آية تثبت العكس». لم يترك إبراهيم لصديقه فرصة لسرد أي شيء واستطرد: «تعرف ما نشر ويقال هذه الأيام عن التبذير في بعض الدول العربية إلى درجة التباهي أن يُجلسوا كل ضيف من المعازيم وحده أمام ذبيحة، وأن كلفة التخلص من نفايات الطعام ٦٠٠ مليون لأن كل واحد في ذلك البلد ينتج كيلوجراماً من فائض الطعام يومياً. ما لا تعرفه يا صديقي أن شخصية قانونية وإفتائية اعترضت على مطالب عقاب هولاء المسرفين في الطعام لأن الإسراف يشمل أشياء أخرى ولا يمكنك معاقبة الناس على خياراتهم، والأهم أن قول الله: لا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين، حسب قول تلك الشخصية، يعني أن

عدم الحب هو العقاب الوحيد للمسرفين ولا يمكن حسب هذا التفسير القول (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين)».

الغازي

«ما لي أراك متنكداً هذا الصباح؟»

«اتصل بي قبل حضورك مسؤول عمال المزرعة، وأثناء حديثه عن مشكلات واجهته مساء الأمس تذكرت بعض مقولاتك عن الأخلاق، أو الأحرى انعدامها..»

«وزعلت يا سليمان لأنك تحققت من صحة أقوالي؟» حاول إبراهيم بهذا التعليق تنفيس صمام غضب صديقه ليحدثه عن المشكلة في المزرعة التي اشتراها منذ سنوات لتكون خلوة له يطورها تدريجاً لتدر بعض الربح من إنتاج الزيتون وزيته.

«كنا نواجه في البداية، كما تعرف، مشكلة الرعيان الذين يحلو لهم ترك ماعزهم تسرح وتأكل القديم والجديد من الأشجار، فأقمنا السناسل والسياجات المُكلفة لردع ماعزهم، والآن صار البعض يقفزون من فوق السياجات والبوابات يسرقون قصاص الأشجار وينقلونه بالسيارات. حين تصدى لهم الشيخ صالح أخبروه أنهم سيحملون الحطب بالقوة، أو خاوة، كما قالوا له حتى لو سال الدم».

«طيب الدنيا برد يا سليمان والناس بحاجة لتدفئة..»

«بالله لا أتحمل المزاح الآن.. الحمد لله أن الشيخ لم يصعد

معهم وذهب إلى أهلهم شاكياً ومؤنباً وحل الإشكال بتعهدهم ألا يكرروا السرقة، لكني أشعر بالقهر من هؤلاء الناس لا يحترمون الملكية الخاصة ولا يخافون من الشرطة والقانون ويجادلونك في أموالك..»

«احمد ربك يا سليمان أنك لست في بلد آخر الآن، هناك يضع المجاهد يده على سيارتك أو بنتك أو دابتك ويقول الله أكبر ثلاثاً؛ فتصبح له ويأخذها ويسير بحماية الكلاشنكوف ليصلي في الجامع.. هنا يمكنك تخجيل العربان أقله. لو سألت الشيخ صالح سيؤكد لك أنه يرى الجماعة كل صلاة جمعة. الصراع بين الفلاحة والبداوة ما زال على أشده لدى البلاد المسلمة؛ كون ذوي الأصول البدوية يستندون إلى نهب الغزوات، وتغطية حاجتهم على حساب الآخرين، ويعتقدون أنهم متدينون وأن امتلاكهم الأخلاق بديهي ومرتبط بهوية الصفة الإسلامية، ولا يرون أن العالم كله قد تجاوز مرحلة الرعي والتحطيب».

بقي سليمان صامتاً رغم إتاحة صديقة فرصة ليعلق، فقد كان يسعى لفهم هذه الظاهرة لأناس يركبون السيارات ويستعملون نتاج التقنية ولكنهم يعيشون بنفسية العصر الرعوي التحطيبي. «الديانات تدعي أنها صنعت ونظمت الأخلاق، ولكنك كما ترى على صعيد جيرانك في المزرعة وعلى صعيد الدول المجاورة أن النهب والسرقة والقتل والحروب والذبح والسلخ والتعذيب والقهر وغير ذلك، يتم الآن كل لحظة باسم الدين وبمنظوره، لأن الديانات كلها توحي لمنتسبيها بوهم التحلي بالأخلاق. أيضاً لا تقدم الأديان أي فرص لتطور مصاحب

للعصر؛ فجيرانك في المزرعة أو البلاد المحيطة يسعون لتطبيق أخلاق يعرفون أنها سادت قبل آلاف السنوات، ويدعون أنها صالحة لكل زمان ومكان».

«يعني تلف وتدور وتلصق الموبقات بالدين». قال سليمان وهو يتوقع من صديقه الاستشهاد ببعض الآيات التي تذم الأعراب وأهل القرى، لكن إبراهيم سأله عن تأخر الشاي وإذا كان وحيداً في البيت.

«يا صديقي لا ألف ولا أدور عليك أو على الديانات، الأمر وما فيه أن الأخلاق شيء متطور مع الزمان والمكان، وهي قوانين بشرية ابتكرت للحاجة قبل ابتكار الديانات، والمعضلة أن الأخيرة اقتبست الأخلاقيات التي سادت زمن نشأتها وجمدتها للآن كحقائق ربانية. لكنها لم تعد صالحة للتماشي مع التطور التقني والصناعي الذي يسود الكثير من المجتمعات، ولهذا تخلق الأديان فكرة هم ونحن، وتؤسس لتواصل العداء والحروب سواء بين المجتمعات المتطورة والأخرى المتخلفة، أي المتسامحة والمتدينة، أو بين جماعات المجتمع الواحد إذا كان تطورهم غير متناسق كما هو الحال بينك كابن جماعة فلاحية مواكبة العصر وبين جيرانك أبناء البدو والرعاة».

«لكن الديانات كلها أكدت على عقاب القتل والكذب والسرقة والاغتصاب وغير ذلك من أنواع الشرور، وليس ذنب الديانات مخالفة الناس لهذه التوصيات». قال سليمان بعد أن تناول صينية الشاي من زوجته على باب الغرفة.

«هذه الشرور كانت قبل الديانات وحرمتها المجتمعات لتحمي ذاتها وتماسكها، كل ما يهدد تماسك وأمن الجماعة يحرم ويعاقب عليه». تناول إبراهيم كأس الشاي وعاد للحديث: «القتل مثلاً، إذا مارسه فرد من الجماعة ضد آخر فهذا يؤدي إلى الثأر المتبادل وإبادة الجماعة ككل، ولذلك لا بد من عقاب للقاتل الأول لضمان استمرار تماسك وسلامة الجماعة. لكن القتل لو كان لمصلحة الجماعة، مثل قتل عدو خارجي؛ فسيعتبر عملاً بطولياً يحتاج إلى مكافأة. الشيء نفسه يمكن أن يطبق على أنواع جرائم أخرى، اغتصاب الأعداء، ونهبهم وخطفهم وسبيهم. إذاً الأخلاق إنتاج مجتمعي ولا بد من أن تكون قابلة للتطور، ولهذا ترى بعض المجتمعات المتدينة الآن ترفض الأخلاقيات الجديدة في مجتمعات متسامحة وتعتبرها كفراً وتستحق العقاب، بينما تستغرب المجتمعات متطورة الأخلاق كيف يعيش الناس في بلدان تطبق القوانين والأخلاق الدينية المتجمدة من زمن سحيق».

«يا ليتني لم أخبرك بعبث الرعيان ولصوص الحطب».

«هون عليك يا صديقي ولا تغضب مني أو من جيرانك؛ فهم أيضاً يقطعون الأشجار الحرجية والغابات غالية التكاليف على مرأى من الجميع، ولا يأبهون لتحذيرات من قمة مستويات الدولة.. قانونهم أنا ومن بعدي الطوفان».

مقهى الخزعبلات

«في بغداد تملأ محلاتهم الشوارع ولديهم حراسات مسلحة، وفي مصر يجمعون من الناس ١١ مليار جنيه سنوياً وهناك واحد منهم لكل ١٢٦ مصرياً، بينما هناك طبيب لكل ٨٠٠ مواطن، والأردن لا يخلو منهم، والأشهر هم سحرة المغرب كما يقال، وأهل الخليج هم زبائن دائمون لأمثال هؤلاء في كل مكان..» استمع سليمان لصديقه بانتظار أن يطرح عليه السؤال الذي، كالعادة، سيضع اللوم على الدين. وهكذا كان: «.. هل بوسعك معرفة سبب هذا الانتشار الواسع للخزعبلات والشعوذة؟»

«كنت أظن أنك ستتهم الإسلام، ولكن طالما أنك تسألني؛ فأعتقد أنه إذا اجتمع الفقر واليأس والجهل فاستراحتهم الأهم هي مقهى الخزعبلات».

«لا أتهم الإسلام جزافاً ولا أخصه في هذه الحالة؛ فالسحر والشعوذة أصلهما أديان قديمة أدمجتها اليهودية في تعاليمها، ثم انتشرت بين الأقوام المسيحية بشدة في العصور الوسطى، وما زال كل المؤمنين يعتقدون في الغيب والغيبيات ولديهم استعداد لتصديق وجود السحر والجن والعفاريت والشياطين وكل ما له ذكر في الكتب السماوية سلباً أو إيجاباً..»

«يعني لو شجب القرآن السحر والجن والشياطين فإنه مع ذلك

المسؤول عن انتشار الظاهرة الآن بين الأمة الإسلامية بكل أطيافها؟ هذا ما تريد قوله». قاطع سليمان استنتاج صديقه إبراهيم.

«لا تتسرع في الحكم على ما أنوي قوله يا سليمان. الديانات أخذت في الأصل السحر والشعوذة عن ديانات وأساطير سبقت، في بابل ومصر وآشور، من هناك وصلت هذه الأمور للديانات السماوية». حدق إبراهيم إلى عيني سليمان وكأنه يريد تنويمه: «سواء أكان الانتشار الواسع الآن ناتجاً عن ارتباط بالدين السماوي، أم استمراراً لسطوة الديانات الأصل؛ فهذا ليس في مصلحة أي دين الآن، خصوصاً ليس في مصلحة الأمم التي تظن أنها متدينة، وسحرة هذه الأيام يتقمصون الدين، والزبائن يعتقدون أن الدين يسمح لهم بذلك، وغالبية المسلمين يصدقون هذه الخرافات».

«كيف تؤكد أن الغالبية تصدق ذلك؟ هل لديك إحصائيات؟»

«لا تعتقد أنك أفحمتني؛ فهناك إحصائيات بالفعل ولكنها تقلل من النسب، لكن اسأل نفسك وستعرف الحقيقة. هل تخلو عائلتكم من هؤلاء؟ كم أمٍ علقت خرزة زرقاء على صدر ابنها لحمايته من العين! وكم مرة ذهبت أمك أو إحدى قريباتك للفتاحة؟ وكم مرة قرأتم الفنجان في البيت؟ وكم عانس بحثت لديهم عن عريس أو فك العمل الذي يعيق زواجها، وماذا عن العرسان في ليلة دخلتهم، وكم واحد في عائلتكم لديه الجراءة للتجوال ليلاً في الظلام». كان إبراهيم يستعرض العادات الخزعبلية بينما شرد ذهن سليمان إلى إحدى قريباته

التي أنفقت نقود زوجها وهي تبحث عن الذهب المرصود تحت بيتهم وتشتري أغلى أنواع البخور المغربي لهذا الغرض، حتى أفاق على صوت إبراهيم: «.. حتى أنت، ألا تطالع برجك يومياً في النت؟»

«أنا متيقن يا صديقي أن لديك تفسيرات أخرى لهذه الظاهرة ولكنك لا تدخر وسعاً لجلد الدين. تريد للأديان أن تكون خزعبلية أو اتهام المؤمنين بأنهم على هدى الأديان الأقدم. أعرف أنه لم يكن في عهد صدام أي ممارسة رسمية أو سرية لهذا الهبل، وفي مصر تنامت هذه الظواهر مع عهد السادات ثم تركها مبارك تأخذ مداها طالما أنها بعيدة عن السياسة والحكم. بالنسبة للحكام افعل ما تريد طالما أنك بعيد عنهم، ولكن هذا بالضبط ما يؤدي للفساد والفقر واليأس، أي لخلق البيئة التي تنمو فيها الشعوذة.. أنا متيقن أن تشريع قانون يحرم هذا وتطبيقاً صارماً من الحكومة للقانون سينهي هذه الظاهرة، وحينذاك لن ينتهي الدين لأنه في غنى عن هذه الشوائب». توقف سليمان واعتلت الابتسامة وجهه بعد أن قفز لذهنه سؤال طرحه فوراً: «أصحابك في الصين، أليسوا أكثر من يؤمن بالخزعبلات المغطاة تحت ثوب الأعشاب، وهم قوم ملحدون رسمياً؟» رفع إبراهيم يديه للسماء مستنجداً وموحياً أن سليمان لم يفهمه، ولكنه لم يدل بأي تعليق.

الشيطان

«اليأس؛ كنتيجة للفقر وللجهل ولضغط الحاكم، هو الذي يدفع

الناس إلى أحضان الدجالين متقمصي ثوب الدين زوراً وبهتاناً». قال سليمان لصديقه استكمالاً لحديثهما من اليوم السابق. «الدين لا علاقة له بالأمر بتاتاً وحين يأتي القرآن على ذكر السحر؛ فإنما ليشجبه..»

«لكن شجب الشيء يعني التأكيد على وجوده..» قال إبراهيم بهدوء ظاهر؛ فأيقن سليمان أن صديقه أعد العدة لاستكمال هذا الحوار. «.. هل لك أن تقرأ علي أي شيء من القرآن لو سمحت؟»

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم..» أشار إبراهيم لصديقه أن يتوقف عن بدء التلاوة ولفت انتباهه إلى التعوذ من الشيطان. «.. نعم كما قلت لك نذكر السحر وأعوانه من الشياطين والأبالسة والجن لنشجبهم، وكما سمعت؛ فإننا نتعوذ بالله منهم».

«هذا جيد ومعناه أنك تعترف بوجودهم سواء كان هذا الوجود خطراً أو خيراً على المؤمنين الذين عندما يقنطون كنتيجة للظروف يسهل عليهم اللجوء إلى السحر لحل مشكلاتهم، وهذا كان حال البشر قبل نشأة الأديان التوحيدية، بل الإنسان آنذاك خلق الآلهة لتحميه من شرور ما يخيفه ويضره ..»

«.. أنت سرحت بعيداً يا إبراهيم ولا أدري ماذا كنت تقرأ بالأمس لتخرج بهذه النتائج ..»

«.. بصراحة كنت أبحث في القرآن، ووجدت سورة كاملة عن الجن، وكلمة الجن ذكرت اثنتين وعشرين مرة، والجان سبع مرات، والشيطان ثماني وستين مرة، وكلمة الشياطين سبع عشرة مرة. وكما

تعرف أن السحر يحتاج لهؤلاء وإذا أردت إنكار وجود للسحر فعليك إنكار وجود الجن وأصدقائهم من الأنواع الأخرى المذكورة في القرآن. لذلك أجبني مباشرة إذا كنت تؤمن بوجودهم أم لا؟»

«لم أر أياً منهم، ولا أرغب في ذلك ..» قال سليمان ثم تلا من الأحقاف: «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن» ومن الأنعام: «يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا» ومن الرحمن: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» ومن الجن: «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً» .. وهناك المزيد في القرآن عن ذلك ولهذا يصعب علي بصراحة إنكار وجودهم».

«أحسنت يا صديقي؛ فهذا ما يعجبني بك، إيمانك الأعمى ومع ذلك أنت تحاول التعمق والاطلاع. هل لك أن تفسر لي معنى: فزادوهم رهقاً؟».

«أظن أن التفسير الذي طالعته عن ابن كثير يقول إن رجال الإنس يتعوذون من الجن خوفاً منهم؛ فزادهم الجن ترهيباً وتخويفاً رهقاً، أي هناك علاقة رعب بين الطرفين على الرغم من مخاطبة القرآن لهما معاً».

قال سليمان وعاد ليؤكد أن القرآن لا يقر بالسحر أبداً، هو يذكر السحرة من الأزمان السابقة ولكنه يبين وهن مقدرتهم؛ فحين يتحدث عن سحرة فرعون يقول: «.. فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم

أنها تسعى.. أي خداع بصري وربما فنون كيميائية إذ قال الطبرسي عن أولئك إنهم وضعوا الزئبق في الحبال فلما حميت الشمس تمدد الزئبق وحصلت حركات الحبال كأنها ثعابين تسعى».

«ممتاز ..» قال إبراهيم، وأكمل «.. القرآن بالفعل يعارض السحر ويفند أفعالهم، ولكنه أيضاً يتحدث بصراحة ووضوح عن وجود الجن والشياطين ولا تنس إبليس الذي يتوجب على الحجيج رجمه، وهذه العصابة هي التي تخالف الله ويمكنها دعم أعمال السحر سواء مقابل بدائل أو تقوم بما يطلب منها تسخيراً. والسبب في ذلك يا صديقي أن العرب في الجاهلية كانوا يؤمنون بوجود هذه الأشياء ويستعيذون بإلهتهم منها في كل مناسبة يستشعرون فيها الخوف، ولذلك توجب أن يشير القرآن لهذه الأشياء لأنه لو أنكرها عليهم جملة وتفصيلاً كما أنكر أشياء أخرى، لما التحق العرب بالإسلام جماعات. هكذا أقر لهم بوجودها وأنكر عليهم فاعليتها في السحر، وها هم المسلمون الآن يعودون إلى الربط بين الجن والسحر حسب رؤيتهم الجاهلية ..»، صمت إبراهيم قليلاً ثم شرح لصديقه أن الرابط بين الجن والسحر لم ينقطع يوماً لدى المسلمين ولكنه حيناً يقل وحيناً آخر يزداد حسب الوضع الاجتماعي والسياسي السائد، «ولا تنس أن المسلمين الأوائل تبنوا قصة أن اليهود سحروا النبي؛ فأصبح لوهلة لا يعرف إذا كان قد عاشر نساءه أم لا، حتى فكت الملائكة هذا السحر».

قسمة

المتعوس

«أنت رجل كريم وحكيم ولست بحاجة إلى مديح ..» قال له صديق في جلسة مسائية تضم أهلاً وأصدقاء، «.. وقريبك أبو عبد الله بحاجة لدعم أو عمل». لم يكن أبو عبد الله قد وصل إلى المكان بعد وهذا ما شجع الصديق على التوسط بطلب المساعدة له.

«وحياتك عندي أنني حاولت مساعدته مراراً، لكن الرجل غير مرزوق، ومهما فعلت له ومعه سيبقى على حاله». تململ البعض في الجلسة ممن لا يعرفون ماذا فعل الرجل لقريبه المتعوس؛ فقال لهم: «أنا لا أحب في العادة توزيع النقود دون مبرر، يعني لو اشتغل أو تاجر أو عمل شيئاً يكون أفضل، لكن عشان خاطركم سأقدم له مبلغاً من المال، ونراقب ونرى ماذا سيفعل به».

«الرجل عفيف وربما يرفض قبول مبلغ نقدي». قال أحدهم.

«لا بأس، سترون الآن صحة قولي». أخبرهم ذلك وتناول محفظة ووضع فيها مبلغاً من المال وطلب من أحدهم أن يضعها بين الباب ومكان جلوسهم بانتظار وصول أبي عبد الله حتى يراها؛ فيأخذها وتكون في النهاية من نصيبه لأن أحداً لن يدعي أنها محفظته. فتح الباب وانتصب أبو عبد الله يطلق التحية على الجالسين من بعيد؛ فهللوا ترحيباً ودعوه للتقدم ليرى المحفظة أمامه.

«ويش رأيكم يا رجال أجيلكم وأنا مغمض عينيه؟» ارتفعت الأصوات رافضة اقتراحه، ولكنه أصر وأغمض عينيه وتقدم إليهم ووصل بنجاح بينما انقسم الجمع، بعضهم يستغفر الله وآخرون يرددون أمثلة عن القسمة والنصيب وغيرهم يضحكون بينما صاحب المال يوزع النظرات على الجلوس ويخبرهم:

«المتعوس متعوس لو حملوه فانوس».

الذهب

لاحظ من بعد أنهما منغمسان في الحديث؛ فاقترب بهدوء وألقى التحية وجلس معهما في ظل زيتونة يصعب تقدير عمرها. كان علي يعرف القادم ولكنه لم يرحب به باسمه أو كنيته. «أهلاً بالمعلم»، قال ومهد له مكاناً على الأرض يمكنه من إسناد ظهره إلى جذع الشجرة بينما الابتسامة تملأ وجهه. «هذا أبو مجاهد الفلاني، يروي ما حدث مع أبي ليث». قال علي وصمت ليتيح لأبي مجاهد الاستمرار في الرواية، وفهم الزائر مغزى ترحيب علي له بالمعلم وليس باسمه.

«سحب أبو ليث المسدس على شريكه وخيره بين الموت أو قبول حصة صغيرة ..»

«حصة من ماذا؟» سأل الزائر المتحدث.

«عشرة صناديق ذهب عثر عليها أبو ليث وشريكه، وكان أبو مجاهد

يراقبهما من مخبأ ويسمع كل كلمة». قال علي مجيباً وملخصاً بعد أن لاحظ تردد الراوي في الإجابة، وقال لأبي مجاهد: لا تقلق المعلم مؤتمن.

«قال الشريك لأبي ليث: الله ما بيني وبينك. لا أريد أي شيء من الذهب، الله يسامحك، الله الغني. ثم ابتعد وهو يسير بالعكس حتى لا تفارق عيناه وجه أبي ليث وحتى لا يعطيه ظهره».

«خايف أبو ليث يطبخه في ظهره، صح؟» سئل علي المتحدث وحصل على إجابة بالتأييد مع إضافة أن الذهب ملعون وملوش صاحب. «قلت في بداية الحديث إن الوقت كان أقرب إلى المغرب؟» مجدداً جاء التأييد من أبي مجاهد.

«أنا مكثت بهدوء تام، لأنه لو لمحني رحت فيها». قال الرجل ونظر إلى وجه المعلم فلم يخرج بانطباع محدد من مراقبة تقاسيمه. «.. والله بعد شويه وإذا بالشرطة العسكرية كابسة على المكان. حملوا الصناديق وأخذوا أبا ليث وذهبوا».

«شريكه بلغ عنه !» تساءل علي.

«أكيد وإلا كيف عرفوا وحضروا بهذه السرعة». علق أبو مجاهد على استنتاج علي.

«غريبة شويه هذه الأحداث، لماذا ترك أبو ليث شريكه يخرج من المكان بسلام؟ ولو كنت أنا مكان الشريك لقبلت حصة قليلة أفضل من ضياع كل شيء». قال المعلم للراوي ثم نظر إلى عينيه وأضاف:

«لو كنت أنا مكانك لاتصلت بالشرطة وفزت بنصيب الواشي وخدمت ميزانية البلد».

«يا خوي ميزانية البلد منهوبة، والدولة لا تعطي مكافآت على التبليغ. بعدين أنا كامن دون صوت. لو كنت أنت أبو ليث وسمعتني أتحدث، شو راح تعمل؟ ها؟»

«لقد شاهدت أبا ليث بالأمس في السوق، ولم أسمع قبل ذلك أنهم اعتقلوه!» قال المعلم وهو ينظر إلى علي الذي اتسعت ضحكته المكتومة بين أرنبتي أذنيه.

«يا أخي النقود تفعل المستحيل، يمكن رشاهم، أو تقاسموا الذهب».

«شوف يا أبا مجاهد ..» قال علي وهو يضع يده على كتف الرجل «.. أنا على تواصل يومي مع أبي ليث منذ سنوات، وأؤكد لك أن من شاهدته أنت لا يمكن أن يكون من تظنه، ويمكنني إثبات ذلك متى تشاء».

«يا رجل، هل أنا غشيم عن أبي ليث وعن سيارته الجيب التي لا أخت لها في كل البلد وكان يُحمل الذهب فيها وأنا أراه عن قرب كما أراك الآن». أكد أبو مجاهد لعلي وللمعلم.

«لقد حصلت معي قصة مشابهة تماماً..» قال علي مواسياً المعلم، «تحدث أحدهم عن جرار ذهب نقلت من مكان بناء ثم توقف العمل هناك. بعد التدقيق اتضح أن الموقع المذكور كنت أنا مقاولة وقد توقف

البناء لأسباب مالية ..» ضحك علي وأضاف: «.. لقلة المال وليس لكثرته توقف العمل». نقل علي ناظريه إلى الأفق خلف أبي مجاهد وعاد ونظر إلى المعلم، وهنا استدار أبو مجاهد للخلف وشاهد الجيب إياه، ثم عاد ينظر إلى المعلم ويستدير للتحقق من السيارة. لم ينبض بحرف ولكنه ارتفع على ركبتيه ثم قدميه واستدار يتكتك الرمل عن عباءته.

المرزوق

«غير لنا هالبيت يا ولدي الله يرضى عليك». قالت الأم لولدها ميسور الحال. لقد اكتسب ثروته بعرق جبينه ومثابرته، ولم يرث من والده سوى النصائح وحسن التربية. كان يتمنى لو أمد الله في عمر والده ليتمتع معه في رغد العيش، وهكذا لم يتبق أمامه سوى إرضاء الوالدة دوماً. في ذلك اليوم شاهد قطعة أرض على شارع جانبي تتسع لعدة بيوت، فسأل عن صاحبها وتعرف إليه وأخبره برغبته في شراء الأرض.

«على الرحب والسعة، هذه القطعة ثمنها عشرة ملايين ريال».

«كثير يا شيخ أعطني سعر أفضل الله يفتح عليك». قال الابن وهو يعلم أن الشيخ بالغ في السعر، لكن الأخير أصر على طلبه؛ فافترقا.

«اشتريت الأرض يا ولدي؟» سألت الأم ولدها بعد أسبوعين؛ فأخبرها أن صاحب الأرض بالغ في السعر، ولكنه سوف يفاوضه

مجدداً؛ فربما يخفض السعر طالما أن الأرض لم تبع بعد. «الله يجيب اللي فيه الخير يا ولدي». بعد عشرة أيام أخبر الابن والدته أنه راجع صاحب الأرض، وأنه طالب بمليون زيادة.

«يعني رفع السعر عشرة بالمئة في أقل من شهر.. هذا طمع». قال الابن وأضاف أنه سيبحث عن قطع أراض غيرها. طوال شهر آخر تفحص الابن أراضي أخرى في مواقع مختلفة؛ فلم يوفق في العثور على شيء مناسب. عاد إلى صاحب الأرض يفاوضه ويطالبه بالتخفيض لكن هذا طالب بمليون آخر إضافي على السعر؛ فأصبحت الزيادة عشرين بالمئة في شهرين. هكذا افترقا من دون اتفاق. استمر سؤال الأم ومعه البحث عن قطعة أرض أخرى، ولكن كل الشواهد تشير إلى ملاءمة قطعة الشيخ؛ فهي قريبة من منطقة سكن الأم، وقابلة لبناء أكثر من بيت يمكن أن يسكنها إخوته وأخواته وأقاربه. لم يعد الابن يفكر في خفض السعر ولكنه أخذ يسأل ذاته ماذا لو ذهب للرجل ووجده يطالب كالعادة بمليون أخرى زيادة؟ هل سيعطيه السعر أم ينسحب مجدداً وينسى أمر هذه الأرض تماماً؟ «هذا الشيخ إنسان مرزوق من رب العالمين..» تمتم وهو يفكر في الأمر.. «يبدو أن الله أعمى أقماري لحكمة بدأت تتضح لي الآن.. ربنا يريد أن يرزقه ثلاثة ملايين إضافية، وإن شاء الله سيتم تعويضي بأكثر من هذا المبلغ». «هل تبيع بعشرة ملايين يا شيخ؟» سأل الابن بعد أن انتهى من فنجان القهوة.

«أنت تعرف السعر يا صديقي». قال الشيخ وسكت.

«أحد عشر أو اثنا عشر؟»

«بل هي ثلاثة عشر الآن».

«لك ذلك، لن أجادلك ولن أعطيك فرصة للزيادة». قال الابن واتفق مع البائع على تفاصيل الدفع وتمت الصفقة، ثم توجه لزيارة والدته ليخبرها بالأمر؛ فباركت له بالأرض ودعت ربها أن يجعلها خيراً على ولدها. في غضون عام انتهى الابن من بناء خمسة بيوت أسكنها أحباءه، وبعد خمس سنوات تحول الشارع من سكني إلى تجاري؛ فاشترى قطعة أرض أخرى في منطقة سكنية وبنى فيها مساكن للأحباء، وأصبحت البيوت التجارية تؤجر وتجلب مداخيل مضاعفة؛ فتعزز إيمانه بالله الذي رزق الشيخ ورزقه.

الجوع

تنحدر الطريق بشدة لعدة كيلومترات من مبنى الجامعة، حيث سكن الطلاب أيضاً، حتى أقرب سوق. فكر أنه إذا لم يجد ما يجمعه من بقايا طعام هناك؛ فالأفضل توفير الطاقة المهدورة هبوطاً وصعوداً وبالتالي البقاء جائعاً غير منهك واستغلال الوقت في الدراسة. كان يعرف الأسواق وصعوبة الحصول على أي شيء فيها مجاناً، فالأرز يباع مطبوخاً بارداً بالكيل، البطاطا والطماطم وكل الخضار والفواكه تباع بالحبة. طبعاً لا يوجد في السوق أي سلعة طازجة مستوردة. أيضاً

السمك المحلي المدخن يباع بالقطعة بعد أن تنهشه لأيام عشرات الآلاف من الذباب. حزم الخشب الصغيرة هي الشيء الوحيد الذي يباع بالجملة إذ تكفي الحزمة لغلي إبريق شاي.

السوبر ماركات اللبنانية كانت تمثل الجنة بالنسبة له ولغالبية مواطني سيراليون، معلبات وسلع طازجة مستوردة ولحوم وأجبان مصنعة ذات أشكال وألوان.. كل ما هو متوافر في محل بباريس تجده تقريباً في هذه السوبر ماركات المنتشرة في العاصمة، فري تاون، لكن السعر فلكي بالنسبة للسكان، ولا سيما الأجانب وتجار الماس والمرتشين من الحكومة ورجال البنوك. بالطبع لا مجال على الإطلاق لعقد مقارنات بين السوق المحلي وأي من هذه السوبر ماركات؛ فالسوق للمحليين أما المطاعم والبضائع المستوردة؛ فهي للأجانب ومن يتعامل معهم.

دخل والده من الوظيفة الحكومية يسد رمق العائلة لأن الوظيفة تؤمن له سكناً مجانياً ضمن مجمع للموظفين. غرفة نوم وصالة تحول طرفها إلى مطبخ، أما الحمام؛ فخارجي مشترك يجب السير إليه مسافة غير مسقوفة لاستعماله في أي وقت ومناخ. هكذا لم يتمكن والده من اقتطاع أكثر من أجرة غرفة الطلاب في الحرم الجامعي التي يتقاسمها مع صديق أفقر منه. كانا يشاركان في المحاضرات ويعودان إلى الغرفة للمطالعة حتى ينتهيا من التعليم في أقصر فترة وبأحسن درجات. عندما كانا مصادفة يلتقيان زملاء في استراحة

الغذاء يتناولون بعض السندويتشات ويدعونهم للمشاركة معهم، كانا يدعيان أنهما أكلا تواً؛ بينما الحقيقة أن معدتيهما لم يدخلهما سوى الماء منذ أيام. أحياناً كانا يمضيان أسبوعاً كاملاً دون تناول الطعام.

بعد خمس سنوات على التخرج استقر به الحال في لندن، تزوج وأنهى دراسة إضافية، ماجستير اقتصاد، في أشهر معاهد بريطانيا، ورزق طفلين، وأصبح لديه بيت اشتراه بقرض بنكي، ولديه وظيفة جيدة في أهم منظمة حقوق إنسانية. يأكل كميات جيدة من الطعام على أنواعه ثلاث مرات وأحياناً أربع مرات في اليوم، لكن وزنه لا يزداد كما يتمنى؛ فجسده لم يتغير منذ زمن الجوع، ولم تثبت الفحوصات أي مرض أو وضع غير طبيعي لديه.. كل شيء على ما يرام ولكن جسمه يرفض الزيادة.

المحتاج

في منتصف طريق العودة من المكتب إلى المنزل استجاب أبو محمد بعد تردد لرنين الهاتف إذ كان عازماً على استراحة بعد الغذاء، وفي العادة تكون الاتصالات في هذا الوقت محملة بالمنغصات. فرح جداً لسماع صوت صديق لم يره منذ مدة. «أنا متجه إلى الميناء الآن، قابلني هناك لتختار أفضل ثلاجتين من السمك».

استجاب أبو محمد لنداء صديقه الذي يملك عدة مراكب صيد،

واستدار بالسيارة إلى طريق الميناء. تذكر أن أحد أصدقاء المرحوم والده يسكن على الطريق؛ فقرر أن ينتهز الفرصة لزيارته وتناول كوب شاي في منزله خصوصاً وأن الرجل أصيب بشلل من جراء جلطة لم يتعاف منها. مر بجامع؛ فتذكر أنه لم يصل الظهر، ولكنه قرر مواصلة المسير فما زال هناك الكافي من الوقت على موعد صلاة العصر. مر بجامع آخر ولكن هاجساً ما منعه من التوقف هناك أيضاً، حتى وصل إلى جامع ثالث. ترك سيارته على الطريق أمام الجامع؛ فوجد الباب مغلقاً. استدار مشياً حول الجامع بحثاً عن باب آخر. شاهد مقهى صغيراً؛ فاتجه لشراء زجاجة ماء؛ فإذا به يرى صديق والده جالساً هناك على كرسي متحرك. تحادثا عن الأحوال؛ فعرف أبو محمد أن الصديق يخرج من البيت لأول مرة منذ شهر إذ طلب من ابنته أن تخرجه؛ فجلبته إلى هنا بسيارتها على أن تعود إليه لاحقاً.

في طريقه إلى الميناء مر صاحب المراكب بالجامع وتعرف إلى سيارة أبي محمد على قارعة الطريق؛ فتوقف للاستفسار. دار حول الجامع؛ فوجد الرجلين يحتسيان القهوة، وحدثه أبو محمد عن الصدف التي أدت إلى هذا اللقاء. «هذا الرجل له نصيب مقرر من الله في السمك». قال صاحب المراكب واتفق مع صديق والد أبي محمد كيف يوصل له ثلاجتين من السمك، ثم دخل الثلاثة المسجد لصلاة الظهر.

الواوي

تكررت هجمات الواوي على فراخه اليافعة، في كل غزوة يقتل الكمية كلها، حوالي ثلاثين دجاجة يتركها جثثاً ممزقة ملقاة حيث يلحق بها. لم تنفع الحراسات والسياجات وتكررت الغزوات وعملية القتل.. هكذا تقرر صنع مصيدة حديدية السقف والأرضية تقفل عليه إذا سعى لما بداخلها.

وقع الواوي في شر أعماله، وجاء الآن قرار ما العمل؟ «نقتله!» قال الأول.

«حرام!» قال الثاني، «لماذا نتحمل خطيته؟ خليه لربنا لما يموت».

«لكن ربما يبقى في المصيدة أياماً قبل أن يموت».

«الدنيا صيف والحديد تحته وفوقه ساخن، لن يصمد أكثر من يوم وليلة، سيضمر ويموت».

«لقد سمعت أن الإنجليز كانوا يقتلون حيواناتهم المصابة أو المريضة رمياً بالرصاص حتى لا يطول عذابها، فلماذا لا نفعل مثلهم ونقتله؟»

«حرام قتله، دعه لربنا يحكم في أمره.. بعدين هذا حرامي، وكان يقتل، لو كان يسرق ليأكل؛ لفهمنا ذلك، ولكن قتل كل الفوج وترك الفراخ هنا وهناك.. دعه لربنا، لن نقتله ، وغداً ندفنه ونعيد تجهيز المصيدة لبقية عائلته، وندفنها جنباً إلى جنب».

روحانیات

الحلم

أفاق منزعجاً ثم أغلق عينيه بسرعة يريد العودة إلى الحلم. رأى في المكان نفسه أناساً يعرفهم وعاش بينهم قبل خمسة عقود، كانوا آنذاك أكبر منه سناً وعلى الأرجح جميعهم انتقلوا إلى الحياة الآخرة.. هو لا يؤمن بالحياة الآخرة ولكن هذا الحلم جدد أفكاره حول اللاطبيعي. رأى في الحلم أنه يعود إلى مهد صباه، لم يكن المكان مشابهاً ولكنه كان يعرف أنه المكان نفسه؛ فقد وصل إلى هناك بعد إجراءات سفر ووجد ذاته يترجل من سيارة له في السوق وهو يحمل حقيبة صغيرة. اتجه تلقائياً إلى دكان لم يكن لأهله في السابق، ولا كان والده يتردد إليه، لكنه شاهد والده المتوفى منذ ثلاثة عقود يقف في باب المحل؛ فغضب الوالد لرؤيته وأمسك بمكنسة كانت على الباب ولوح بها بغضب طالباً منه العودة من حيث آتى «أنت أيش جابك هان؟ انصرف فوراً» قال له والده وهو يلوح بالمكنسة.

تعجب من هذا الاستقبال وشعر بخزي وإهانة كون الحب القوي المتبادل كان يحكم العلاقة بينهما، وكان والده يفضله من بين إخوته وأخواته الثلاثة عشر. استدار إلى الخلف قبل أن يستقل السيارة؛ فشاهد والده ما زال غاضباً بينما آخرون ممن كان يعرفهم في الماضي يجلسون

من دون أي تدخل أو تعليق. أفاق من الحلم قبل أن يتحرك بالسيارة؛ فعاد لإغماض عينيه يريد العودة والتحقق من دواعي هذا الموقف، عاد للحلم لكنه لم يفلح في المهمة. شاهد بعض من كان يعرفهم ينظرون إليه مرة وإلى والده أخرى. أفاق مجدداً وفتح عينيه غاضباً من الفشل ومن محتوى الحلم. كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف ليلة الخميس وتعلن الدقائق الأولى ليوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان.

هدأت نفسه تدريجاً وعاد يفكر في برنامجه المقرر لهذا اليوم، ثم استسلم للنوم مجدداً. كان في إجازة منذ أسبوع على شاطئ جزيرة قبرص، يقضي يومه مستلقياً على الرمال وكلما اشتدت الشمس يسبح قليلاً ليبرد جسده. وفي أوقات أخرى يتبضع أو يجول في المتاحف والأسواق والقلاع ويبحث عن الآثار الإسلامية في هذا الجزء اليوناني من الجزيرة.

مر بخاطره أنه زار بالأمس الأربعاء ضريح أم ملحان، إحدى محارم الرسول عليه الصلاة والسلام، والتي شاركت في أول غزوة بحرية على الجزيرة؛ فوقعت عن بغلتها أثناء النزول واستشهدت. أقام لها المسلمون هناك ضريحاً، وبعد مرور قرون من الزمن بنى الأتراك بجانب الضريح جامعاً جميلاً ووضعوا جثمانها في ضريح وسط المسجد، الذي يعتبر بمثابة كعبة لسكان قبرص المسلمين، ولكن زواره الآن قليلون بعد انقسام الجزيرة. هذا الجزء القبرصي اليوناني يحتوي أيضاً على مساجد أخرى كثيرة ما زالت تزار وتستخدم للصلاة

إذا كانت داخل المدن، بينما مسجد أم ملحان يقع في بقعة جميلة نائية على شاطئ بحيرة الملح التي كانت جزءاً من البحر ثم انفصلت عنه وأصبحت مالحة جداً بفعل التبخر.

صباح الجمعة أفطر بطيخاً وجبنة بيضاء مالحة، وحمل الثلاجة الصغيرة المحملة بالسندويتشات وزجاجة مياه، وانطلق بالسيارة المستأجرة إلى الشاطئ. لم يكن يفكر قبل ذلك الحلم في والده أو أي شيء آخر، كان يستمتع بيومه ويعيش ساعاته باسترخاء تام، وهاهو الآن يتخلص تدريجاً من ذكرى الحلم ولا يشغل باله سوى بالثواني القادمة من يومه، هل يستلقي أم يسبح أو يسترق النظر إلى جيران الشاطئ.. منذ وصوله إلى الجزيرة صار يشغل نفسه بمحاولة التفريق بين اللغة الروسية واليونانية عندما يستمع للناس من حوله، واستغرب كثرة الروس في الجزيرة.

في مساء يوم الجمعة وصلته رسالة واتساب من صديقه ونسيبه تعزية بوفاة أخيه الذي يقطن بلداً ثالثاً. كان أخوه يكبره بأربع سنوات ولكنه يعاني من القلب منذ خمس سنوات أقله، وقد كان الجميع يحمدون ربهم على كل يوم إضافي في حياته حتى توفي في المستشفى في الدقائق الأولى من صباح الجمعة الأخيرة في رمضان. صدمه الخبر ولماذا لم يخبره أحد طوال اليوم، ولكنه تذكر أن هاتفه لم يعمل في الجزيرة وأن طريقة التواصل كانت فقط عبر الواتساب الذي لم يكن يتابعه أصلاً أثناء الإجازة.

استعاد على الفور تفاصيل الحلم وعرف لاحقاً ساعة الوفاة ومطابقتها مع حلمه؛ فانشغل فكره، كيف يحصل هذا؟ استبعد أن يكون الأمر مصادفة خصوصاً وأن ذهنه كان خالياً من أي شيء يمكن أن يؤدي إلى ذلك الحلم.. في اليوم التالي أخذه الطريق إلى المطار على بعد النظر من أم ملحان فألقى عليها التحية واستبعد بسرعة الأفكار الدينية التي ساورته.

القربان

نام متعباً متألماً، وظن أن السبب يعود إلى الجهد الذي بذله في المزرعة ذلك اليوم من تحميل ونقل شتلات زيتون، كون مكان الألم هو نفسه الذي يشكو منه كلما أجهد نفسه في رفع الأشياء، وكان يظن أنه فتق على الرغم من أن العديد من الأطباء أكدوا له أن لا فتق لديه. في الصباح تنبه إلى تغير شديد في البول الذي أصبح لونه يشبه الكوكاكولا. لم يكن أي من أصدقائه الأطباء الذين سألهم مختصاً في المسالك البولية، فاتجه إلى شارع الأطباء بحثاً عن اختصاصي مسالك بولية، واستدل بيافطة أحدهم؛ فلجأ إليه.

«متى فحصت البروستاتا آخر مرة ؟»

«لم أفحصها حتى الآن». كانت إجابة عبد الله للطبيب العجوز، ولم يخبره أنه كان يتهرب من الفحص الأولي الذي يتحتم أن يكون عبر الشرج. كان يعرف أنه بعد سن الخمسين لا بد من فحص دوري كل

ستة أشهر للبروستات، ولكن عبد الله تجاهل الأمر رغم بلوغه الثالثة والستين. سأله الطبيب عن ظروف التبول: أيأتي مفاجئاً، وما الكمية، وهل يشعر بحرقة.

«لا يوجد شيء من ذلك». قال للطبيب الذي طلب منه التمدد على السرير وخلع السراويل.

«البروستاتا طرية وجيدة ولا مشكلات فيها». قال الطبيب بنبرة حيادية وهو يخرج أصبعه من شرج عبد الله وأضاف: «ستحتاج إلى فحص بول في المختبر، وتعود إلي مع نتيجة الفحص». عرف من الطبيب أن الأعراض وسلامة البروستاتا تعني عدم وجود التهاب، وبالتالي لا بد من سبب آخر لاختلاط الدم بالبول، ربما يكون انفجار شعيرات دم في البروستاتا أو بالطبع ورماً خبيثاً أو حميداً. إذاً وبغض النظر عن نتيجة فحص البول فلا بد من تنظير للمثانة وإزالة أي ورم وفحصه مختبرياً وهذه عملية تحتاج إلى تنويم كامل وبقاء يوم في المستشفى أقله.

لم تعجبه فكرة البنج الكامل، أو عدم معرفة مسبقة إذا كان في مثانته ورم أم لا. تذكر موت أخيه الأصغر في المستشفى أثناء عملية تطلبت تنويماً كاملاً، وثبت لاحقاً وقوع طبيب البنج في خطأ قاتل، بل اعترفت إدارة المستشفى بالجرم، ولكن الشاب كان قد مات. غادر العيادة بعد أن أخبر الطبيب أنه سيفكر في الأمر، وحاول تركيز أفكاره حول المختبر وربما تظهر نتائج فحص البول سبباً مباشراً لاختلاط

الدم بالبول. كانت العينة التي تركها للفحص باللون نفسه كما في الصباح.

بعد ثلاثة أيام جاءت نتيجة الفحص بعدم وجود أي التهاب، وذلك يعني حتمية عملية التنظير واحتمال كبير لوجود ورم. كبرت مخاوف عبد الله، وكان قد انشغل ذهنه طوال فترة انتظار نتيجة الفحص بين السلبي والتشجيعي، بل قطع على نفسه وعوداً بتقديم قرابين وهو المبتعد عن الديانات والعبادات، وفكر أنه إذا ثبتت إصابته بالسرطان فلن يلجأ للعلاج المضني وهدر الوقت، ولكنه سيقوم بأعمال مميزة قد تؤدي لاستشهاده؛ فربما هناك جنة ونار وحينئذ يبتعد عن عذاب المرض ويفوز بجنة وحوريات، وإن تأكدت نظرته ولم يكن هناك آخرة وعذاب وثواب؛ فيكفيه ما أنجزه في حياته الطويلة التي ستنتهي سريعاً وبرنين بدل معاناة الألم وآثار العلاج.

كان يشجع ذاته بهذه الأفكار، ثم تذكر فجأة أنه قد رأى أخاه، ضحية خطأ المستشفى، وذلك في الليلة التي اكتشف في صباحها اختلاط دمه ببوله. لم يكن قد فكر قبل النوم في أخيه ولكنه رأى في الحلم أنه يبحث عنه وعثر عليه في مدينة طلابية غريبة، سمع من يذكر اسمه؛ فناداه ثم حضنه قبل أن يفيق من النوم ليرى خليط الدم مع البول. انزعج حين تذكر الحلم وموعده ولكنه تغاضى عن الأمر ومحا الوساوس.

قرر عبد الله البحث عن طبيب مختص ولديه جهاز تنظير ليتحقق

دون تخدير مما في مثانته. وجد ضالته في أستاذ جامعي أجرى له الفحص في العيادة، بعد أن وضع مادة لزجة في قناة البول تبعها خرطوم به خراطيم أصغر، أحدها يحمل الكاميرا والآخر يضخ الماء في المثانة حتى تتسع وتظهر جدرانها بوضوح. كان عبد الله مسلتقياً على السرير ينظر مع الاستشاري إلى شاشة كبيرة تُظهر ما تراه الكاميرا التي يتحكم بها الطبيب ويحركها بسرعة. سأل عبد الله طبيبه إذا كان قد جرب هذه العملية.

«لا يمكنني تجربة كل الأشياء التي أفعلها، فأنا أبدل لمرضى الكلى والمثانة إذا لزم الأمر والكثير غير ذلك». أخبره عبد الله أن سبب السؤال هو شعوره بالحاجة للتبول وأنه يتابع الكاميرا ويضغط على قضيبه لوقف التدفق. لم يجد الاستشاري وعبد الله أي شيء على جدار المثانة وحمد الله، ولكن أثناء سحب الكاميرا شاهد الطبيب ورماً على عنق المثانة وشاهد عبدالله ورماً أصغر يقابله. لحظات صمت تبعها تأكيد وجود ورم وأضاف الطبيب أنه ليس بالضرورة أن يكون خبيثاً.

كان الإشكال الفوري الذي واجهه عبد الله بعد سحب الخرطوم كيف يمنع التبول الآن. لا وقت مطلقاً للذهاب إلى الحمام، ولا يعقل التبول في المغسلة. أمسك بالقضيب وبحث الطبيب عن قارورة يخرج منها أنبوب يعاد إلى المثانة لتفريغها، لكن عبد الله أبصر قارورة أخرى فارغة؛ فتناولها وأفرغ فيها مثانته. «سنحتاج إلى إجراء عملية تنظيف وتجريف للورمين ثم فحصهما في المختبر». قال الاستشاري وأقنع

عبد الله بعدم جدوى الخوض الآن في فرضيات ما العمل إذا كان سرطاناً، وأخبره بكثرة الأنواع وتفرعها وبالتالي طرق التعامل معها. «متى يناسبك إجراء العملية؟» صمت عبد الله؛ فأضاف الطبيب: «بعد غد الأربعاء؟» وافق عبد الله على الموعد وأخذ الطبيب يسجل ملاحظات لإدخاله إلى المستشفى.

«سجل لهم إنني مصر على تخدير نصفي وليس كلياً». وافقه الطبيب وأخبره أن الكلى أسهل ويفيق منه المريض أسرع. «لا يهم الوقت أريد رؤية العملية وماذا ستفعل أنت، وأريدك أن تسجلها على أسطوانة». لم يخبر زوجته عبر المحمول بالنتيجة والموعد، أراد أن يكون معها ليخفف مخاوفها. كانت تعرف أن احتمال إصابة الزوجين بالسرطان واحد إلى عشرة ملايين، وبالتالي اطمأنت أن السرطان اكتفى بها منذ ثلاث سنوات ولن يهاجم عبد الله. لقد اتخذت موقفاً صلباً حين أزالت ورمها، إذ تقبلت علاج الأشعة المباشر ولكنها رفضت استكمال العلاج بالهرمونات والكيماوي.

كانت فلسفتها أن الكيماوي سيقتل كل الخلايا الصالحة والطالحة وسيكون على جسدها أن ينمي خلايا جديدة، لكن العمر والحالة الصحية العامة لن تنجدها؛ فهذه العلاجات بحاجة إلى جسد قوي. لكنها نجت من المرض ولم يعاودها وذلك بفضل التفكير الإيجابي واعتماد وصفة هندية قوامها الكركم. أخبرها بوجود ورمين وأكمل الحديث باحتمال أن يكونا حميدين «ولو كان غير ذلك فأنا لا

أشعر بألم الآن وهذا يعني استمرار الحياة والصحة لعام آخر أقله، وهذا كاف بالإضافة لما سبق». قال لها وهو ينظر إلى دموعها، وعاد ليؤكد عدم اهتمامه مطلقاً بالأمر.. لم تصدقه بالطبع ولكنه صدق ذاته وأخذ الشعور بالاضطراب يتلاشى لمعظم الوقت ثم يعود لبعضه.

تذكر القليل مما فعله ويستحق العقاب؛ فاستعد للاستقامة، وأنذر قربانين، الأول إذا نجحت العملية، والثاني إذا ثبت من تحليل الورم أنه ليس خبيثاً. لم يطلع زوجته على أفكاره؛ فهي علمانية حتى النخاع، وستغضب لو عرفت أنه يلجأ إلى القرابين. في مساء الثلاثاء تفحص عبدالله ألفيس بوك فإذا ابن أخ له يتذكر يوم وفاة عمه، الذي ذهب ضحية خطأ طبيب التخدير. لم يكن يعرف تاريخ وفاة أخيه الذي رآه في الحلم ليلة بداية هذه القصة. في صباح الأربعاء كان قد استقر في غرفة بالمستشفى بانتظار نقله إلى غرفة العمليات. كان تاريخ اليوم ٢٨ ولكن جهاز قياس الضغط أصدر النتيجة مكتوباً عليها تاريخ اليوم السابق، وهو ذكرى وفاة أخيه في مستشفى، وأثناء عملية، وبسبب التخدير، قبل أربعة عشر عاماً. لم يخبر زوجته بكل هذه التراكمات النفسية ولكنه فكر بالانسحاب من الغرفة وحاول اختلاق مشكلة بسبب طول الانتظار، ولكن زوجته لم تتركه ينسحب من المستشفى.

تمدد على سرير العمليات حسب طلب الممرضين، وحاول أحدهم وضع كمامة على وجهه. «ماذا تعمل؟ ما هذا؟» سأل عبد الله الممرض بحدة؛ فأخبره أنه يريد أن يخدره. «لكني طلبت تخديراً نصفياً

وهذا يعني إبرة في الظهر..» قال بحدة للممرض الذي حاول إقناعه بأن عمليته من فئة التخدير الكامل وقال له إن عدم الاستجابة سيعني بهدلة للممرض وتأثيراً في عمله. «طيب أنت اطلع برة غرفة العمليات ونادي رئيس قسم التخدير». حضر الطبيب الاستشاري على صوت عبد الله مستفسراً وأكد أن التخدير نصفي، وبعد دقيقة كان رئيس قسم التخدير يبحث عن موضع الإبرة في ظهر عبد الله وهو يمازحه.

انتهى الحال بعبد الله في وضع الولادة وأخذ الطبيب ينادي طلباً للإضاءة وبقية المعدات ثم أمر ببدء التصوير وهو ينظر إلى الشاشة بينما عبد الله يتابع مسار الكاميرا. «خذ جولة إضافية؛ فربما لم ننتبه لشيء آخر في المرة السابقة». أجابه الطبيب بحاضر. «ما كل الأشياء التي أدخلتها من قضيبي؟»

«خرطوم مرن به كاميرا في المقدمة كما ترى، ونضخ الآن الماء لنفخ المثانة، وهناك قشاطة وكواية نزيل بها الورم ونكوي مكانه فوراً لوقف الدم..» كان الاستشاري يشرح لعبد الله وهو يزيل الورم فتنفر الدماء ليعود إليها ويمرر المكوى فيتوقف النزف. قاطع طبيب التخدير الحديث سائلاً عبد الله عن عدد زوجاته وعن سر لون عينيه وهو البدوي الأصل. كان باب غرفة العمليات مفتوحاً والممرضون طالعين نازلين وكلهم ينظرون بين رجلي عبد الله.

«الختيار، رحمه الله، وبعد أن تزوج اثنتين من القبيلة، خطر في باله التجديد؛ فذهب إلى لندن وعاد بوالدتي التي أورثتني لون

عينيها..» عمت فوضى التعليقات فرحاً بتمرد الختيار وكادوا يكبرون، بينما الاستشاري يبتسم لأنه يعرف الحقيقة. عشر دقائق بالضبط وطلب الاستشاري وقف التصوير وأبلغ عبد الله أن سيفرغ له المثانة هذه المرة ولن يحتاج للتبول إلا بعد أن ينتهي شلل رجليه، وقال إنه سيرسل فوراً عينة من الورم للمختبر ولكن النتيجة لن تظهر قبل الأحد. قبل المغرب استعاد عبد الله فاعلية ساقيه؛ فغادر المستشفى إلى البيت مع زوجته ولم يكن قد أعلم أي شخص آخر من الأهل والأصدقاء بما فعل. أبلغه الطبيب أن البول سيحرقه فترة وسيرافقه دماء، ولكنه لم يحذره لتغير مقاس فتحة القضيب وطلب منه الإكثار من شرب الماء.

هكذا عندما أراد التبول واقفاً كالعادة تدفق البول في كل الاتجاهات؛ فقرر بعد تلك التجربة أن يبول في المغسلة لأنه بحاجة لمراقبة اللون. في الليل بدأت الحرارة بالارتفاع وصار عبد الله يهلوس ولم ينجده إلا كمادات الثلج على رأسه وصدره التي أشغلت زوجته طوال الليل. لم يتحسن الوضع إلا قليلاً في الصباح واليوم التالي وهكذا عاد عبد الله إلى الطبيب يوم السبت وعرف منه أنه أصيب بالتهاب تسبب بما حصل وعاتبه لعدم الاتصال الهاتفي به، وكتب له أدوية جديدة للتعامل مع الالتهاب. هذه الأزمة الإضافية حدت من تفكير الزوجين في نتيجة الفحص، وتذكر عبد الله أن يمر على مختبر المستشفى ويعطيهم رقم الهاتف ويتفق معهم على إرسال صورة على الواتساب لنتيجة الفحص حينما يرسلونها إلى الطبيب.

في طريق العودة إلى البيت عرفت الزوجة ما كان يدور في خلد زوجها إذ أخبرها كيف حلم بأخيه في الليلة الأولى قبل أن يكتشف المشكلة، ثم حلول ذكرى الموت وعناد جهاز التخطيط بطبع يوم موت أخيه المخالف للتاريخ الفعلي. لم يخبرها بما عزم عليه من تقديم قربان النجاة من العملية وآخر بعد نتيجة الفحص المختبري، وعندما أحضر كبد الخروف الثاني إلى البيت قال لزوجته بأنه حصل عليها من صديق.. لم تكن كذبة كاملة إذ طلب من صديقه أن يقدم القربانين فأفتى له بأحقية أن يحصل على الكبد.

أم حمادة

سلمت شنطها في جو فوضوي لا لزوم له خصوصاً وأنها في مطار جون إف كينيدي بنيويورك، لكن الرحلة كانت متجهة إلى القاهرة وعلى متن مصر للطيران حيث لا بد من تعايش اضطراري بين الأمية والفوضى والأنانية من جهة، والنظام والعلمانية والتسامح من جهة أخرى. «شكراً يا مدام على مساعدتك لأم حمادة..» كانت عندليب قد أجابت عن بعض أسئلة من أم حمادة وأرشدتها لتسليم حقائبها. «الله يخليكي يا مدام خذي أم حمادة معاكي..» قال زوجها الذي عجز عن ملء الاستمارة لزوجته المسافرة «..أم حمادة ما تعرفش إنجليزي ولا عربي ولا حاجة، ديري بالك عليها الله ينور عليك يا مدام».

«حاضر ولا يهمك». قالت عندليب وأصبحت تتحرك مع

أم حمادة ببطء يناسب حجمها وهمتها إلى حاجز الجوازات بينما زوجها يشرح سبب سفرها إلى القاهرة، كون ابنتها مريضة تحتاج إليها هناك. سأل عندليب إذا كانت مسافرة إلى القاهرة. «مسافرة على طائرة القاهرة ولكني ترانزيت إلى عمان». تشكك الزوج في الإجابة لذكر اسم مكان غير القاهرة.

«لكن أنت حتركبي الطيارة المصرية صح؟» أجابته بنعم، «خلاص يعني تاخديها معاكي لباب الطيارة». أجابته بحاضر. «مش أوصيكي على أم حمادة دي ما بتعرفش ولا حاجة يا مدام، الله يفتح عليك». طمأنته وأرسلت أم حمادة أمامها إلى نافذة الجوازات؛ فأخذت هذه تنظر إلى الموظف وتلتفت إلى عندليب مشيرة بيديها ماذا تفعل وماذا يريد. رفعت عندليب جواز سفرها؛ ففهمت أم حمادة المطلوب وقدمت جوازها إلى الموظف الذي لم يكف عن الحديث والسؤال بالإنجليزي وأم حمادة تعطيه إجابات بالعربية بأنها ذاهبة إلى القاهرة لزيارة ابنتها وستعود.

بدأت المسيرة من حاجز الجوازات إلى صالة الانتظار المشتركة لركاب عدة رحلات مختلفة، كل منهم يستمع للميكروفون عن رقم رحلته ووجهتها والبوابة الواجب التوجه إليها. كانت أم حمادة تتماوج بمشية البطة وتحمل حقيبة يدوية بها أطعمة وأشياء شخصية، وعندليب تساير حركتها ويتصاعد الشك لديها تدريجاً إذا كانتا ستصلان في وقت مناسب؛ فهي ليست خبيرة بمطار جون إف كينيدي، وأقلعت منه مرة

واحدة قبل ذلك على متن طائرة فرنسية إلى باريس ولا تعرف طول المسافة إلى هذه الصالة. «لماذا لم يطلب لك زوجك خدمة مساعدة من شركة الطيران؟» نظرت أم حمادة إلى عندليب من دون أن تتوقف أو تبطئ أكثر في السير؛ ففهمت هذه أن تلك لم تفهم المقصود. «لو طلب لك مساعدة ستركبين في كرسي متحرك بعد تسليم الشنط حتى باب الطيارة دون أن تمشي خطوة واحدة». طلبت أم حمادة من الله أن يسامح أبا حمادة.

في الصالة، أخيراً، اتجهت أم حمادة وهي تمسك بيد عندليب إلى تجمع مصريات يبدين كأخوات لها وكأنهن صنعن في قالب واحد. «المدام فلسطينية» عرفت أم حمادة أخواتها على رفيقتها فانهال الدعاء لفلسطين وشعبها على الألسن وتأكيد أن الجميع في مصر يحب الشعب الفلسطيني ويتمنى له الخلاص.

«حد بيعرف فين الحمام؟» سألت إحدى الأخوات وهي تنظر إلى عندليب فأرشدتها بالإشارة. «والنبي تيجي معاي يا حبيبتي». قامت حبيبتها توصلها. «دا بيتسعملوه إزاي؟» شرحت لها كيف يفتح الباب وكيف يجب إغلاقه من الداخل ثم إعادة فتحه للخروج. كانت هذه السيدة أضخم من أم حمادة؛ فتركت حقيبتها على الباب خارج الكابينة ولكن عندليب أخبرتها أن تأخذ حقيبتها معها؛ فناولتها هذه كبشة أوراق وطلبت منها أن تبلها وتعيدها إليها؛ ففعلت وغادرت المكان.

«هي الصلا فين؟» نحن هنا في الصالة أجابتها عندليب، «لا لا

الصلا» فشرحت أم حمادة لعندليب أن السيدة تريد الصلاة وتسأل عن القبلة، ثم قالت للسائلة أن تصلي في أي اتجاه فلا يهم طالما أنها نوت الصلاة. لم تقتنع بنصيحة أم حمادة وذهبت لتسأل رجلاً ذا ملامح عربية ولكنها عادت دون جواب. «صلي يا حبيبتي في أي اتجاه، أنا قلتلك من الأول، اقعدي على الكرسي وأنوي وصلي يا حبيبتي». قالت أم حمادة ولم تجد الأخرى مفراً من الانصياع. أخيراً اقترب موعد ركوب الطائرة، ومعه التفتيش الأخير للحقائب اليدوية وللجسم بالطبع، حيث يجب خلع كل ما يمكن أن يحتوي على ذرة من المعدن حتى لا ينطلق إنذار جهاز التفتيش اليدوي. لكن أم حمادة زنزنت الجهاز؛ فطلبت منها الشرطية أن ترفع يديها لتفتشها بالتحسس اليدوي. «دي عايزة إيه يا مدام؟» قبل أن تجيب عندليب رفعت الشرطية يديها لتشرح لأم حمادة المطلوب، ولكنها واصلت انتظار سماع عندليب التي أخبرتها أن ترفع يديها إلى أعلى للتفتيش. فجأة ضحكت أم حمادة وتموجت وابتعدت عن يد الشرطية التي لامست إبطها. عادت الشرطية تطالبها برفع اليدين، وأصبحت ضحكات أم حمادة أعلى وكادت تسخسخ كلما لمستها يد الشرطية. صارت الشرطية أيضاً تضحك لضحكها، وزميلات أم حمادة يطالبنها أن تجمد قليلاً، ثم حضر الشرطي المسؤول عن تفتيش الرجال ليستطلع سبب الصهينة، نظر إلى محاولات زميلته ورد فعل أم حمادة وصار هو الآخر يضحك؛ فتركوها تمر وهي تزن.

كان نصيب عندليب أن تجلس بعيداً عن أي واحدة من رفقة السفر؛

فتمكنت من النوم، ولكن أم حمادة لم تنسها عند الهبوط في القاهرة؛ فوقفت على باب الطائرة قبل الهبوط على السلم تشير لعندليب وترسل لها قبلات هوائية.

ياسين

«والله يا ياسين توقيتك فريد». قال أحد الركاب الذين غادروا مقاعدهم وتزاحموا في الممر بعد توقف الطيارة وطبعاً قبل فتح الأبواب.

«طيب شو اعملك..» قالت أمه وأكملت وكأنه لا يوجد غيرها في المكان: «تشخ في الشريطة ونسيبها هنا؟» لم يتقبل ياسين فكرة أن يفعلها أمام الجميع، وكان من المستحيل أن يخترق الجموع المتأهبة في الممر ليصل إلى المرحاض. ياسين هذا إرهابي صغير لم يتخط الثلاث سنوات ويبدو أن أمه هبلة.

قبل هذا الحدث بست ساعات شاهدتها في مطار فرانكفورت في طابور تسليم الحقائب. كانت جالسة على الكراسي ومعها عربة تحمل ثلاث حقائب، وحولها شنط أخرى وابنها الصغير في حضنها بينما تسلق ياسين فوق الحقائب ليقع كل بضع دقائق؛ فتعيده إلى مكانه. حين وصلت كان هناك فجوة بين مكان جلوسها وآخر الطابور؛ فظننت أنها تنتظر شيئاً ما وليست ضمن الطابور البطيء. بعد ثلاث أو أربع حركات في الطابور وبعض التقدم صرخت أم ياسين أني أخذت

دورها. ذهبت مع من اصطفوا خلفي خلفها وبعد حوالي نصف ساعة من الزحف وجرها للشنط وإعادة ياسين كلما وقع والركض خلف أخيه سلمت حقيبتي.

في هذه الأثناء كان هناك من يتحدث بصراخ لآخرين في الطابور كيف أن شركة الطيران أخذت منه مائة يورو زيادة كثمن تذكرة اشترتها بنت ابنته بالسعر الأرخص. تمنيت أن لا يكون مقعده في الطائرة بالقرب مني. وزادت مخاوفي عندما تجمعنا في الصالة بانتظار الصعود إلى الطائرة، فقد صرخ في شخص طلب منه التحدث بهدوء؛ فالجمة، ثم اقتحم الحاجز ووقف ينتظر بقية جماعته، وعندما وصلته إحدى النساء سألها عن البقية؛ فقالت إنهم ينظفون الطفلة؛ فقال بصوت مجلجل: «يعني نظل واقفين نستني خريتها». دخلت إلى الطائرة كآخر راكب، وسررت حين رأيت صاحبنا مع جماعته في المقدمة بينما مقعدي في الوسط، ويا للحظ! كان ياسين يجلس خلفي مباشرة وأمه مع أخيه الأصغر على يساره وراكب شاب عديم الحظ يجلس على يمين ياسين الذي لم يمهلني وباشر بضرب الكرسي بقدميه. التفت إلى أمه حتى تفهم فقالت له: اسكت يا ياسين الله يرضى عليك.

لم يهتم ياسين وأخبرته أمه أنه بعد الإقلاع سيتمكن من مشاهدة أفلام كرتون على الشاشة التي يخبطها بقدميه. تأبطت خيراً بأن الطفل سيسكت أو ينام أو ينشغل في مشاهدة الأفلام. كف ياسين عن الخبط أثناء الإقلاع إذ غطس للخلف في كرسيه مع اندفاع الطائرة للأمام

ولأعلى، وما إن اعتدلت الطائرة حتى عاد الخبط ومطالبة أمه الهبلة بين الحين والآخر له بالسكوت. تملص ياسين من الحزام وركب فوق جاره بينما أمه تطالبه بعدم إزعاج عمو الذي يعيده إلى مقعده؛ فيرتد ياسين إليه كل مرة مثل المغناطيس لينظر من الشباك. كان من الواضح أن ياسين لا يملك ذرة انضباط ولم يتلق من عائلته أي تربية على الإطلاق، وكانت أمه تعرف ذلك إذ أصبحت تشجعه على الابتعاد عنها ليرهب بقية الركاب.

ذهبت إلى الحمام فوجدت ياسين يحاول فتح الباب والمضيفة تشد يده عن المقبض قائلة «عيب»؛ فترتد يده إلى الباب فور تملصها من المضيفة، ثم قرر الانطلاق يضرب الركاب على جانبي الممر، تصدى له كبير المضيفين ولكنه أفلت من بين رجليه.. خرجت سيدة من الحمام وهي تنظر إلي بغضب، ولكنها لم تتفوه بكلمة وانطلقت عائدة إلى مقعدها قبل أن أعتذر لها أو أخبرها من الذي أقلقها في بيت الراحة. في طريق العودة إلى مقعدي شاهدت كبير المضيفين يحمل ياسين من خاصرتيه ويضعه على المقعد بجانب أمه. بعد أقل من دقيقة كان ياسين يقف على مقعده ويشد شعري..

«اهدأ يا ياسين» قلت له بهدوء اليائس، ولكن يديه امتدتا إلى النظارة فأنقذتها قبل أن يخطفها واستدرت إليه فقالت أمه: اسكت الله يرضى عليك. «الله لا علاقة له بالأمر، لا يمكن ترك طفل دون أي تربية منذ ولادته والآن تريدين أن يستمع إليك». قبل أن تعلق على كلامي

وكنت أتحسس رأس ياسين وأشد شعره، سألها جار ياسين عديم الحظ متى سيعودون، إلى ألمانيا، وحمد الله بعد أن عرف الموعد مؤكداً أنه كان سيغير تاريخ سفره لو صودف مع عودتهم. قبل أن أرتد إلى مقعدي رأيت الشاشة متدلية من مكانها بعد أن خُلعت.

انطلقت موجة ضحك من ياسين وأخيه، ويبدو أن الأول يدغدغ الثاني، شعرت برضاء لتغير الضجيج والعويل وتعليقات الأم إلى موجة ضحك، وندمت عل شد شعر ياسين؛ فهو ضحية قلة التربية. أخبرتهم أمهم أنها ذاهبة إلى الحمام وستعود، استمر الضحك لوهلة ثم انقلب إلى عويل من الصغير. هم ياسين بالانطلاق ولكن جارتهم عبر الممر أمسكت بذراعه وأمرته أن يهتم بأخيه ويسكته.. تملص منها وتقدم للراكب أمامها، جاري عبر الممر، رفع ياسين رأس الرجل النائم بيده ونظر إلى وجهه الذي غطت الحيرة ملامحه ثم تركه ومضى إلى الدرجة الأولى.

حين قذفته المضيفة عبر الستارة إلى جهتنا أمسكت به جارته ودفعته إلى مقعده؛ فاندفع يلاعب جاره، عمو عديم الحظ، الذي باشر يلطخ ياسين على وجهه مستغلاً غياب أمه، لكن ياسين كان يرد الضربات إلى صدر جاره. نظرت إلى جاري وباشرت الحديث معه؛ فقد انعدمت فرصة المطالعة أو مشاهدة فلم أو النوم، لم يكن أمامي سوى تناسي وجود ياسين.

عرفني إلى اسمه وأضاف أنه من سوريا وقادم إلى عمان ليلتقي

عائلته التي تجمعت من دول الخليج وأوروبا. بدا قلقاً ثم قال إنه متخوف أن لا يسمحوا له بالدخول. طمأنته بعد أن عرفت أن لديه إقامة لثلاث سنوات في ألمانيا وجواز سفره السوري ساري المفعول. بدأ يخبرني بقصة هروبه من مدينة درعا حتى وصل إلى ألمانيا، ولم أعد أهتم حين أشعر بيد ياسين فوق رأسي، بل أصبحت أربت يده حتى لا ينتقم مني ويشد بقية شعري. قال إنه الابن الرابع عشر والأعزب الوحيد في العائلة؛ فبشرته أن أمه قد جهزت له عروساً الآن، ولكنه أصر أنه لن يتزوج قبل الثلاثين، يعني بعد ثلاث سنوات. اشتغل معيداً في جامعة دمشق، لكن راتبه لا يكفي لدفع أجرة السكن، يتلقى الدعم من والده الذي يعمل في الإمارات، وكان يعاني من الزعران على الحواجز؛ فقرر الرحيل. خرج إلى تركيا وحاول ثلاث مرات اجتياز البحر في زورق صغير مع آخرين، وفي كل مرة كان حرس السواحل اليونان يعترضون طريقهم ويرمون المحرك في البحر ويتركونهم حتى يسهل على حرس سواحل تركيا الإمساك بهم وإعادتهم.

في المرة الرابعة نجحت المحاولة. قال جاري إنه قد سار على قدميه ثلاثة شهور عابراً ست دول أوروبية حتى دخل إلى ألمانيا؛ فأصبح آمناً. هناك منحوه الإقامة وجواز سفر لاجئين وتسديد رسوم تعلم اللغة وأبلغوه بفرص التوظف في مجاله إن أتقن اللغة، أو بوسعه العمل في أي مجال متاح في السوق، وقال إنهم يدفعون أجرة سكن من يعثر على مكان، ولكن المعضلة أصبحت صعوبة الاستئجار، وتكونت

مافيات عربية تعثر على مساكن وتأخذ حتى عشرة آلاف يورو لمرة واحدة بدل العثور على مسكن.. طبعاً هذا المبلغ لا تسدده الجهات الألمانية. لم يخض جاري في تفاصيل مشكلات الطريق؛ فيبدو أنه تناساها أو كانت طبيعية بالنسبة له ، لكنه ناقم على المافيات والأفراد ممن يستغلون الوضع في ألمانيا ليحلبوا اللاجئين.

استمر حديثنا حتى هبطت الطائرة وتوقفت ونهض الركاب وتجمهروا في الممر، وطالب ياسين بالذهاب إلى الحمام. في انتظار الحقائب ركب ياسين الشريط المتحرك فأنزلته بلطف وحادثته باسمه حتى تنبهت أمه؛ فسألتني إذا كنت أعرف ياسين.. نظرت إليها بشفقة وذكرتها أنني من كنت أجلس أمامه، وقال جاره عديم الحظ: وهل يوجد في الطائرة من لا يعرف ياسين. تبادلت معه في توافق تام بعض قوانين التربية للأطفال، ووصلت الحقيبة؛ فودعت ياسين وتطوع أحد الشبان ليساعد أمه في تحميل حقائبها ومراقبة أطفالها. في الطريق إلى عمان دارت في رأسي مفارقات تدميرنا الذاتي للأجيال في الحروب والصراعات الطائفية وخذلان ياسين وأمثاله تربوياً.

رغائب وغرائب

المتشبب

«والله إنني خائف شوية».

«لا تخف يا حاج، ما حلله الله لا يحرمه البشر..»

«لست خائفاً من البشر، أو معطيهم أي اهتمام..» قال الحاج السبعيني لرفيق عمره الذي رفع عينيه مستفسراً؛ فأكمل الحاج: «.. خايف العدة ما تشتغل».

«كيف هالكلام يا حاج؟ هي شغالة أو بطالة؟ ألا تعرف؟»

«عارف يا رجل، الله يسم بدنك، كيف مش عارف.. الآن كل شيء شغال، لكن هذا كثير من النظري وقليل من العملي». نظر صديقه إليه وكل خلجات وجهه تؤكد أنه لم يستوعب تماماً ما يريد الحاج قوله؛ فواصل السكوت لاستدراج الحاج. «يعني لما أفكر في الموضوع بعمق يكون كل شيء تماماً واقفاً مستعداً، وبين الحين والآخر عندما ينتابني الشك أختبره؛ فيبيض وجهي».

«تمام ما المشكلة إذا خايف من الخجل يعني؟»

«أنا والخجل أصحاب، ولكن خايف من التقصير؛ فالبنت صغيرة، صغيرة جداً بالنسبة لي، وإذا تعودت وصارت تطالب بالمزيد، خايف أقصر، فهمت؟»

«فاهم عليك، لكن المهم هو الطلق الأول، هل أنت واثق من

قدراتك على التنشين والإطلاق؟ إذا ضبطت أمورك من البداية فلا خوف لاحقاً لأن كل شيء بالتعويد وهي صغيرة وجاهلة وأنت تعودها».

«هذه أيضاً مش بسيطة، الطلق الأول..» قال الحاج وقد أغمض عينيه وتجلت أمامه صورة الفتاة التي اتفق مع أهلها بالتقدم إليها يوم الخميس القادم، وتذكر أن أهل الصعيد يدخلون على العرائس بأصابعهم للتحقق من العذرية، ولكن هذا لا يجوز هنا، بل تكون فضيحة لو فعل مثل الصعايدة وأبلغت البنت أهلها، ثم ما الفائدة، هو يريدها لأن خياله نشط جنسياً.

«إنها رهبة الليلة الأولى يا حاج، وهي تصيب الشباب والعواجيز، وأنت ما شاء الله عليك زي الحصان. أترك الأمر لي سأوفر لك ما يضمن عدة طلقات في الليلة الأولى». كان صديقه يفكر في توفير حبات فياجرا تضمن للحاج عبور الليلة بسلام لتبقى الذكرى قوية بين العرسان.

اطمأن الحاج وأتم الخطبة ودفع المهر وعقد على الفتاة التي تصغره بنصف قرن، وكان قد جهز لها البيت؛ فجدد السرير الذي أنجب فيه سبعة من الأولاد والبنات كلهم عارضوا زواجه ولكنه تحداهم. واشترى خزانات جديدة للمطبخ وفرشات للصالون، فقد كان ميسوراً مقارنة بأهل العروس الفقراء، وكانت الأراضي كلها لاتزال باسمه ولم يعط الأبناء أي شيء، فقط سمح لمن يريد منهم أن يعمل بالأرض

مقابل مونته وعيديته. كان تواقاً للجنس وأصبح يترقب ليلة الدخلة وأكثر من زيارة أهل البنت حاملاً الهدايا ليتأمل جسدها وهو يتحسس شريط الفياجرا في جيب القنباز.

جاءت الليلة الموعودة ولم يعرف كيف سارت الحفلة، كان يفكر في ساعة الصدام وإذا كانت الفياجرا ستضبط طلقاته بالفعل، لم يتأمل مجريات الحفلة أو نظرات المدعوين وهمسات العجائز، أراد الجهوزية في اللحظة المناسبة، وتذكر قول صديقه بأن عليه تناول حبة فقط قبل ساعة الصفر. اختلى العريس بالعروس ومر بعض الوقت، وفجأة ارتفع صراخ البنت، فزغردت بعض قريبات العريسين، لكن الفتاة لم توقف الصراخ بل ارتفع صوتها أكثر وسمع الأهل ما يشبه نداء استغاثة؛ فقرعوا الباب ودخلوا ليجدوا العريس ممدداً على الأرض دون أنفاس.

في المستشفى احتار الأطباء لهذا الموت المفاجئ حتى فتشوا ملابسه؛ فوجدوا بقية الشريط ناقصاً حبتين وخمنوا أن العريس تناولهما في جرعة واحدة قضت عليه؛ فمن كان في سنه لا تناسبه الفياجرا، وإن استعملها، فعليه بنصف حبه فقط.

المُجاز

«ماذا لو تبول المصيفون في البحر؟» راوده التساؤل وهو يراقب الناس يدخلون البحر مشياً وهم ينكمشون من صدمة الفارق بين حرارة

الشمس على الرمال وبرودة الماء، ثم يقفون يرشقون أنفسهم بالماء، ويبتعدون عن تلك البقعة ويسبحون خارجين إلى الشاطئ، تماماً كما فعل هو حين تبول في البحر بدل أن يسير إلى دورة المياه القريبة. «على الأرجح إن مجاري دورة المياه تصب في مكان ما في البحر هي الأخرى». هكذا برر فعلته، ولكنه امتعض من فكرة أنه يسبح في بول الآخرين.

استلقى على بطنه فوق كرسي البحر وأدار وجهه إلى الشمال ولم يستطع النظر طويلاً إلى جارته المستلقية على ظهرها وبطنها يعلوها بما يبدو توأم على وشك الميلاد. استدار بوجهه إلى اليمين حيث فتاتان ذواتا جسم متناسق منبطحتان على البطن ومؤخراتهما أعلى من مستوى الظهر. كانتا تنظران الواحدة إلى الأخرى وتتجاذبان أطراف حديث لم يسمعه ويهتز جسماهما عندما تضحكان؛ فتظهر كتلة إضافية من صدر جارته التي كانت قد فكت رباط الصدارة لتنال الشمس من كل ظهرها.

أخذته الأفكار والتخيلات بعيداً، ولو كان مستلقياً على ظهره لانفضح أمره. فجأة خف ضحكهما واستدار رأس جارته إليه؛ فخجل ظناً أنهما كشفتا أفكاره. تبسم وأخذ يبحث عن كريم الجسم الواقي من الشمس؛ فاستدارت الفتاة إلى صديقتها بينما باشر هو بدهان يديه ورقبته بالكريم ثم اعتدل في جلسته ودهن ساقيه وصدره وبطنه وأخذ يحاول توزيع الدهان على ظهره وهو منبطح يتلوى ذات اليسار حيث

الجارة الحبلى وذات اليمين حيث الرشيقتان ولكن دون فائدة حتى تقدمت جارته الرشيقة وابتسمت له ورطنت مشيرة بيديها؛ ففهم أنها تريد مساعدته في تغطية البقعة صعبة المنال من ظهره؛ فناولها الكريم والابتسامة ملء شدقيه وأدار وجهه تجاه الجارة على اليسار.

مر بعض الوقت وهو ثابت على وضعه منبطح على بطنه يدير رأسه ذات اليمين حيث تجاهلته الرشيقتان تماماً، وذات اليسار بينما الابتسامة لم تفارق محياه. تذكر أنه يحمل كتاباً في شنطة الشاطئ فمد يده وأخرجه ورفع صدره واتكأ على كوعيه وأخذ يقلب الصفحات بحثاً عن مكان توقفه من الأسبوع الماضي. طالع فقرتين وحاول تذكر المحتوى السابق ولكن من دون جدوى؛ فأخذ يقلب الصفحات باتجاه البداية.. لمح جارته على اليسار تحاول الوقوف؛ فنهض ليساعدها. مد يده إليها؛ فأرسلت إليه نظرة غاضبة.. أشار إلى بطنه وتمتم ليفهمها أنه يساعدها من أجل البيبي في بطنها. ارتفع صوتها بما لا يفهمه من كلام بدا كالسباب، نظر المصيفون إليهما وقد نهضت قبالته، أسرع مسؤول الموقع إليهما بينما الجارة تصرخ وتدفع جارها المتقهقر.. انحنت على صندلها فاستدار هرباً ولكن تصويبها كان محكماً.

أخذ الناس يسألونها عما جرى وهي تجيبهم بصراخ. هدأ الموقف بالسرعة التي اشتعل بها، ونقل مسؤول الموقع حاجاته إلى مظلة أخرى بعيدة وشرح له بالإنجليزية أن السيدة ليست حاملاً وظنت أنه

يستهزئ بسمنتها أمام الآخرين حين أخذ يشرح لها بالإشارات أنه يريد مساعدتها لأنها حامل. استحمر ذاته كيف لا يميز بين حبلى وسمينة، وأغمض عينيه وزم شفتيه وهو يؤنب ذاته على التدخل أصلاً.. لكن ألم تتدخل الرشيقة لدهن ظهره.. قطع المسؤول حبل أفكاره سائلاً إياه عن المشروب الذي يحضره إليه. «بيرة» قال باقتضاب وتمدد على كرسي البحر معطياً ظهره لغالبية المصيفين.

العارية

وصلت إلى البيت متعبة مبللة بالعرق، لم تكن المسافة التي قطعتها سيرا على الأقدام طويلة، ربما ثلاثمائة متر فقط، حيث أنزلتها سيارة صديقتها على طرف الشارع. كان والداها مسافرين لعدة أسابيع خارج البلاد؛ بينما أخوها في جامعته بمدينة أخرى ولا يعود إلى البيت إلا في الإجازات، وهكذا اتفق الجميع على منح سائقهم إجازة، ورتبت هي مع صديقتها أن تمر عليها كل يوم لتأخذها معها إلى الجامعة وتعيدها إلى البيت.

دخلت إلى البيت، وكانت قد باشرت بنزع أغطيتها عند اجتياز باب الحديقة. انصب تفكيرها على الدش، وفي ثوان كانت عارية تماماً في غرفتها وقد تغطى سريرها بكومة الملابس الخارجية السوداء والأطقم الزهرية الداخلية. انطلقت إلى الدش وأخذت تزيل العرق عن جسدها بالماء ثم بالصابون ثم بالشامبو، ولم تحسب الوقت الذي

استغرقته لترطيب جسدها، أو كمية الماء التي استنفدتها وربما كانت كافية لري نخلة طوال العام.

لفت الفوطة على نصفها السفلي وخرجت من الحمام باتجاه غرفتها. في منتصف المسافة تجمدت حين سمعت صوت أخيها في المطبخ يقول إنه قادم؛ فظنت أنه سمعها ويخاطبها. دلها عقلها على اللجوء إلى الصالون الأقرب من غرفتها حتى لا يراها أخوها هكذا لو خرج فوراً من المطبخ. فتحت باب الصالون بسرعة البرق واستدارت تنظر من شق الباب إذا كان أخوها سيظهر؛ فتخاطبه، أو إذا كان بوسعها قطع بقية المسافة إذا أيقنت أنه باق في المطبخ. انزلقت الفوطة عن وسطها؛ فرفعتها لتغطي شعرها المبلل وهي تراقب الوضع من شق الباب. لم تعد تسمع صوت أخيها؛ فركضت إلى غرفتها.

بعد وهلة خرجت من غرفتها بلباسها البيتي؛ فوجدت أخاها خارجاً من الصالون يحمل صينية عليها فنجانا قهوة ممتلئان. حياها وسألها إذا رأت صديقه الذي أجلسه في الصالون قبل دقائق بينما أعد له القهوة، ولا يعثر له على أثر الآن. دارت بها الدنيا وسقطت على الأرض من هول ما دار في خلدها.

في غضون يومين بعد عودة الوالدين من السفر حضر أهل الصديق لخطبة البنت، وقال الصديق لصديقه الناس تظهر وجه البنت للعريس، وأنتم ما شاء الله لم تخفوا عني شيئاً.

البوسطجي

عمره الآن يقارب التسعين، تقاعد من عمله قبل ربع قرن، واكتشف مصادفة أنه قد أنجب أكثر من ١٣٠٠ ولد وبنت، أو بمعنى آخر توقف البحث عن المزيد من أبنائه. هو بالطبع ليس من الأمراء أو الشيوخ الذين يتزوجون عذراء كل يوم خميس، لكنه عمل كساعي بريد في مدينة ناشفيل بولاية تينسي الأمريكية أثناء عقد الستينيات، ويعتقد أنه كان آنذاك يشبه مغني الروك الشهير جوني كاش، أو هذا ما سمعه مراراً من سيدات المدينة، بل غلب الظن على بعضهن أنه جوني يدور على البيوت متنكراً كساعي بريد، كما قال وهو يبرر ما حدث.

في عام ٢٠٠١ كلف رجلان من سكان المدينة، لا يعرف أحدهما الآخر، كلفا رجل مباحث خاصاً للبحث عن والد كل منهما. بعد إجراء فحص الجينات، الذي أصبح في متناول الجميع وبسعر زهيد، اتضح للمُكلف أن الرجلين من والد واحد؛ فاشتعل حب الاستطلاع لديه. جمع معلومات عن مكان سكنهما وظروف حياتهما لكنه لم يتوصل إلى رابط بينهما؛ فتحتم عليه طلب المعونة من آخرين لفحص جيناتهم. بدأت الكرة تتدحرج واتضح اشتراك العشرات ثم المئات في جينات الأب. هنا انتقل المكلف بالمهمة لفحص جينات المتقاربين في السن والسكن، وفي تصيد جينات من يحتمل أن يكون الأب.

بعد خمسة عشر عاماً من البحث توصل إلى ١٣٠٠ واحد لهم الأب نفسه وتعرف إلى الأب حين قرر فحص جينات موزعي الحليب والبريد. قال العجوز لرجال الإعلام المحليين بعد انتشار الخبر إن موانع الحمل لم تكن منتشرة في الستينيات ودافع عن نفسه بالقول: إنه لم يفعل شيئاً يخجله، «كانت الستينيات أياماً جميلة وكنت أقلد جوني كاش في اللبس وتسريحة الشعر وهذا نجح تماماً مع السيدات». وتذكر مبتسماً: «كان بعضهن يتظاهرن أنني جوني كاش بالفعل، ولا أعرف إذا كن يصدقن ذلك أو يحاولن إقناع أنفسهن أنني جوني.. وعموماً لم يكن بوسعي رفض طلق سريع أثناء العمل».

لم يسجل شبيه جوني أعداد السيدات اللواتي استجاب أو استجبن له، لكن المُكلف بالبحث يقول هناك المزيد من الأبناء وأنه أوقف البحث حتى لا يتسبب بخراب بيوت أناس لديهم آباء، وفي الأصل أدلى الكثير ممن تم تحديد أبوتهم بالمعلومات بعد ضمان السرية الشخصية، والبعض منهم ارتاح لمعرفة الحقيقة ولا يكنون أي حقد على الرجل العجوز؛ فالمهم أنهم عرفوا الأب وشكله وجيناته وهذا يساعدهم على تجنب الأمراض أو معرفة ما قد يصيبهم بالوراثة.. ومن حسن حظهم أن جوني الأصلي لم يكن والدهم؛ فقد توفي عام ٢٠٠٣ عن واحد وسبعين عاماً عانى في أواخرها مرض السكر والباركنسون والإدمان.

حكام وأبناء

لقب «أكثر الرجال إنجاباً في العالم» يحتفظ به حاكم عربي نُسب إليه أكثر من ألف ابن وابنة، وهو السلطان المغربي «مولاي إسماعيل»، أكثر الحكام إثارة للجدل في التاريخ من حيث عدد الأبناء، ودخل موسوعة غينيس للأرقام القياسية؛ لكونه أكثر رجال العالم إنجاباً وخصوبة بين الأرقام المثبتة، وذلك (بـ٨٨٨ ثم ١٠٢٤ من الأبناء)، ودرست حالته في ضوء علم النفس التطوري.

يقال إنه أنجب ١١٧١ ابناً وابنة من أربع زوجات و٥٠٠ جارية، خلال ٣٢ عاماً (منذ كان في الـ٢٥ عاماً من العمر حتى بلوغه الـ٥٧). كثيراً ما شكك علماء في إمكان إنجاب السلطان الراحل أو أي شخص كل هذا العدد من الأبناء لاعتبارات عدة، منها عدم قدرة الحيوانات المنوية على تخصيب جميع البويضات واحتمال العقم وضعف الخصوبة لدى بعض النساء.. لكن دراسة نشرت عام ٢٠١٤ في مجلة «بلوس ون» العلمية لاثنين من الباحثين في جامعة فيينا، بالاعتماد على المحاكاة الحاسوبية، وجدت أن السلطان كان قادراً على إنجاب ١١٧١ طفلاً من عدد أقل من النساء مما هو متداول (بين ٦٥ و ١١٠ نساء)، وبمعدل ممارسة جنسية يراوح بين ٠,٨٣ و١,٤٣ مرة يومياً، وذلك مع مراعاة القيود الدينية. ورجحت الدراسة أن يكون السلطان قد أنجب عدداً أكبر من الأبناء بناء على ما هو مثار حوله بشأن إصداره

أوامر للقابلات تقضي بخنق أي مولودة أنثى من محظياته فور ولادتها، على أن يحتفظ منهم بالمواليد الذكور فقط.

الملك الراحل سعود بن عبد العزيز، هو من أكثر حكام المملكة إنجاباً؛ إذ بلغ عدد أبنائه ١١٥. نسب له نحو ٤٥ زوجة، وهو الوحيد إلى الآن من حكام آل سعود الذي انتهى حكمه بالعزل وليس الوفاة. والد سعود، أي الأب المؤسس للسعودية، الملك عبد العزيز أنجب بدوره ٣٦ ابناً و٢٧ ابنة، بينهم العاهل السعودي الملك سلمان بن عبد العزيز، الذي سيكون آخر الأبناء الملوك ويسلم الراية لأحفاد عبد العزيز. بدأ المؤسس زيجاته في عمر السابعة عشرة، وعرف له ثلاثين زوجة أقله.

سعيد بن سلطان البوسعيدي (حكم بين عامي ١٨٠٦ و ١٨٥٦) يعتبر أقوى وأشهر سلاطين عُمان ومؤسس الدولة العمانية، أنجب ١٢٠ ابناً وابنة من زوجاته وجواريه اللواتي لا يعرف عددهن، وهن من جنسيات عربية وإيرانية وجورجية وشركسية، وقد تنازع الأبناء الحكم عقب رحيل الأب.

حاكم دبي الأمير محمد بن راشد من أكثر أمراء الدولة إنجاباً بعد ست زيجات. يقدر عدد أبناء الأمير السبعيني وبناته بنحو ٣٠.. وهو العدد نفسه الذي أنجبه مؤسس الدولة الشيخ زايد من ثماني نساء.

ملاحقة هتلر

لم يستطع ردع ابتسامة عريضة ثم أفلتت منه ضحكة لفتت انتباه بعض ركاب عربة المترو من حوله. نظر إليه صديقه الذي يقف قبالة

مقعده مستفسراً ومال من فوقه ليرى ماذا يطالع في صحيفته الإنجليزية. «هذا ريفيو لكتاب عنوانه: آخر أيام هتلر لحظة بلحظة». قال الصديق، لكن اسم هتلر والحديث بينهما بالعربية أعاد نظرات البعض إليه. «بعد سبعة عقود ما زال اليهود ينتقمون من هذا الرجل ويشوهون سمعته ويهينون كل من أيده من الألمان وغيرهم».

«هم أشطر من العرب ومن البدوي الذي يأخذ ثأره بعد ربع قرن ويقول إنه تسرع في قضائه». قال صديقه وهو يتجاهل اختلاس النظرات من بعض الركاب؛ فمنذ ازدياد العمليات الإرهابية في شوارع أوروبا أصبحت العيون تسلط والآذان تتنبه لكل ما يقوله شخص ملون غير ناصع البياض أو سيدة محجبة.

«جاء في الريفيو أن المؤرخين تناوبتهم الشكوك منذ زمن، أن غزو صاحبنا لأوروبا ومحاولته إبادة أولاد عمنا، هو محاولة منه لتعويض نقص رجولته وصغر زبه». قهقه الصديقان، وأكمل قارئ الصحيفة: «حسب المؤرخين مؤلفي هذا الكتاب كان لصاحبنا خصية واحدة وفتحة زبه من تحت وليست مثلنا من الأمام، وبالتالي عليه الجلوس عندما يتبول، ولا يمكنه ممارسة الجنس..».

«الله أكبر، هتلر أصبح مخصياً وعاجزاً جنسياً؟» رفع معظم ركاب مقصورة المترو رؤوسهم لتفحص الصديق الذي تعمد رفع صوته ليستفز الإنجليز بقول الله أكبر يليها ذكر اسم هتلر. أنبه صديقه بنظرة واضحة على فعلته التي قد تسبب لهما مشكلات إذا قرر أحد

الركاب الاتصال بالشرطة لتتلقفهما في المحطة القادمة.

«هذا ريفيو في التلغراف حول كتاب عن هتلر يقول إنه كان عاجزاً جنسياً». قال الصديق الجالس بصوت واضح لجاره البريطاني أسود اللون على أمل أن يفهم الآخرون سبب تكرار اسم الفوهرر.

«كل العنصريين مخنثون». قال الجار الأسود .

«لكن هذا الكتاب يقول إن زبه قصير جداً..» علق الصديق الواقف. تركت فتاة إنجليزية بيضاء مقعدها المجاور قبل بلوغ القطار للمحطة؛ فجلس الواقف بجانب صديقه وأضاف: «.. هل تعتقد أن تشرتشل مخنث وسلاحه صغير مثل غريمه؟»

«دعنا من تشرتشل، ماذا يقول الريفيو غير ذلك؟»

«نعم دعنا منه..» قال قارئ الصحيفة لجاره ونظر إلى الريفيو مجدداً ليتذكر: «يقول كان الفوهرر يخاف أن يراه أحد عارياً، وأنه بسبب وضعه هذا كان سريع الغضب».

«لكني شاهدت فيلماً يقول إن لهتلر عشيقة وانتحرا معاً، وكان بالطبع ينكحها سواء بقصر أو بطول؛ فكما يقال عندنا فالحجم لا يهم». توقف القطار ونهض الجار معلناً وهو يغادر: «أنتم العرب تصنعون المشكلات لأنفسكم وللآخرين».

«ربما الكلام صحيح؟»

«كلام الأسود أم الريفيو» أشار الصديق بيده إلى الصحيفة.

«لا أعتقد أنه صحيح؛ فالصحيفة نفسها تشير إلى كتاب آخر عن

سيرة هتلر ألّفه مؤرخاً بريطانياً قال فيه إن الزعيم النازي النمساوي المولد كان يتجنب أي نشاط جنسي خوفاً من الإصابة بعدوى، يعني كان نشيطاً ولكنه مخلص في علاقاته، وكتب مؤرخ ألماني أيضاً أن الزوجين هتلر وإيفا براون استمتعا بحياة جنسية سعيدة وصحية. هذا أيضاً مكتوب في الريفيو؛ فكيف يكون الرجل بخصية واحدة وبثقب سفلي حسب الكتاب الجديد؟»

«إنهم بالفعل لا ينسون ثأرهم، والله يستر ماذا يحضرون للانتقام منا بعد أن هندسوا غزوة نيويورك وألصقوها بالعرب. في السابق سودوا وجوهنا في كل أفلام هوليود، ثم دبروا لنا هذه المكيدة وها نحن في كل مكان ندفع الثمن». صمت ثم أضاف وهما يهمان بالوقوف استعداداً للترجل من العربة: «مهما سيقولون فلن يتهمونا بما اتهموا به صاحبنا».

أساطير ووقائع

الحب والجنون

في البداية كانت أنواع المحاسن والمساوئ تتعايش معاً؛ بل وتلعب بعضها مع بعض في كوكب فارغ من البشر والحيوانات. في مواجهة الملل اتفق الطرفان على اللعب معاً واخترعا لعبة الغميضة.

قفز الجنون من فريق المساوئ وأغمض عينيه وأخذ يعد للمائة متيحاً للجميع فرصة التخفي، وكانوا قد حددوا مخابئهم سلفاً ما عدا الحب الحائر على الدوام. اختبأت الخيانة والرقة والولع والشوق والكسل والكذب، الذي أعلن على مسامع الجنون أنه سيختبئ تحت الحجارة ولكنه قفز إلى النهر.

اقترب الجنون من العد إلى المائة وبقي الحب حائراً ماذا يفعل، هل يختبئ أم يظهر، وقبل فتح الجنون عينيه رمى الحب نفسه بين أشجار الورد وأشواكها. كان أول من عثر عليهم الكسل؛ إذ تكور في مكانه معتقداً أن الجنون سينظر بعيداً. ثم خرج الكذب من النهر لالتقاط أنفاسه. نظر الجنون إلى أعلى فإذا الرقة تحلق باتجاه القمر فناداها، وضرب الأرض برجله طالباً من الشوق أن يظهر، وأزاح بقدمه كومة زبالة فإذا بالخيانة مختفية فيها وتضم الحسد في حضنها.. بسرعة فائقة وجد الجنون البقية؛ الحكمة والعفة والشجاعة والعدل، ولكنه

لم يعثر على الحب؛ فأخذ يدور ويقفز بحثاً حتى لا يفوز الحب في اللعبة، وهنا همس الحسد للجنون بمكان الحب؛ فأخذ خشبة مدببة وصار يطعن شجر الورد لإخراج الحب من مخبئه.

طعنات قليلة وسمع الجميع بكاء وآهات الحب الذي وقف بين الورود وهو يعلن أنه أصيب وأصبح أعمى من ضربات الجنون. «يا إلهي ماذا فعلت؟» قال الجنون نادماً وصار يسترضي الحب ويعلن استعداده لعمل أي شيء لإصلاح غلطته هذه.

«لن أرى طوال العمر..» قال الحب بهدوء ووداعة، «.. فكن دليلي لأتمكن من الاستمرار». على الفور أعلن الجنون قبول هذه المهمة، ومنذ ذلك الحين يتجول الحب الأعمى في الأرض والجنون يقوده.

الحياة والموت

مع أول صرخة للمولود ماتت الأم، فالتقى الموت مع الحياة واستكملا حوارهما الأزلي المتشعب والمتجدد مع تغير الأزمنة والعادات.

«إنها زوجة رجل غني وماتت لتنجب له ولده ووريثه الأول. كانوا يعرفون أنها لا تتحمل الحمل والولادة. الآن ستدفن وكأنها خادمة، لن يضعوا معها في القبر متاعاً أو مصاغاً أو طعاماً يؤهلها لما بعد الرحيل».

«لقد كف الناس عن الخوف منك وتركوا تلك العادات منذ زمن». قالت الحياة للموت وهي تعرف أنه يناكفها.

«بل أصبحوا يخافونني أكثر مما مضى. قبل الأديان اخترعوا قصة الحياة بعد الموت حتى يهونوا على أنفسهم، وأخذت الأديان الفكرة ووعدتهم بالنعيم وهددتهم بالجحيم، كل حسب عمله؛ فتعاظم خوف الطرفين مني. هل رأيت صالحاً أو طالحاً لا يخاف الموت؟ كلهم تمسكوا بفكرة الحياة بعد الموت ليهونوا على أنفسهم، ولكنهم لا يأخذون الآن معهم ما يعينهم على الحياة في الآخرة، لأن النعيم نعيم، إذا كان مصيرهم هناك، وكل ما قد يحملونه لن يغنيهم عن الجحيم إذا تقرر أنه مقرهم».

«صحيح..» قالت الحياة في محاولة لرد كيد الموت وأكملت: «أنت إرهابي يعيش البشر خائفين من لقائك..»

«بل أنت تدللينهم؛ فيتمسكوا بك على أمل التمتع بالمزيد من المغريات الملموسة، ومن الطبيعي أن يخافوني لأن أحداً لم يعد بعدي ليخبرهم ما رأى هناك».

«أخبرني إذا ماذا ينتظرهم عندك لأهون عليهم» توسلت الحياة للموت.

«لو أخبرتك يا جميلتي ماذا عندي لهم بعد الاستضافة لكرهوني أكثر ونغصوا عليك أيامك وهم يتمسكون بك..» صمت الموت ونقلت الحياة نظراتها عن المولود إلى الموت فأكمل حديثه: «هذه المسكينة

ستدفن على وجه السرعة وسيولد الدود من أحشائها وستبقى عظامها هناك حتى تذوب هي الأخرى. لن يحدثها أحد في القبر، ولن تحيا من جديد لتعاقب أو تكافأ. هكذا كان الحال منذ ملايين السنين وهكذا سيبقى».

الصديق

«أصدقاؤك هؤلاء مثل قلتهم». قال أبو محمد لولده محاولاً ضبط نغمته حتى لا يجرح شعور وحيده. لم تكن هذه المرة الأولى التي يُشعر بها المختار ابنه بعدمية أصحابه، وفي كل مرة يدافع الابن عن خياره ويدعي أنهم أخلاء أوفياء؛ فلا يجد الأب مناصاً من السكوت. لكنه قرر أن يلقن ولده درساً يفيده في حياته. ذات صباح ذهب المختار إلى الجزار وطلب منه ذبح خروف ووضعه في كيس قبل أن ينضب دمه، ثم عاد مع أحد الحمالين بالذبيحة في الكيس المشرب بالدم إلى بيته وركنه خلف باب البيت.

«خير إن شاء الله يا والدي؟» قال محمد للمختار حين عاد قبل المغرب إلى المنزل وشاهد والده يجلس على كرسي ويضع يده على خده وتشع الكآبة من وجهه.

«من أين يأتي الخير..» أجاب المختار متصنعاً الزعل الدفين؛ فألح ابنه بالسؤال لمعرفة سر والده وليخفف عنه. «حين توجهت اليوم إلى السوق احتك بي إنسان حقير وأغضبني إلى درجة أنني سحبت

الشبرية من حزامي وغرستها في قلبه؛ فخر صريعاً، وأصبحت مضطراً لوضعه في كيس حتى لا ينكشف أمري، وحملته إلى هنا وها هو خلف الباب». نظر الابن حيث أشار المختار؛ فشاهد الكيس الملطخ بالدماء.

«لا تقلق يا أبي، سأذهب إلى بعض أصدقائي الآن وأحضر بعضهم ليساعدوني في حمل الكيس ودفنه مع حلول الظلام، ويا دار ما دخلك شر». كان الابن يعرف أن رجال الحارة وبعض أصدقاء والده يتوافدون كل ليلة للسهر عند المختار، وبالتالي يجب نقل الجثة قبل وصولهم. هكذا انطلق محمد إلى أقرب الأصدقاء من منزلهم وطرق الباب؛ فخرج صديقه أنور مهللاً مرحباً وطلب من محمد الدخول لكن هذا كان في عجلة من أمره وأخبر أنور بما حدث وبالمطلوب.

«أنت مجنون ابن مجرم! كيف أبوك يقتل رجلاً وأنت تريد أن تلبسني جريمة! أنت صديقي ولن أبلغ الشرطة عن أبيك، ولكن أكد لي أنك لن تخبر أي إنسان أنك أخبرتني..» فهم محمد الرسالة وترك أنور واتجه إلى الصديق التالي فسمع منه كلاماً مشابهاً، وقال الصديق الثالث ما معناه: أبوك يقتل القتيل وأنا أدفنه لكم، ثم أغلق الباب في وجه صديقه.

عاد محمد إلى البيت مطأطئ الرأس إذ تخوف من نشر الخبر عند بقية الأصدقاء فلا يساعده أحد ويصبح والده عرضة للوشاية. وجد المختار جالساً كما تركه؛ فأخبره بما سمع من الأصدقاء وتذكر حينذاك كل ما سمعه من نقد المختار لأصدقائه. «أنت تعرف منزل صديقي أبي عبد الله..»

«نعم نعم» قاطع محمد حديث والده لاستعجال أي إجراء يفكر فيه المختار؛ فأبو عبد الله هذا من أقدم أصدقاء الوالد ولا يغيب عن الجلسات المسائية إلا نادراً ولظروف قاهرة. «.. اذهب إلى بيته وأخبره بالأمر». قبل أن يكمل المختار حديثه كان محمد قد اجتاز الباب حيث تقبع الجثة، وركض حتى وصل إلى بيت أبي عبدالله؛ فأخبره بالأمر وهو يلهث. هدأ الرجل من روع ابن صديقه وطلب منه الانتظار ريثما يغير ملابسه بأخرى ملائمة لما ينتظره من عمل.

«يعطيك العافية يا مختار، ولا تهمل أي هم». قال أبو عبد الله لصديقه مربتاً كتفه ثم قبل رأسه وأخبره أن كل شيء سيكون على مايرام. طلب الصديق من محمد أن يضع الجثة على ظهره ويسندها أثناء المسير واتجه إلى مجرى ماء على مسافة من القرية. أنزل الجثة عن ظهره وحفر في طرف الماء بعمق يكفي لمواراة الكيس ومحتواه وأهال عليه الحجارة؛ فعادت المياه إلى مجاريها وعاد الاثنان إلى المختار يبشرانه بإتمام المهمة.

ابتعد محمد عن أصدقائه وأكثر من مرافقة والده وحضور الجلسات المسائية حتى جاء ذلك اليوم الذي أظهر فيه المختار غضباً على ما يقوله صديقه أبو عبد الله في شأن ليس بذي أهمية. حاول الصديق محاجة المختار؛ فأسمعه هذا سيلاً من الشتائم النابية أمام الحضور؛ فازداد استغراب محمد من تصرف والده المشين أمام الناس. «يا مختار لماذا هذه الإهانة أنا لم أخطئ بما يستدعي قولك؟»

تسائل أبو عبد الله أمام المستمعين، فما كان من المختار إلا النفخ في كفه وتسديد لطمة على خد صديقه.

هنا وقف أبو عبد الله غاضباً مدافعاً عن كرامته وقال: «اسمع يا مختار، أنت أهنت كرامتي أمام الناس بغير حق، ولكني والله العظيم ومهما أغضبتني لن أقول عن الشيء الذي تجري من فوقه المياه». هنا نظر المختار إلى ولده وكأنما يقول له هذا هو الصديق الصدوق، ثم انتصب واقفاً يقبل رأس صديقه ويطلب منه السماح وهمس له أنه سيشرح له الأمر لاحقاً.

الغنية

استقبلت عمها ببشاشة والتف أولادها من حوله يأخذون ويعطون الحنان، ويقفزون على الأرائك ويرتمون على سجاد الصالون. دخلت هي إلى المطبخ وأشعلت الغاز على درجة منخفضة حتى لا تغلي المياه بسرعة وريثما يقرر عمها إذا أراد شرب الشاي أو القهوة أو أحد أنواع الزهورات الكثيرة المتوافرة في خزائن مطبخها المصنوع من خشب البلوط. حملت من الثلاجة عصير مانجو، سكبت بعضه في كأس بلورية، حملتها على صينية فضية وقدمتها إلى عمها: «عندي عصائر أخرى، لكني أعرف أنك تحب المانجو والجوافة الحمراء».

«فعلاً حبيبتي، هو كما تقولين، المانجو لذيذة على الرغم من كثافة عصيرها وحلاوته». نظر إليها وأبدى إعجابه بملابسها الزاهية،

وأدار ناظريه في الصالون فإذا به نظيف مرتب وفي زاويته تلفزيون حديث ربما بحجم أربعين بوصة. «كيف حالك وصحتك وزوجك، وشغلك، ما شاء الله الأولاد يشعون صحة وبهاء». كان يعرف أنها وزوجها اشتريا هذا البيت بالتقسيط الشهري، ويجددان بعض الأثاث.

«الحمد لله عمي، كل شيء على ما يرام». سكتت، وعرف بالتجربة أن هناك ما يضايقها. خمن أنها تشعر بالضيق نتيجة لنقص السيولة، أو ربما نكد في العمل كونها تقضي أحياناً أطول من ثماني ساعات، حيث يكون أولادها في هذه الفترة في رعاية حضانة، إذ تودعهم إياها صباحاً وتستردهم بعد الظهر عندما تعود بسيارتها من العمل. «أعملك شاي أو قهوة سادة أو حلوة أو نسكافيه بالحليب» تبسم لها، فأكملت: « إن شاء الله مش مستعجل الآن وتتغدى معانا.. كل شيء متوفر في الثلاجة».

«خليها دون أكل؛ فأمامي موعد بعد ساعة وحبيت أشوفكم في الطريق. اعملي شاياً بالنعنع». قال لها ووقف معها وذهبا معاً إلى المطبخ. «إن شاء الله مش زوجك اللي مغلبك ومنكد عليكي؟» تبسمت نافية برأسها أن يكون زوجها السبب، وخطر لعمها فكرة يعزز بها اقتناعها بالرضى، لكن بعد أن تبث له شكواها. تحدثت عن ضيق اليد في تسديد الأقساط والمصاريف، وتعب العمل واستمرار التلميح هناك بالحد من الموظفين. «لكنكم تتدبرون مما يرزقكم الله، وما النكد إلا نتيجة لتراكمات نفسية وتخوف من المستقبل». وافقت على

ما قاله عمها وخرجا من المطبخ وجلسا حول طاولة السفرة حتى لا تقع حوادث بين الأطفال والشاي الساخن.

«تعرفين أنك تعيشين أفضل من أي ملك أو سلطان أو خليفة أو إمبراطور من أيام سيدنا آدم حتى ما قبل مائة عام فقط».

« أحسن من هارون الرشيد؟» سألت عمها وهي تضحك.

«أحسن من هارون، أنت تقصدين طبعاً أحسن من زبيدة. وضعك أحسن من كليهما؛ فأقله لا تقاسمين زوجك مع نساء أخريات مثل المسكينة زبيدة». ضحكا سويا وارتشف بعضاً من الشاي غير المُحلى إلا بالنعناع الطازج. «اختاري من تريدين من عظماء التاريخ وسأثبت لك أن حياتك الآن أفضل من حياتهم».

«أحسن من ملوك الأندلس؟ لقد طالعت عن البذخ الذي عاشوا فيه».

«كان بذخاً بمنظور ذلك الزمان. الخليفة الناصر، وهو الأشهر بين أمراء الأندلس والأكثر سطوة في زمانه وأخضع ملوك الفرنجة؛ فتتابعوا إلى بلاطه. وجدوا في مذكرات هذا الخليفة بعد موته أن الأيام السعيدة في حياته التي صفت له دون تكدير هي أربعة عشر يوماً سجلها بخط يده، في أي يوم وشهر وسنة كانت. بقية أيامه تعاسة وربما أشدها يوم ذبح ابنه وأخاه لأنهما تآمرا عليه. الخليفة لم يكن عنده خيارات شرب الأشياء أو استعمال الأدوات المتوافرة في مطبخك. كانت ملاعقه خشبية، ويطبخون له على الحطب. في زمانه اخترعوا مواسير الرصاص

وقنوات المياه الجارية، ولكنها ليست بنقاء مياه صنبورك، ولم يكن يحلم بمرحاض وشطاف مثل ما في حمامكم. عندما كان يزور مدينة الزهراء، قيد الإنشاء آنذاك، كان عليه الركوب بضع ساعات ليقطع عشرة كيلومترات عن قرطبة، وأنت تجوبين بلاداً بسيارتك في زمن سيعتبره الخليفة كلمح البصر.. أما الأخبار؛ فكانت تصله عبر إشارات الدخان أو يحملها الخيالة لأسابيع. أنت يصلك الخبر مباشرة بالصوت والصورة عبر المحيطات، وبدل مهرج أو اثنين في بلاط الخليفة لديك التلفزيون..» ارتفعت ضحكاتها وقد استوعبت مراد عمها. «أتعرفين أن المنصور، وهو الحاجب الذي استولى على قيادة الأندلس من حفيد الخليفة الناصر، كان أثناء الغزوات يُحمل على نعش خشبي لمعاناة قدميه من مرض النقرس، وكان يتمنى أن يتنازل عن الحكم ويصبح مثل أحد العبيد الذين يحملونه في مقابل الشفاء من ألم النقرس.. الآن نتناول حبة دواء يومياً تجنبنا معاناة هذا المرض». نظر إليها فاتسعت ابتسامتها وهجم عليه صغارها.

النصاب

بدأت القصة عندما اتصل مدير شركة القدس مع أبي صباح يمتدح طعم زيته الذي تذوقه لدى صديق اشترى من ذلك الزيت، وسأل المدير إذا كان لدى أبي صباح المزيد فإنه سيشتري خمسين تنكة بسعر ثمانين ديناراً للواحدة وهو سعر مناسب للطرفين. طمأنه أبو صباح أن الكمية

تجهز في العصرة التالية وسيبقيه على اتصال. وكون ثلث زيتون أبي صباح لا يكفي لإنتاج خمسين تنكة أخبر المشرف على الأرض الذي يأخذ ثلثي المحصول مقابل ثلث لأبي صباح الذي عليه فرط الزيتون مع عائلته وعماله.

اتصل المشرف برقم المدير مراراً فلم يرد عليه، ثم اتصل أبو صباح بالرقم فلم يستجب له؛ فقرر الأخير عدم الانخراط أكثر في هذه القصة. بعد ساعات اتصل المدير برقم المشرف واعتذر عن عدم الرد كون ابنته الصغيرة جرحت وتوجب أخذها إلى المستشفى وأعطى المشرف رقمه الخاص المفتوح على الدوام، وطلب شراء ثلاثين تنكة زيت من العصرة التالية، ثم عاد واتصل مجدداً وزاد الكمية إلى خمسين سيأخذ الموظفون ثلاثين وسيوزع لله العشرين الأخرى.

في المساء تم عصر الكمية واتصل المشرف بمدير شركة القدس واتفقا على اللقاء في جنوب العاصمة حيث الشركة وعلى الدفع النقدي مقابل الزيت بالسعر المتفق عليه. في الصباح انطلقت سيارتا بك أب في كل منهما نصف الكمية إلى الدوار الشهير في جنوب العاصمة حيث منطقة كارجات وفوضى. تواصل الطرفان وقال المدير إنه من الأفضل الانتظار عند الدوار لأن موقع الشركة يصعب العثور عليه بالوصف رغم أنه بالقرب من شركة مرسيدس، وأن شاباً قد أرسل إلى الدوار يحمل المبلغ المطلوب وسيدلهما على مخزن الشركة. كان صاحب الزيتون والزيت على تواصل شبه دائم مع المشرف يأخذ منه كل التفاصيل.

مرت دورية شرطة بالمنتظرين وتم إخبارهم أن عجلات البيك أب بحاجة لتغيير وكذلك الزجاج المشعور، ثم استفسر ضابط الشرطة عن سعر الزيت بعد أن لحس ما كان على التنك، وأعطوا المشرف هواتفهم ليدبر لهم زيتاً ولكن بسعر أقل من ثمانين، ثم انطلقوا.

وصلت هذه التفاصيل لصاحب الزيت الذي عرف أيضاً أن الشاب الذي يحمل النقود قد تأخر ربع ساعة للآن. «عندما يصلك الشاب لا تتحرك خلفه إلا بعد التواصل معي، واتصل الآن معهم لمعرفة متى سيحضر الشاب». لقد توغوش صاحب الزيت وخطر له فجأة أن الأمر كله نصب واحتيال وأن البضاعة والسيارتين والرجلين في خطر.. سيقودهما الشاب حيث ينتظر آخرون من الزعران؛ فيأخذون الجمل بما حمل وسيأخذ المشرف ورفيقه كمية من الضرب بل قد يقتلان إذا صعدا في المقاومة.

«قال المدير إن زحمة السير قد أخرت الشاب وأنه سيكون عندنا بعد خمس دقائق». أخبر المشرف صاحب الزيت الذي طلب منه الانسحاب فوراً، وإذا اتصل به المدير يخبره أنه تحرك عائداً ويطالبه باللقاء في موقف السيارات لينقل الزيت إلى سيارة أخرى بعد دفع الثمن. كان صاحب الزيت متيقناً أن المدير لن يتصل، وعلى الأرجح أن السيارتين كانتا تحت الرقابة منذ وصولهما إلى الدوار، وحين توقفت الشرطة وتم تبادل أرقام الهواتف توجس المراقبون أنهم ضحايا فخ أمني.. وبالفعل لم يتصل المدير النصاب، ولم يرد بعد ذلك على المكالمات.

الفطرة المعطوبة

انطلق بسيارته إلى العاصمة عبر طريق يخترق قريتين هرباً من جنون القيادة على الطريق السريع. بجانب محطة مياه اعترضت الطريق حفرة تكونت من التسرب طويل المدى، ويبدو أن فاعل خير قد ملأ الحفرة بالطين لتخفيف الصدمة، لكن الأمر تحول إلى وحل في الحفرة؛ فتوجب عليه القيادة ببطء لمسافة طويلة حتى لا ترشق العجلات الطين أسفل السيارة. وصل إلى القرية؛ فإذا بأولاد يلعبون كرة القدم أمام مدرستهم. انقسموا فريقين عبر الشارع، وخمن أنهم أولاد حرام.

تحرك ببطء وهو ينظر إلى الولد الذي يثبت الكرة تحت قدمه، وفي اللحظة المناسبة سدد الولد الكرة فإذا بها ترتطم بباب السيارة. نزل ناهراً الأولاد؛ فحضر بعضهم ومسحوا الوسخ من آثار الكرة لكن الباب لم يعد كما كان. واصل القيادة وهو يلعن المدارس والمدرسين والمسؤولين والآباء والأمهات. وصل إلى القرية الثانية حيث يسير السكان في العادة وسط الشارع. انتظر خلف إحدى سيارتين متقابلتين توقفتا ريثما ينتهي سائقاهما من حديث بدا أنه سيطول. بعد دقيقتين ضغط على بوق سيارته فأخرج السائق الذي أمامه يده من النافذة مشيراً إليه بالصبر؛ فصبر وهو يتذكر حياة الفلاحين في القرى قبل عقود، حيث يوقف الناس حميرهم ويتحدثون في منتصف الطريق. انتهى المؤتمر

وتحركت السيارة التي أمامه وأشار له السائق الذي يقابله بالشكر فرد تحيته. لم يتجاوز السيارة التي أمامه وأخذ يراقب الحركة في الشارع. لفت انتباهه كثرة المارة الذين يرمون بقايا علب المشروبات وأوراقاً وأغلفة في الشارع بينما عامل نظافة مجتهد يكنس أطراف الشارع بقطعة كرتون ويحمل ما يجمعه إلى الحاوية. أخرج يده من النافذة وأسمع الزبال تحية حارة؛ فاتسعت ابتسامة الأخير.

نظر إلى المرآة الجانبية ليدخل من الطريق الفرعي إلى الرئيس فإذا بسيارة مسرعة على الجانب الأيمن تعطي إنذارات ضوئية وصوتية تحذره من الاستمرار، لكنه واصل المسير وأجبر السيارة المهاجمة على أخذ المسرب الأيسر الذي كان فارغاً من السيارات وهو المسرب المحبب أصلاً للسائقين في البلد. شاهد محطة وقود؛ فنظر إلى مؤشر سيارته وقرر الانعطاف يميناً. قبل أن يخبر العامل بنوع وكمية الوقود وقف بائع مناديل أمام النافذة؛ فأخبره أن الرزمة الورقية من المرة السابقة ما زالت على حالها. أطفأ محرك السيارة وأخبر العامل بما يريد وبعد وهلة نزل لينقده ثمن الوقود؛ فوضع البائع السيجارة المشتعلة في فمه وتسلم النقود مستعملاً كلتا يديه.

انطلق بالسيارة، وقبل الوصول إلى الشارع الرئيس توقفت سيارة أمامه، فُتح باب السائق وأنزلت يده كوب قهوة ورقياً على الأرض، أقفل الباب وواصلت السيارتان طريقهما. مع بداية صعود طويل في الطريق تتحول المسارب من اثنين إلى ثلاثة. التزم المسرب الأيمن

وصار يراقب بك آب احتل المسرب الأيسر المخصص للتجاوز. سيارة مرسيدس مندفعة على المسرب نفسه تعطي إشارات للبك آب لينحاز إلى اليمين، لكن هذا صمد في موقعه وأخذت الغازات السوداء تنطلق بكثافة متزايدة من مؤخرته. سيارة أيكيا افانطي تجاوزت كليهما على المسرب الأوسط، سائق المرسيدس أصر على تأديب سائق البك آب وبدأ يقترب منه وهو يطلق البوق، لكن هذا أعطاه إذناً من طين والأخرى من عجين. تجاوزت المرسيدس من المسرب الأيمن بسرعة وانحاز فوراً إلى المسرب الأيسر وأبطأ من سيره ليجبر البك آب خلفه على الانحياز إلى اليمين أو إبطاء سيره في منتصف الطلوع. سيارات أخرى أصبحت تطلق أبواقها خلف البك آب، وكثر المتجاوزون في المسرب الأوسط. انحاز البك آب إلى اليمين بعد أن فقد عزمه على السير؛ فانطلقت المرسيدس تسابق الريح.

مدخل العاصمة الشمالي يدخلك في نفق لا ترى منه سوى كتلة ظلام ولا تعرف إذا كان المرور متوقفاً أو هناك سيارة معطلة في النفق. توكل على الله كالعادة وانطلق إلى مدخل النفق بسرعة ستين كيلو متراً في الساعة. حمد الله عندما اتضحت الرؤية بعد اقتحام الظلام. على الطرف الآخر من النفق توجد إشارة مرور تنظم ثلاثة مسارب، الأيسر مخصص لمن يتجهون بزاوية تسعين درجة لليسار ومن يريدون الاستدارة الكاملة، المسربان الآخران لمواصلة المسير إلى الأمام. اتضح له وجود ستة صفوف من السيارات بدل ثلاثة، وخطرت له

فكرة لو صنع الصينيون سيارات بأجسام متزلجة منضغطة كأجسام الصراصير. التزم مسرب اليسار ووقف ينتظر الإشارة. نزل السائق من السيارة التي أمامه وذهب إلى الجزيرة وقطف آخر وردة جوري على شجرة متهالكة من العطش، وقدمها من النافذة الخلفية لأنثى معه في السيارة وعاد لمقوده. على الفور طارت الوردة مطرودة من الشباك، نزل مجدداً وتناولها وتفقدها ثم ألقى بها حيث أمها الشجرة. يبدو أن البلدية لم ترش الأشجار وبالتالي عشش جعران في الجورية وربما لامس أنف الجميلة. اخضرت الإشارة وتحرك يساراً بزاوية تسعين درجة، لكن أحدهم من المسرب المجاور استدار معه ويريد الالتفاف بزاوية مائة وثمانين درجة. أصابته نوبة غضب وعناد وقرر الاستمرار في المسير تاركا المخالف على يمينه بينما انطلقت الأبواق من كل اتجاه.

دخل إلى زحمة المدينة حيث بائع موز وفواكه يحتل المسرب الأيمن، وزبون ترك سيارته بجانب عربة الفواكه ونزل يتبضع ، بينما السيارات من خلفه أصبحت مضطرة لانتهاز الفرص والتجاوز على المسرب المقابل لتواصل المسير. تحركت السيارات بسلاسة بعد ذلك وبلغت السرعة حوالي أربعين كيلومتراً؛ فجأة ألقيت من السيارة التي أمامه علبة بيبسي، قفزت وتدحرجت واستقرت تحت عجلاته. أطلق بوقه محتجاً؛ فخرجت يد من السيارة الأمامية رافعة الأصبع الأوسط. ضغط على البوق مرتين ثم تشعبت الطرق بينهما بسلام. منذ اجتيازه

حفرة الماء المطينة بعد الانطلاق من البيت حتى الإشارة له بالأصبع الأوسط وهو يحاول ترجمة كلمة commen sense التي يفهم معناها ويطبق محتواها كل إنسان تقريباً في العالم الغربي، لكنها لا تعني أي شيء للإنسان العربي، إذ لا رديف دارجاً لها. وصل إلى غايته؛ فتوقف ووضع المصطلح في مترجم جوجل من الإنجليزي إلى العربي؛ فكانت النتيجة: الفطرة السليمة. ماذا لو كان العربي والمسلم بفطرة سليمة؟ هل سيكون بمستوى رقي الإنسان الغربي الذي تعلم تنمية هذه الفطرة؟ .. كان يتساءل ولا يجيب. ما هو مصير الفطرة السليمة في الغرب لو نجح الأجداد في فتح الضفة الشمالية للبحر المتوسط كما فتحوا ضفتيه الشرقية والجنوبية؟ هل كان كولمبوس سيكتشف القارة الأمريكية، وهل سنكون وصلنا في الصناعة إلى ما وصل إليه الغرب.. سيارات وطائرات وكل ما ينتهي بحرف التاء، أم سيكون العالم الآن من مستعملي الدواب والكارات؟ واللاجئون المساكين ضحايا الحروب الأهلية والصراعات الطائفية في الدول العربية والإسلامية، أين كانوا سيذهبون؟ أفاق من تخيلاته على بوق سيارة يريد صاحبها معرفة إذا كان سيغادر المكان ليأخذ موقفه. أجابه بالنفي وهو يحمد ربه أنه أوصله بسلام، ودعاه أن يعيده بأمان.

الحب

«عمو، هل كل الرجال مخادعون مثله؟» لم يعثر على جواب فوري صادق حين طرحت عليه هذا السؤال في منتصف محادثة هاتفية. كانت تشتكي له من صاحبها الذي خدعها وتزوج أخرى. لقد تعرف إلى البنت عبر صديقها، وهي الآن تستنجد به ليعمل أي شيء في مصلحتها ولا تريد الاقتناع باستحالة المهمة. دار في ذهنه أن يصدمها بحقيقة أن صاحبها لا يريدها بأية حال، أو بالاعتراف لها أنه قد كتب كتابه. «هل السؤال صعب ويحتاج منك إلى كل هذا الوقت للتفكير؟» سألته مجدداً بعد صمته التأملي.

«إنه أصعب مما تتصورين، هذا لو طلبت إجابة صادقة ..» تروى وظن أن هذه الإجابة تدين كل الرجال، وأكمل: «.. الإنسان سر غامض وحتى من يجيب عن ذاته فقط؛ فالإجابة مقرونة بزمن وظرف معين».

«لم أفهمك عمو، هل يمكن أن يكون الرجل مخلصاً في ظرف معين وخائن في ظرف آخر؟»

«أنت تتحدثين وكأن كل الإناث مخلصات صادقات لأصدقائهن وأزواجهن، بينما الظن السائد بين الرجال أنكن أميل للخداع، ولذلك يحجبونكن ويحتجزونكن في البيوت وتُراقبن أينما ذهبتن.. أعرف أن

هذا تعميم ولكن الكثير من الوقائع ونسب وأسباب الطلاق تؤكد هذا الحال». ساد الصمت بينهما ثواني حتى تشكك أنها على الخط فقال: آلو!

«أنا معك عمو.. في خيانة بين بعض المحجبات والمتكشفات، لكني أظن أن كل الرجال قابلون للخيانة إذا أتيحت لهم الفرصة الآمنة، وهذا لا ينطبق على الإناث».

«لو كان رأيك صائباً؛ فربما للأمر علاقة بالطبيعة الذكورية حيث يريد الذكر نشر جيناته بأوسع قدر..» صمت وهلة ثم أضاف: «لكن الإناث لديهن الغرائز والرغبة نفسها في إنجاب الأطفال من أفضل الذكور لضمان جودة الإنتاج. ما يردع الذكر والأنثى عن الانطلاق لتلبية نداء الغرائز هو ما نسميه الأخلاق، فإذا انعدمت أو تناقصت يتطلع الذكر أو الأنثى إلى الاستجابة. هذا الأمر لا يقتصر على النساء أو الرجال».

«لو أطلقنا شاباً جميلاً ليغري الإناث فمن المؤكد أن الاستجابة لن تكون كاملة مئة بالمئة وسيلاقي الكثير من الرفض، لكن لو فعلنا العكس فإن الفتاة الجميلة ستغوي أي رجل كان، سواء كان شاباً أو عجوزاً، مثقفاً أو أمياً، متديناً أو ملحداً، طالما شعر الرجل بالأمان وأيقن أن الفتاة لن تفضح أمره ولن تبتزه ولن تكلفه الجهد أو المال؛ فإنه سينكحها فوراً، أو يمارس معها ما تريده هي وتسمح به أو تطلب منه فعله». فكر قليلاً في ما سمع منها، ومر في خياله بعض الذكريات

المؤيدة والأخرى الناقضة لما تقول هذه الفتاة، التي وقعت في فخ مجاراة صديقها وهي الآن تتحمل عقبات صدمة الانفصال وتطلعه إلى الزواج بفتاة أخرى لا يعرف الكثير عن ماضيها، بل هي تعيش في بلد آخر.

«لو صدقت مقولتك، وهي غير مجربة؛ فهذا يعني صحة ما يقوله رجال الدين نقلاً عن تعاليمهم وتفسيراتهم، بأنكن شياطين تغرين الورعين، أو كما قال مرشح الرئاسة الأميركية عن منافسته، بأنها شيطانة تتحالف مع الشياطين». كان يشعر باليأس والحقد الذي ألم بها من هذه التجربة، وندمها على هدر فترة الصداقة واستغلالها العاطفي، لذلك لم يخبرها أن صاحبها أصبح بحكم المتزوج، وكان يحادثها في عموميات العلاقات العاطفية البشرية حتى لا تطالبه بعمل شيء لا يستطيع فعله. «أنت تعرفين أن الإناث في العالم الغربي يعتبرن ما مررت به تجربة يتوجب على كل فتاة أن تمر بها قبل الزواج، ربما تصادق مرة أو خمس مرات، ومن لا تصادق وتتزوج فوراً من أول عابر سبيل تعتبر ناقصة تجربة، والرجال هناك لا يشترطون أن تكون عرائسهم عذارى، وبالتالي ما مررت أنت به هو شيء إيجابي في معظم بلاد العالم، ويكفيك التجربة النفسية والآراء التي أكتسبتها وتذكرينها الآن ..»

«ما يزعجني أنه وعدني بالزواج وتملص لاحقاً بحجة أنه لا يريد الزواج، وها هو عازم على الزواج بفتاة أظن أنه لا يعرف الكثير عنها».

اندفعت كلماتها بقوة؛ فصمت حتى سمع نهنهة بكاء على الجانب الآخر من الخط.

«مشكلتنا في العالم العربي والإسلامي أننا تراجعنا للوراء في قضية الجنس التي هي قضية حب، وهي أول متطلبات الحياة، ونعيش زمناً أشبه بما مر به الأوروبيون منذ قرون حين كانوا يتهمون الجميلات العاصيات جنسياً بالسحر والشعوذة لأنهن رفضن طلبات الكهنة والأغنياء. نحن العرب كنا قبل وبعيد الإسلام منفتحين جنسياً، ومشكلاتنا بدأت مع تقييد الحرية العاطفية بقوانين ومسميات أخلاقية..» لاحظ أنها هدأت قليلاً وانشدت للحديث الذي يعطيها براءة؛ فأكمل سائلاً: «هل تعرفين كم رديفاً لكلمة نكاح في اللغة العربية؟»

«لا أدري، عشرة مثلاً»

«١٤٨٠ كلمة تعني النكاح، مما يدل على كثرة الاستعمال وتنوعه وبالتالي تماشيه مع طبائع الناس قبل أن يحتجزوا الحب في قبر عميق.. وهناك ٢٣٨ اسماً للقضيب و ٩٩ لما يعادله عند الأنثى مع أسماء عدة لما هو خارج الرحم و ٣٠ اسماً للمؤخرة وعشرات الصفات للذكر وللأنثى أثناء الجماع، وكل ذلك كان طبيعياً ومستعملاً في اللغة اليومية دون خجل ..»

« نعم نعم.. وشهوة الرجال العرب الآن ناتجة عن الحرمان والتحريم بأنواعه، ولكن متى حدث التغيير السلبي هذا؟»

«على الأرجح أثناء الدولة العباسية ..» قال لها وهو يبحث عن مقتطف طالعه أخيراً للجاحظ الذي توفي عام ٢٥٥ للهجرة الموافق ٨٦٨ للميلاد. «.. وإليك ما قاله الجاحظ بهذا الصدد: (وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحر والأسر والنيك ارتدع وأظهر التقزز، واستعمل باب التورع. وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع. ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل، ونذالة متمكنة.. وبعد، فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعملها أهل اللغة، وكان الرأي أن يلفظ بها، لم يكن لأول كونها معنى إلا على وجه الخطأ، ولكان من الحزم والصون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها). هذا يشير إلى بداية التحجر والنفاق الذي لاحظه هذا الأديب، وهو ما أصبح يؤثر في مجريات الحياة ويتحكم في الناس وهم لا يعلمون». لاحظ هدوءها، وقبل أن تعيده إلى الشكوى من صاحبها وتمنيها تدخله، أخبرها أن بطارية الهاتف تكاد تفرغ، ووعدها أن يلتقيا قريباً ليتناقشا في الأمر.. لم تحتج واستسلمت للانتظار.

الجنس والحلم

كانت هادئة وديعة وفي عينيها مسحة حزن. تأملها وهما يستعدان للجلوس في المقهى وشعر بتردد في إبلاغها ما عزم عليه. تخوف أن تنفجر بالبكاء، وسألها إذا أرادت شيئاً مع القهوة، وشجعها على تناول

جاتوه ولكنها اكتفت بالكابتشينو. «أنت إنسانة طيبة وجميلة طبعاً، ولست مثل أنواع أخرى من الإناث الشرسات، وتستحقين كل خير». أراد أن يشجعها وينشط رباطة جأشها تمهيداً لما أصبح لا مفر من إبلاغها إياه.

«شكراً عمو، وبصراحة أنا أعتبر نفسي مثل ابنتك ومستعدة للتجاوب معك». اطمأن لكلماتها، فقد أبعدت شكوك الظن عن لقائهما هذا.

«تذكرين أنني قد أخبرتك سابقاً برأيي شخصي، بأنه من حسن الحظ انتهاء علاقتك مع صاحبنا الآن قبل أن تتم خطبة متسرعة أو زواج بينكما، فأنت الآن على بر الأمان، وأي أسى أو ضيق تشعرين به الآن أقل بكثير مما لو تم الفراق بعد زواج ..»

«ولكني أحبه ..» قاطع همسها بإشارة من يده فعادت للإنصات.

«أعرف أنك تحبينه، وقد أبلغته قبل أسابيع أن الرجل المحظوظ هو من يجد الأنثى التي تحبه وتراه في أحلامها ويتزوجها، بدل أن يتزوج مجهولة نسبياً على أمل أن ينمو الحب بينهما لاحقاً..»

«أراه في أحلامي بالفعل ولكنه لا يستحق حبي له والعاطفة التي منحته إياها ..» اطمأن أنها تتحدث عنه بصيغة الماضي وخمن أن حدسها الأنثوي أخبرها أنه قد فات الأوان للإصلاح بينهما وأن مهمته بالإشهار غدت سهلة، لكنها أكملت: «.. أنا مستعدة للتضحية وتحمله ..»

«لست بحاجة لأي تضحية من أجله؛ فقد عقد قرانه بالفعل على الفتاة الأخرى ..» اتسعت حدقاتها وتبللت جفونها؛ فواصل كلامه ليجمد مشاعرها: «أنه لا يستحقك أبداً فأنت طيبة محترمة ولست مثل بعض الإناث المسعورات اللواتي يتحتم على الناس إما الهروب منهن أو طخهن». أراد من حديثه هذا ضمان ردة فعل عاقلة، وأن لا يدفعها جنون الحب إلى زيارة بيته وإبلاغ والديه اللذين لا يعرفان أي شيء عن هذه العلاقة التي دامت حوالي سنتين. انهمرت دموعها بصمت؛ فقرب إليها علبة المحارم.. «إنه بالفعل لا يستحق دموعك، وعليك أن تتخلصي من ذكراه وتصفي ذهنك تدريجاً ولا تجعليه يسيطر على أحلام اليقظة أو النوم ..» تنهد وربت يدها وأكمل وهو يشعر بعدمية حديثه: «رب ضارة نافعة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

«اللئيم الأناني ..» سحبت محرمة أخرى لمسح أنفها ونظرت إلى جليسها متجاهلة من حولها في المقهى والذين يمكنهم بسهولة سماعها: «.. أنا زعلانة على حالي وندمانة على الوقت الذي ضيعته معه .. الطماع الأناني ..» أخذت بالبكاء دون توقف عن الحديث ولم يرغب هو في كبت عواطفها: «.. أنا حالياً بكرهوا وما اتمنالوا الخير أبداً.. كنا رفقاء في كل مشوار وطلع بستغلني، الحيوان..» احمرت عيناها وانتفخت شفتاها الرقيقتان وأصاب صدرها بعض البلل الأسود من الدموع التي مرت بكحلتها. يبدو أنها كانت تعرف بالخبر مسبقاً وانتظرت التأكيد لتعلن الكراهية والندم؛ فالقرارات لا تتخذ فورياً بل تمر بمراحل عدة

في الدماغ آخرها إعلان القرار، ورغم الشعور بأن القرار اُتخذ فورياً؛ فالحقيقة غير ذلك؛ فهذا في الواقع وهم دماغي لأن الأمر مر بمراحل سبقت ذلك، والإنسان لا يقود جسده، كما يظن، ولكنه يراقبه.

«لا أريد للغضب أن يتحكم في حواسك، الأفضل هو محو ذكراه من ذهنك حتى لا تقعي فريسة لأحلام اليقظة وكوابيس النوم وخطط الانتقام الجهنمي.. لن يكون هذا سهلاً ولكنه الأسلوب الوحيد..» صمت وتأمل ردة فعلها عبر قسمات وجهها؛ فلاحظ الاهتمام بما تسمعه وتوقع أنه أصاب عصباً حساساً؛ فأكمل: «لو ملكنا القدرة على مسح ما نريد من الذهن بسرعة لكانت حياتنا أفضل بكثير ..» أيدته بإيحاء من رأسها وهي تنظف كحلتها بمناديل. «لكننا في الواقع أعجز عن التحكم في أحلامنا، وبالكاد نتخلص من أحلام اليقظة».

«يا ريت عمو لو الواحد تحكم في موضوع الحلم؛ فهذا قد يعني سعادة لثلث اليوم أقله ويسهل تحملنا للثلثين الباقيين». انفرجت أساريرها قليلاً ورشفت من فنجان القهوة التي بردت منذ فترة، وأكملت: «زمان كنت أتحكم في موضوع الحلم الليلي، ولكن ليس في مساره، لكني فقدت الآن هذه الخاصية». تبسم لها ولم يخبرها أن للعمر أحكاماً خاصة حتى لا يذكرها أنها بلغت الثلاثين من العمر.

«في سن الصبا وقبل انتهاء المراهقة يشترك الجنسان في مواضيع محددة للحلم، الموضوع المشترك الأول هو الرغبة في الطيران، والثاني هو طبعاً الجنس..»

«صحيح، أنا شخصياً كنت أحلم أنني أرتفع عن الأرض وتفقد الجاذبية تأثيرها، وأحياناً أتحكم في اتجاه الطيران وأحياناً أخرى أفشل في ذلك بل كثيراً ما كان يصعب علي الهبوط على الأرض». صمتت وقد شعرت أنها ابتعدت عن الموضوع؛ فسألها إذا كانت تتمنى هذا الحلم قبل أن تنام؟» في الواقع لا، لكني كنت أحياناً أفكر في موضوع آخر قبل النوم ثم أكمله في الحلم ببعض الشيء من التحكم ..» نظرت إليه وخجلت عيناها قليلاً وطرحت عليه سؤالاً عن سبب اشتراك الناس في الصبا بحلم الطيران.

«ربما تكون أصولنا فضائية وبالتالي نحمل في جيناتنا خاصية الطيران التي نشعر بها كلنا في الصبا أثناء النوم ..» تبسمت وهي تستمع، وكانت تعرف أن أفكاره متحررة جداً. «.. هل لديك تفسير آخر لاشتراك الناس في كل مكان أثناء مرحلة معينة من العمر بهذا الحلم؟» نفت برأسها امتلاك أي تفسير، وارتاحت أساريره لانقيادها خارج إطار مأساتها، وبالتالي نجاح مهمته .. أو هكذا ظن.

سلطة الحب

«عمو رتب لي لقاء مع أمه أو والده». لقد تردد في الإجابة على الهاتف حين عرف أنها المتصلة لأن مشكلتها تجاوزت الحلول، ولكنه يشعر بالتعاطف معها، وها هي بعد السلام والقليل من الكلام تتحدث بأريحية وتطالبه بما لا يريد عمله.

«صادقته عامين ولم تتعرفي إلى والديه وتريدين مني الآن الجمع بينكما بعد أن تزوج رسمياً فتاة أخرى؟» أجابها بشيء من الشدة والتنصل من طلبها؛ فالأمر انتهى وأبلغها بذلك في لقاء سابق، وأي تدخل من ناحيته الآن سيفهم بشكل خاطئ من قبل أقاربه وأصدقائه، عائلة الشاب. «ألا تشعرين بالعطف والتضامن مع زوجته المستقبلية التي لا تعرف شيئاً عن تلك العلاقة بينكما ولا ذنب لها، وهي الآن على الأرجح في قمة السعادة التي شربتها أنت على مدار صداقتكم؟» أراد بتوجيه الحديث هكذا اكتساب تضامنها الأنثوي مع فتاة يفترض أن لا تتسبب بشقائها إذا فضحت الأمر.

«كان يرفض على الدوام أن يعرفني إلى والديه أو حتى مكان سكن عائلته، وأنا جاريته بذلك حتى لا يشعر أنني أضغط عليه للزواج. كان يدعي أن والديه محافظان وسيؤدي التعرف إليهما إلى تخريب علاقتي به..»

«يا عزيزتي أنت الآن تقرين أنك لم تضغطي عليه للزواج واقتنعت بسرية العلاقة بينكما، ولا أدري لماذا تريدين الآن اللقاء مع والديه بعد أن تزوج؟ بالتأكيد لن يقفا إلى جانبك، وهو لن يتراجع عن قراره تحت وطأة الضغط، والنتيجة المحتملة هي إتعاس العروس الغلبانة، وفضح العلاقة التي كانت بينكما وهذا لن يفيدك أيضاً. لا أريد لروح الانتقام التغلب على حلمك وتسامحك ومنطقيتك». صمت لحظات ولم ترد عليه عبر الهاتف؛ فعاد يذكرها بخصالها الحميدة وجمالها وثقافتها وأن

الزواج قسمة ونصيب، كما أن فترة صداقتهما كانت سعيدة، ونصحها بنسيانه والانتباه للفرص القادمة حتى لا تهدر الكثير من الوقت في شقاء وحسرة. «جمال الأنثى ينبع من داخلها، ولذلك يفترض أن تصفي روحك ليشرق وجهك وربنا يفتحها عليك ويرزقك أحسن منه». خفف من نبرة صوته وهو يكرر عليها فوات الأوان، ويذكرها بأن أية محاولة منها ستكون نتيجتها التخريب، وأنه بالطبع لن يشاركها في هذا المسعى.

«يمكن أن يكون أي واحد آخر أحسن منه، ولكننا كنا أسعد حبيبين ولم أتصور قط خيانته هذه، لأنه كان مطواعاً سعيداً ..» سكتت وكأنها لا تريد مدحه، وفكر هو أن يحول النقاش إلى جهة أخرى.

«ربما كان مطواعاً وربما كنت تسيطرين عليه ويطاوعك لينال رغباته، ولا أستغرب أن يكون العكس صحيحاً أيضاً، الفارق الآن أنه سيحقق رغباته مع الزوجة قريباً، وأنت فقدت السيطرة على رغباتك والسلطة عليه إلى حين أن تجدي عريس المستقبل وتصبحا مطاوعين أو متسلطين أحدكما على الآخر».

«عمو فهمت كلامك ولم أفهم مقصدك».

«مقصدي أن أوضح لك بعض مسببات الحزن والأسى الخفية. حين تنتهي علاقة ما بين ذكر وأنثى؛ فبالإضافة إلى زوال وافتقاد عوامل التعود والمساعدة والدعم المتبادل والمتعة، هناك ترابط بين فعل

الجنس وشعور التسلط من قبل طرف على الآخر وهذا أيضاً سيفتقد. حين يختل توازن التسلط الجنسي تتعرض العلاقة إلى خطر الانفصام. عندما تكون هذه العلاقة بين صديقين يمكن أن تنتهي بذهاب كل إلى حاله، وفي حالة الزوجين قد تأخذ العلاقة خطوطاً أخرى، مثل الفتور أو الطلاق أو الصراع الدائم أو الاعتداء الجسدي لفرض السلطة الجنسية، أو بالطبع تمنع الأنثى أو القيام بدورها بروتينية مملة كعمل انتقامي. المهم هنا أن صاحب السلطة الجسدية أو المعنوية أو المالية، غالباً، وليس دوماً، يكون هو المتسلط ..»

«لكن علاقتنا لم يكن بها تسلط جنسي وإنما تجانس وتفاهم ..»

«لو كانت كما تقولين لما انتهت كما نرى، هناك أحاسيس ربما غير ملموسة، وهنا الفارق بين علاقة الصداقة التي تنتهي بسلام نسبي ودون محاكم وخسائر، وبين علاقة الزواج بدون مقدمات صداقة، والتي قد تنتهي بتوافق أو بقبول تسلط طرف على الآخر أو بالفراق والطلاق.. الثابت أنه لا تجانس في الجنس، وصاحب السلطة يتسلط حتى ولو بدا للعامة والخاصة أليفاً. هذا ينطبق على الزعماء والسياسيين والأغنياء والشيوخ والقساوسة وكل أصحاب المناصب سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً».

«طبعاً في مجتمعنا العربي كل الذين ذكرتهم من الذكور، فلا توجد لدينا زعيمات أو مليونيرات، والإناث ينظر إليهن على الدوام كمفعول به مُتسلط عليه مركون جانباً مُطلق مضروب ..»

«لا تسرحي كثيراً في هذا الدور؛ فغالبية النساء العربيات يحكمن بأسلوب أو بآخر من خلف الستار».

«ربما أنت على صواب وهذا يعني أنني فشلت تماماً في السيطرة أو حتى التوجيه ويبدو أنني سأفشل أيضاً في الانتقام». أنهى المكالمة معها بعد إسماعها الكثير من الإطراء، ثم جلس يتأمل ويفكر في ما قاله لها حول التسلط الجنسي. دار في ذهنه وجود علاقة بين الجنس وكل من السعادة والشقاء، والإجرام والإرهاب وحتى الدكتاتورية وذلك على مر التاريخ.. تذكر ما طالعه من تقارير بعد اغتيال أسامة بن لادن؛ فقد عثروا في مقره على أفلام جنس. أما الجنس الحوري فهو في صميم التعبئة للإرهاب المتدين، وإرهابي مدينة نيس الذي دهس الناس بشاحنة وكذلك من سبقوه من إرهابيين في أوروبا كانت هواتفهم تعج بالجنس. تذكر أيضاً إشارة دراسات قديمة طالعها، أن رؤية هتلر في الشارع كانت تثير نساء وفتيات ألمانيا جنسياً كونه يملك السلطة المطلقة، والإناث يحببن القوي ويستجبن له بسهولة بل ويتمنينه.. كل زعيم عبر التاريخ استغل سلطته جنسياً سواء بالحلال أو بالحرام، إلا الزعماء الذين لديهم زوجات أقوى منهم أو لديهم قصور جنسي. هذا الحال كان قبل نشأة الديانات واستمر بعدها وما زال قائماً وسيبقى. مر في خياله ما عرفه عن قادة عرب معاصرين، وما طالعه عن حكام وملوك وسلاطين وخلفاء وأباطرة أكثروا جنسياً وتسلطوا ومارسوا ما يتمناه الأضعف منهم وما يشغل بال كل الحيوانات والبشر.

عقد النكاح

استمع إلى أصدقاء العريس وهم يسألونه عن استعداده للدخلة، شاركهم في المزاح وكان ربما الوحيد بينهم الذي يعرف أن العريس صاحب تجربة فعلية وليس بحاجة للنصائح. سرح بذهنه حول صديقة العريس المكلومة وفكر في العروس والبنات العربيات إجمالاً. شعر ببعض الأسى على الفتيات اللواتي يدخلن سن المراهقة ويتعمقن فيها وخصوصاً اللواتي يتجاوزن هذه المرحلة من دون أية تجربة جنسية أو زواج. «العربيات أشجع من غيرهن ويملكن قوة تحمل يقاومن بها نداء الطبيعة، سواء كان ذلك بفعل التربية والضغط والتهديد أو لأسباب أخرى؛ فالنتيجة أن صمودهن خارق للطبيعة ولا يتحمله أي ذكر». قال لذاته وهو يجاري حديث الشباب بإيماءات وابتسامات. لمعت في ذهنه خاطرة أن بعض الفتيات ربما يرفهن عن أنفسهن أيضاً مثل الشباب غير المتزوجين بممارسة العادة السرية، لكنه ظن أن من يمارسن ذلك قلة كما أنه لا يروي غليلهن ويشبع خيالهن مثل الجماع الحقيقي المشحون بالحب والعاطفة. ضمن هذه الرؤية فإن صديقة العريس قد نالت ما أرضاها أثناء فترة التحاب، لكنها الآن تعتقد أنها من أتعس المخلوقات. لو وضعت نفسها في مكان فتاة بين العشرين والثلاثين مثلاً ولا تملك تجربة جنسية، لانخفض شعورها بالتعاسة درجات.

في مكان آخر في بيت أهل العريس كانت العروس هي الأخرى تستمع لنصائح نسوية بعد أن تعرضت لجس نبض واستشعارهن أنها لن تردعهن لأن الظرف يتطلب من العروس ادعاء البراءة والجهل وقلة التجربة، حتى لو كانت أبحرت عبر الإنترنت في تفاصيل الأمر عبر الصوت والكلمة والصورة، أو سمعت من صديقة تزوجت قبلها كل ما تود سماعه. «مئات وربما آلاف الناس من الأقارب والجيران ومن صادفوا موكب العرس أصبحوا يعرفون أن العرسان سيمارسون الجنس الليلة، ولا يوجد من يشعر بالإحراج، بل العريس والعروس يتلقيان النصائح بهذا الصدد، وغداً سيبارك لهما الجمهور نجاح المهمة ..» قال لذاته وهو سارح عما حوله من أحاديث الشباب، «.. وكل ذلك بفضل كلمة من شيخ أو مأذون أو كاهن أو مسؤول مدني يمنحهما حق النكاح ويقدم لهما ورقة عقد يحدد شروط النكاح والمهر المقدم والمؤخر إذا فشلت التجربة». هذا إذاً ما يدفع البنات للبحث عن الزواج، وما يجعل غالبيتهن العظمى ترضى بأي زوج يتقدم لطلب يدها من أهلها حتى لو كانت لا تعرفه ناهيك عن حبها له؛ فالهدف الأول هو الانتقال من حنان الأهل إلى حضن زوج تأمل أن يعطيها ما كانت تحلم به طوال سنوات مراهقتها وشبابها، المرور بتجربة جنسية رسمية تسد حاجتها الجسدية ويرجى منها التطور لحياة زوجية عاطفية.

في مرحلة العزوبية تعطي الفتاة العربية حنانها لأطفال أقاربها ولأرحامها وأيضاً لكبار السن الذين يبدو عليهم الوقار، أما إذا أثنى

عليها شاب غريب ببعض الكلمات؛ فنصيبه التجاهل أو التوبيخ. في المقابل تُغرم البنات بمغنين أو ممثلين خصوصاً إذا كانوا وسيمين غير متزوجين ويحلمن بفرصة معهم ويُطربن لأغاني الغرام وكأنها تُغنى لهن خصوصاً، وتهطل دموعهن تعاطفاً مع تمثيلهم. هكذا تفرغ أغلبية بنات العرب طاقاتهن العاطفية قبل عقد الزواج، ويبقين محرومات علناً ورسمياً من أي تجارب عاطفية حقيقية، إلا بالطبع العلاقات السرية، لأن أي صداقة علنية بين شاب وفتاة ستعني ضياع فرصة الأنثى في الزواج، وذلك بعكس واقع الفتيات في العالم الغربي حيث تفخر الفتاة بكل علاقة حتى تجد من يناسبها للزواج. المشكلة العاطفية للعربية أسوأ من غيرها نظراً لطول الفترة المتوقع فيها العثور على الزوج.

بالنسبة للرجال المسلمين فهم يرجون بالعموم الزواج من صغيرات السن أسوة بالسلف الصالح، وهذا يجعل الفتاة تتوقع الزواج منذ انتظام دورتها الشهرية، وكلما امتد بها العمر تتأزم حياتها، ويتحول الأمر إلى شبه كارثي إذا بلغت أواسط العشرينيات من دون أن يطلبها ابن الحلال، وتتنفس الصعداء إذا جاء نصيبها قبل الثلاثين لأنها بعد هذه السن تصبح عاقراً في نظر الأزواج وبالتالي تضمحل فرصها ويصبح طموحها العثور على زوج كبير السن لا يريد الإنجاب. في هذا المطب العربي وقعت صديقة العريس، صاحبته سرياً عن الأهل فترة طويلة؛ فتركها في النهاية، وها هو يتزوج أخرى أصغر منها بينما هي لا

تستطيع حتى الاستمتاع بالذكريات لأنها ناقمة عليه وعلى ذاتها وأسفه على الفرص التي قد تكون ضاعت منها أثناء فترة صداقته.

الخيانة

«واحدة صبرت طوال تنقل زوجها بين سبع عشيقات، ثم انتقمت منه بالبحث عن عشيق لها حتى لا تشعر أنها خادمة في البيت يعود إليها منهكاً ليأكل وينام. لا تريد الشعور بسذاجتها وكبت عواطفها لو واصلت الخنوع، كما تقول». كانت تشرح له عن الحالات التي تمر عليها في العمل كمرشدة اجتماعية، أملاً أن يساعدها في فهم نفسية الرجال الكثر الذين يخونون، ثم أكملت قصة تلك الزوجة: «قالت لي إن قلبها يتلوى حين تفكر في خيانته لها، ويتألم أكثر حين اكتشفت أنها أصبحت خائنة أيضاً. تقول: ماذا أفعل؟ لقد لجأت إلى أقاربنا ليعيدوه إلى رشده، لكنهم وقفوا معه. بعضهن يقلن المهم أنه يعود كل ليلة وينام بينكم، وآخرون يرددون مقولات أنها نزوة وتزول، وطيش شباب، ويمكن أفعاله تعويض نقص. أليس الدين والأخلاق والعادات ضد مبدأ الخيانة الزوجية؟»

«نعم، بالضبط، الدين جرم الخيانة منعاً لاختلاط الأنساب، بينما الأخلاق والعادات تحرمها حتى لا تتحول الإناث كلهن إلى خائنات؛ فكل خائن يصنع خائنة معروفة له ومجهولة لغيره». أجاب عن تساؤلها وأضاف: «عموماً قضية الرغبة في الجنس قديمة منذ بداية الخليقة. أبناء

آدم قتل أحدهم الآخر ليفوز بالأخت الجميلة. وقبل آدم أو بعده كان الرجل يسحب الأنثى من شعرها..» ضحكا معاً وفسح لها في المجال لتواصل سرد قصصها قبل أن يعطيها الرأي حول نفسية الرجال الخونة.

«واحدة أخرى تحققت من خيانة زوجها، ناقشته على أمل أن يستقيم، واستعدت له بعمل ما يمكنها جنسياً ليكتفي بها، لكنه واصل غيه. أصبحت تراه فقط كمصدر للمال يصرف عليها والأولاد، وبحثت عن حب جديد وأصبحت متيمة وعاشقة من جديد لمن يثني عليها بكلمات ترطب الفؤاد. أحياناً تبحث عن بقية حب واحترام لزوجها فلا تعثر عليه حتى بمجهر. أحيانا أخرى ترى في حبها الجديد تعلقاً أرعن وإشباعاً لجوع، لكنه أيضاً شيء رزين بل وعفيف كونه أصبح حباً وليس إرضاء نزوات كما يفعل زوجها».

«الحب شيء والجنس شيء آخر تماماً. الأول يربط بين اثنين بشكل دائم سواء عبر الزواج أو الصداقة الجنسية، لكن الجنس الممارس مع الكثير يعود لأسباب فطرية عند أولئك الذين يمكنهم فعل الجنس دون خوف من أي رادع مادي أو معنوي أو قانوني». فهم من نظرتها إليه أنها لم تستوعب غايته من هذا الحديث؛ فأكمل: «غالبية الخونة من الرجال يفضلون الجنس، بينما غالبية الخائنات يفضلن الحب». لم تتغير ملامحها وهي منصتة؛ فأضاف: «أنت تعرفين عن الحالات التي تصلك ضمن مجال عملك، لكن الكثير من الناس لا مشكلات مشابهة لديهم، أو هم على قدرة لكبتها أو إخفائها. الرغبة في

الجنس فطرية كما قلت لك، والطيبون يمكنهم كبتها والاكتفاء بالقليل والمصرح به، بينما آخرون يتصرفون بغير ذلك. تعرفين أن السلطة تغري بالجنس، وفي عصر الإنترنت هناك بدائل للاستمتاع بالجنس ولو نظرياً وهذا من الأسباب الإضافية التي تدفع الذكر للبحث دوماً عن التغيير والتبديل. ربما هي خاصية ذكورية مرتبطة بالتسلط..» أرادت مقاطعته فأشار إليها بالانتظار وأكمل: «رؤساء أمريكا وعلى الرغم من موقعهم السياسي والاجتماعي لم يترددوا في استعمال سلطتهم.. جونسون مثلاً أعاد ترتيب غرف ضيوف البيت الأبيض لتتسع لشخص واحد فقط وأصبح يدعو النساء الجميلات وأزواجهن من المتملقين لحفلات والمبيت في البيت الأبيض.. في الليل يختار واحدة ويذهب إلى غرفتها ويخبرها أن تفسح في المجال في السرير لرئيسها. قصص آل كيندي مع النساء معروفة واتهموا بقتل مارلين مونرو. كلينتون فعلها وانكشف أمره وثبت في الرئاسة. وقبل هؤلاء تكرر الفعل مع ملوك وأباطرة وخلفاء؛ فكل من يستطيع فعلها، فعلها».

«قصدك باختصار، الخيانة شيء طبيعي عند الرجال؟» سألته بحزم.

«الخيانة الجنسية، نعم هي شيء فطري وتصبح طبيعية عند الذين عجزوا عن تطبيع أنفسهم مع الأخلاق والمبادئ المتفق عليها، وهي شيء طبيعي عند ضعاف النفوس إذا أتيحت لهم فرصة، وعند المتسلطين بالمال أو الجاه أو القيادة إذا لم يوجد من يردعهم».

«والعمل؟»

«التقريع والذم للمخالفين، وسعي الإناث لإشباع حاجة الزوج جنسياً، لكن المعاملة بالمثل ليست حلاً».

«لا أدري إذا كانت رؤيتك صحيحة، ربما هي كذلك. في الكثير من القصص التي تصلني أصبحت النساء يطبقن نظرية المساواة بتقليد الزوج في الخيانة، ومن يكن غاضبات يُعاقبن الزوج بالتمنع عن التجاوب الجنسي، مثل التي قالت إنها أصبحت تكره زوجها إلى درجة استباق موعد عودته إلى البيت لتنام على السرير بالعرض؛ فتجبره على اللجوء إلى الكنبة». وافقها بالإيحاء برأسه وتأسف لها عن فشله في العثور على حل لأول مشكلة في تاريخ التكوين البشري.

التعساء

الطلاق

كان لقاؤهن الأول قبل ثلاثة عقود في الجامعة، ومنذ ذلك الحين حافظن على التواصل واجتمعن في العديد من المناسبات، آخرها حفلة زفاف ابن إحداهن حيث كررن في بضعة أيام اللقاءات الجانبية، يتجاذبن الأحاديث وينفثن دخان النارجيلة. كن على اطلاع مفصل لمجرى حياة بعضهن بعضاً، وشاءت الصدف أن يتشابهن في المصير كنتيجة لتشبب الرجال وخيانتهم وتسلطهم جنسياً.

ثلاثتهن تزوجن وأنجبن ومررن بتجارب خيانة من الأزواج. الأولى، تزوجت رجل أعمال يقيم في أكبر بلد خليجياً، وفتح الله عليه باب الرزق ولكنه أقفل باب الإنجاب. بعد طول عناء ومحاولات رزقهما الله ولداً ثم أقفل الباب مجدداً. تحمل الزوج سنوات إضافية أن تستكمل متعته وتزين حياته بالمزيد من البنين بعد أن تكاثر رزقه من المال؛ فقرر أن يتزوج امرأة محلية وفتح لها بيتاً جديداً؛ فرزقهم الله ولداً وبنتاً وما زالت الفرص مشرعة للمزيد من ورثة المال. الزوجة الأولى قررت أن تعيش مع ولدها الذي بلغ منتصف دراسته الجامعية الآن، وتحافظ على علاقة اجتماعية تبدو طبيعية مع الزوج، لكنها لا تقاسمه الفراش، كما تروي لصديقتيها، ولا تطالب بالطلاق لأنها لا تعرف ماذا ستفعل وهي مطلقة ومقطوعة الرزق وهزيلة الدعم العائلي،

ولا تريد بالطبع تعكير علاقة الابن مع الأب حتى يحتفظ ولدها بفرص الورثة لمال أبيه.

الصديقة الثانية لم تعان قلة الإنجاب ولم ينقصها الجمال هي الأخرى، لكن زوجها لم يكتف بها. أصبحت تكتشف شعراً أشقر في سريرها وعلى مشطها، ثم صارت ترى أشكالاً وألواناً من النساء يدخلن البيت كصديقات لزوجها، وتطور الأمر لمشاهدته يمارس الجنس في سرير الزوجية. أخذت تسأل وتستشير وتستخير حتى توصلت إلى نتيجة وجود عمل سحري في بيتها. فتشت عنه ووجدته على التسريحة؛ فقيل لها أن تفتحه وتقرأه بالمقلوب وتلقي به في البحر. دخلت في الخليج حتى بلغ الماء وسطها وصارت تقرأ من تحت لفوق، ولم يكن النص منسجماً حتى بالمطالعة الصحيحة، لكنها استنتجت منه من يلعن زواجها ويطالب الجن بإغواء زوجها. فشت غلها في الورقة والنص تمزيقاً ومضغاً وبصقاً في الماء.

مرت الأيام والشهور والحال على سابقه، نساء يدخلن ويخرجن من بيتها. حاولت زجره فأخبرها أنه لن يتغير وعليها إما الإذعان أو الخروج إلى بيت أهلها. تركت له أصغر بلد خليجي وعادت إلى أهلها. في اللقاء الأخير للصديقات كانت بالكاد تتمالك أعصابها، لا تترك لأحد مجالاً للحديث، تعلق على أحاديث الآخرين قبل أن ينتهوا من السرد، كثيرة الزينة وغير مكترثة لما يظهر من جسدها وهي تسحب على النارجيلة.

الصديقة الثالثة تحجبت بعد الجامعة على عكس صديقتيها، وتزوجت هي الأخرى أحد أبناء بلدها وعاشا في الغربة. أنجبا بنين وبنات وأقاما شركة صغيرة جلبت لهما الرزق في حدود معقولة واستمرت سعادتهما حتى اتفقا على زيارة أكبر بلد عربي سكاناً. لم تكن تلك الإجازة الأولى لهما في عاصمة الضجيج، لكنهما تعرفا هذه المرة إلى أم وابنتها. توطدت العلاقة مع الزوج وصارت الزوجة حين تسمع أم البنت تطلب من الله أن يزوج ابنتها من الزوج، تظن أنها تمزح خصوصاً مع اختلاف اللهجة والطباع.

استجاب الله لدعاء الأم، ولم يخبر الزوج زوجته أنه يريد الزواج بالبنت، لكنها طالعت رسالة على هاتفه اتضح منها أن موعد الزواج بعد يومين؛ فما كان منها إلا إعلان غضبها ودفعها كبرياؤها للانسحاب والسفر تاركة الزوج ليعقد قرانه ويعود بعد شهر العسل مع زوجته الجديدة إلى بيت الزوجية القديم. هكذا قررت أن تخلعه ولم تستجب لأي وساطة من أهلها أو أهله بأن ما فعله حلال ومن حقه. خربت الشركة وضاع مصدر الرزق، ونشطت الزوجة تجارياً وأنشأت بيتاً تعيش فيه مع أولادها، وفشل الزوج في حياته الزوجية الجديدة؛ فترك الزوجة الثانية تعود إلى أهلها وتزوج بثالثة، ثم فشل وعاد يسكن بالقرب من بيت الزوجة الأولى ليكون قريباً من أولاده، لكن الخسائر والديون والمحاكم أوصلته إلى المحتوم، ولم يعد لديه الآن مكان آخر يلجأ إليه.

تعيسة الزوج

ما زالت تُظهر أصلها العائلي كلما تم العريف بها لآخرين، فهي من عائلة اشتهرت في السياسة قبل ثمانية عقود سلباً وإيجاباً ولم يعد هناك اليوم سوى الاسم وبعض قطع الأراضي التي تناقلها الورثة ويريدون بيع بعضها الآن. يبدو من مظهرها الحالي جمال سابق بهت من كثرة ما أصابها من نكسات أوصلتها إلى اللجوء للتدريس الخاص في البيوت لتغطية حاجتها.

تزوجت ابن بلدها وعاشا سنوات في بيت زوجية منفتح، في بلد منغلق، أنجبا خلالها ابنة جميلة ذكية. تقول الأم إنها لا تعرف سبباً لما فعله زوجها فجأة، حيث أخبرها أنه مسافر بضعة أيام لزيارة أهله، لكنه خرج ولم يصل إلى الأهل أو يعد إلى البيت أو يتصل بالزوجة أو أي من المعارف حتى عم القلق ولم تنجح محاولات العثور عليه. أصبح عليها كسب رزقها وتربية البنت دون أي رصيد سابق. لم تفكر في زواج جديد رغم مرور السنوات، كما أنها لم تطلب الطلاق أو الانعتاق؛ فمصير الزوج غير معروف.

تفوقت البنت وانتقلت للدراسة الجامعية في بلد غني منفتح مجاور. ذات يوم اتصل بالزوجة أحد المعارف وأخبرها أنه شاهد زوجها في ذلك البلد المجاور. اختلطت مشاعرها وطلبت من أصدقاء قدامى تحري الأمر؛ فأكدوا لها صحة المعلومة وأفادوها أنه متزوج من

محلية ووضعه الاقتصادي في أحسن حال. غمرتها التعاسة الناتجة عن الاستغراب والاستهجان، لكن ظروفها الاقتصادية فرضت عليها في النهاية تقبل أن تعيش ابنته في بيته مع زوجة أبيها توفيراً للمصاريف.

لم ينقض عام كامل على هذه التطورات حتى مرض الأب ومات؛ فأصرت زوجته أن تغادر البنت بيت أبيها قبل أن يُدفن، وهددتها باللجوء إلى الشرطة لطردها. عادت الأم لتحمل مصاريف ابنتها وأوصلتها إلى بر الأمان إذ أنهت دراستها وعادت إلى مقر إقامة والدتها وباشرت عملاً في مجال تخصصها، ولم ينقض الكثير من الوقت حتى تمت خطبتها وتستعد لإتمام الزواج في القريب.

تعيسة الجهل

لا تبدو أنها أنهت أربعة عقود من عمرها، ملامحها رقيقة، بشرتها بيضاء، ذات عيون عسلية واسعة يمكن بسهولة تصور كم كانت جميلة وهي في الخامسة عشرة حين تقدم ابن عمها لطلب يدها. لم تمانع آنذاك وقالت لاحقاً إنها ظنت الزواج لبس كعب عال وفساتين حلوة؛ فلم يخبرها أحد بغير ذلك. هكذا أُقنع القاضي بأنها غير قاصر وأجابت بنعم حين استُشيرت، وفرحت بالهدايا وطقوس العرس حتى حانت ليلة الزفاف مع ابن العم الذي يكبرها بأكثر من عقد من العمر.

بعد مباركة الصباحية افتقدوها وبحثوا عنها ثلاثة أيام ظنت خالتها أنها كافية لتهدئة الأهل؛ فأعادتها بسيارة أجرة. قبل أن تصل

إلى البيت شاهدها العريس؛ فأمسك بها وصار ينادي عمه وإخوتها أنه ضبطها وأعادها. لبوا النداء وهم لا يرون غير السواد أمام عيونهم، وأعطى أحدهم والدها بندقية خرطوش محشوة وسط أصوات حماية العرض.. صرخت الخالة أنها كانت في بيتها طوال المدة ولم يسمعها أحد. لم يجد الأب مناصاً من التصويب تجاه ابنته التي يمسك زوجها بذراعها، لم تخرج أي رصاصة؛ فظن متحمس أن أصبع الأب أضعف من ضغط الزناد، وقف بجانبه وصوب على الأسيرة وضغط فوق أصبع الأب؛ فهتكت عشرات الرصاصات الصغيرة ذراع البنت وكسرت ضلعين وترك ابن عمها الذراع الأخرى؛ فخرت تسبح في دمائها.

بعد ربع قرن من الزمان كانت تعايش مشكلتها بأسلوب ميكانيكي؛ ففي كل حديث تناقش كلفة اليد الاصطناعية وما توصل إليه العلم في بلدان أخرى بهذا المجال مثل زرع جلد بملمس طبيعي فوق اليد البلاستيكية، وهي تلم بالكلفة لهذا التعديل، وتقول إن صيانة يدها الحالية تكلف حوالي عشرة آلاف دولار سنوياً. لم تتزوج بالطبع بعد تجربة ليلة الزفاف التي دفعتها للهروب حتى لا يتكرر الحدث.

«ماذا حدث للجناة الذين تسببوا بذلك؟» همس جليس غير ملم بكل التفاصيل سائلاً صديقاً مشتركاً.

«أخذ ثلاثة شهور مع وقف التنفيذ». جاء الجواب من الفم إلى الأذن. دار في ذهن المتلقي: ماذا عن المأذون الذي سمح بالزواج، والزوج الذي اغتصب، والمتحمس الذي ضغط على إصبع الأب؟؟

غني وتعيس

سرح ذهنه لوهلة واستعاد شريط حياته بلمح البصر. كان جالساً في مكتبه، الذي تحيط به مكاتب السكرتارية وبعض مديري شركته، حين جذبه عنوان قصة حقيقية وهو يتصفح الإنترنت: زوجان يتبرعان بنفقات العرس وقيمة الهدايا لقرية في جيبوتي حيث أقاما بيوتاً وحفرا بئر ماء وأمنا مولد كهرباء لمدرسة القرية مدقعة الفقر. تذكر واقعه الشخصي وهو صبي في أحد مخيمات لبنان، وشاهد في الشريط الذهني تطورات حياته حتى أصبح مليونيراً، بل شبه ملياردير. تأمل ماذا كانت كلفة زواج ابنه الوحيد قبل شهر رمضان ستفعل في قرى عربية فقيرة أو مخيمات لاجئين أصبحت تنتشر في طول وعرض الأصقاع العربية والدول المحيطة. تذكر كلفة العرس التي فاقت نصف مليون دولار، وهو يقر في ذاته أنها أنفقت على ضيوف لا يعرف جلهم ويندر بينهم من يحترمه لشخصه، أراد هو التباهي بماله وبولده وأرادوا هم تملقه. أصبح سرحان ذهنه يتكرر بعد ذلك العرس، وها هي قصة الزوجين الكريمين تذكره بما يحب مسحه من ذهنه؛ فحين عاد من العرس إلى البلد المضيف حيث شركته وأعماله تم احتجازه وسجنه طوال شهر رمضان بتهمة الرشوة ريثما تمكن من جمع قيمة الكفالة بعدة مئات الملايين من العملة المحلية. عاد لعمله ومكتبه بانتظار حكم القضاء أو التوصل لحل آخر. في السجن حفظ نصف القرآن وتعلم السرحان

والتأمل لكنه لم يقرر تغيير مسار حياته أو تحديد أهداف جديدة تعطيه سعادة مثل تلك التي حلت على من استبدلوا تكاليف عرسهم بإسعاد أفقر فقراء العالم.

هو مسلم المولد والثقافة، لا يتعبد ولا يتورع عن فعل بعض المحظورات، لكنه ظن أن الرعاية الإلهية حافظت على حياة ولده وأن الله أراد له الزواج ولم يهده لإنفاق المال على فقراء. قبل سنوات صدم ولده هذا بالحواجز الأسمنتية سيارة ثمنها ٤٠٠ ألف دولار؛ فدمرها وضاعت له عين وأصيب بجرح غائر في الوجه بالإضافة إلى ضلعين وبعض الكسور الأخرى، سقط هاتفه من يده فأراد التقاطه من أرضية السيارة؛ فكان ما هو مقدر. بعد الحادث والزواج للابن وتعرضه هو للسجن تكرر الحادث نفسه، ولكن هذه المرة مع أخته التي لم يحالفها حظ الابن فانتقلت إلى الرفيق الأعلى وهي تتحدث عبر هاتفها الذكي.

دخل سكرتير المكتب قاطعاً عليه مشاهدة الشريط المشوش، أخذ يوقع الأوراق بعد مراجعتها من دون تركيز، تراءى له بحر بيروت ويخته الراسي في الميناء ينتظر حفلاته الخاصة التي لم تحضر الزوجة أياً منها طوال تلك السنوات. أكمل التوقيع وقد غص قلبه حين فطن لمنعه من السفر وما ينتظره في المجهول.

تعيسات غزة

جلست أمام دفترها وفي يدها قلم، لكنها لم تكتب وبدت له

شاردة الذهن. سألها لماذا لم تحمل معها كمبيوترها الخاص من غزة. تنهدت قائلة إنها بالكاد تمكنت من الخروج للزيارة، ولو حملت الكمبيوتر لتحتم على حماس وعلى إسرائيل فحصه لأيام. تبسم لها، وكان يعرف المصاعب ولكنه أراد إخراجها عن سكونها واستفسرها عما ستكتب بالقلم.

«قصص بلاوي أخاف الإفصاح عنها وأحياناً أشمئز من مجرد التفكير فيها». ظن أنها تقصد الحروب على غزة والويلات التي طالت سكانها. هدأ من روعها قليلاً وراح يتحدث عن تجارب الشعوب في الحرب؛ فقاطعته: «لا أخاف من الكتابة في هذا المجال». صمتت وصمت يفكر في ما تفكر. «أريد الكتابة عن ظلم النساء في غزة». طلب منها إخباره بما تريد وسيتفق معها على الأسلوب المناسب للتصرف. «سأخبرك من الآخر وبالموجز لأرى ردة فعلك». وافقها في الرأي وفتح هاتفه الذكي ليسجل فيه بعض الملاحظات.

«استمعت لجارنا العزيز، لكننا لن نُعرفه كجار حتى لا يعرف من أخبر عن الأمر ..» أكد لها ذلك بإيماءة من رأسه فأكملت: «.. قال لصديق له إن زوجة الشهيد فلان جميلة بالفعل ونفسه فيها ويود التقدم لها قبل أن يزوجوها لأخ الشهيد الأصغر. ذكره الصديق أنه متزوج أربعاً، ثلاث منهن زوجات شهداء، وأضاف صديقه: ألا يكفيك تلك الحسنات والعمل الجليل بالستر على الزوجات». نظرت إلى المستمع لتقيم ردة فعله الأولى عما سمع للآن؛ فتصنع الهدوء. أكملت:

«ضحك الاثنان على ذلك التعليق وقال الجار لصديقه إن المعضلة هي أي واحدة من الزوجات الأربع يطلق الآن ليتقدم للزواج من جديد .. وعادا للضحك. نصحه الجار أن يطلق الأقدم منهن؛ فجاءه الجواب باستحالة ذلك لأنها أم الأولاد وقد كبروا ولا يريد الصدام معهم. في النهاية اتفقا على طلاق الأقل جمالاً من الثلاث الأخريات».

«من هو هذا الجار؟» سألها ثم غير سؤاله بعد أن نظر إليها. «ما هو مركزه في المجتمع، ولماذا لم يتنبه أحد لما يفعل؟»

«قائد ميداني وشيخ في حركة حماس ..» قالت وهي تنظر إلى الدفتر أمامها «.. أما سؤالك الآخر فهو مضحك بالفعل .. الجميع تنبهوا لذلك والرجل ليس القائد والمسؤول الوحيد الذي يفعل هذا بل هناك إشاعات أنهم يتعمدون إرسال أزواج الجميلات من الكوادر لعمليات استشهادية ليكسبوا حسنات الستر على زوجاتهم».

«إذا افترضنا أن نساء غزة معظمهن جميلات وبالتالي فهذه مصادفة، فهل تخبرينني عن مصير الزوجات لو لم يتقدم لهن المسؤولون؟»

«الأفضل أن يجدوا لهن أعمالاً ووظائف حتى يكسبن الوقت والمال ويدعمن عائلاتهن، ومن ثم قد تتوافر لهن فرص زواج إنساني محترم وليس بهذه الطريقة ..» نظرت إليه بشيء من العتب ثم أخبرته: حين لا يتقدم مسؤول؛ فإنهم يجبرون الأخ الأصغر على الزواج من أرملة أخيه وهذا ليس عادلاً لأي منهما».

مر في ذهنه ما طالعه عن ثورات وحروب وحقيقة أن الإناث هن الضحايا على الدوام. في حالات الثورة يصبحن صيداً، وفي حالات الغزو يغتصبن ويسبين، وفي حالات الفقر والجوع الناتج عن الحروب يضطررن لبيع أجسادهن .. هل حلل الإسلام تعدد الزوجات كحل لنقص الرجال في أزمنة الحرب؟ لم تعجبه هذه الخاطرة كونها مهينة لإنسانية المرأة. قبل الإسلام كان العربي يتزوج واحدة فقط ولكنه حر في زيارة بيوت صاحبات الرايات، وجاء الإسلام بمنع الزنى لمنع اختلاط الأنساب ولكنه حلل زواج الأربع وطلاقهن حتى لا ينفر الرجال من الدين الجديد.

أم خويصة

جلست تصرخ وترمي بالرمال إلى أعلى؛ فتهبط على رأسها، حاولوا ردعها بالكلام وإمساك يديها، لكن من دون جدوى، حتى طلب منهم شيخ البلدة أن يتركوها تتعامل مع حزنها كيفما ترى.

قبل خمسة أشهر مات ولدها غرقاً في البحر، واليوم ودعت ابنها المتبقي في قضية ثأر كان من الممكن درؤها بسهولة، ولم يتبق لها سوى ابنة. ذهب محمد مع قطيع غنم وجمل واحد إلى البحر بغية تغسيل دوابه. حمل معه على ظهر الجمل إلى الشاطئ أكياساً ملأى بالعشب والتبن ليغري الغنم بالبقاء في بقعة واحدة بينما يقبض عليها واحدة تلو الأخرى ويجرها إلى الماء، يغطسها ويفركها ثم يخلي

سبيلها؛ فتعدو إلى دائرة القوت.

انتهى من الغنم، وكان قد أنهكه العمل، لكنه قرر أن يغسل الجمل أيضاً. أمسك برسنه وسار الجمل بهدوء من خلفه حتى وصل الماء إلى كتف محمد وبطن الجمل. انتقل محمد إلى الخلف ليدفع الدابة إلى الأمام ليسهل عليه تنظيفها، لكن الجمل رفع رقبته إلى الأعلى ورفض التقدم إلى البحر المفتوح أمام ناظريه. عاد محمد إلى المقدمة وحاول تبريك الجمل لتغمره المياه، لكن الأخير رفض الانصياع. قرر محمد أن يجر الدابة إلى الأمام؛ فأعطى البحر ظهره ليحافظ على مواجهة سفينة الصحراء العين بالعين خوفاً من غدر الدابة به.

قال ولده الصغير الذي كان يراقب المجريات من مكان آمن على الشاطئ، إن موجة بحر فاجأت والده من الخلف فرمته تحت قوائم الجمل الذي يبدو أنه ارتعب وداس محمد الذي لم يقم من رميته.

بعد أربعة أشهر كان قريباً من العائلة يقود شاحنته عبر قرية مجاورة؛ فدهس أحد سكانها. لم يتوقف السائق فقد أيقن أن الضحية قد قُتل تحت العجلات. خاف من ردة الفعل الفورية وواصل القيادة حتى وصل القرية، واتجه إلى كبير العائلة وأبلغه ما حدث معه. في المساء تشاور القوم لكن كبيرهم رفض فكرة الاعتراف بالجرم وإرسال وفد إلى أهل القتيل لأخذ عطوة والاستعداد لإيجاد حل بعد أن تهدأ النفوس. لم تكن الشاحنات كثيرة الانتشار آنذاك، وتعرف أهل المجني إليه بسهولة على الجاني الذي بالطبع أخذ استعداده وتوخي الحذر

في تحركاته. طوال شهر كامل راقب أحد أقارب القتيل بلدة القاتل وحارتهم حتى جاءت الليلة المشؤومة لمحمود أخي الغريق محمد.

كان عائداً من الحقل بعد الغروب؛ فسمع من يناديه باسم عائلته واستجاب بنعم تلقائياً، ولم يفق إلا وبضع ضربات قاتلة من شبرية قد انغرست في جسده. عندما وصل الخبر إلى أمه تفجر حزنها المأسوي من جديد، وغارت عيناها أكثر في جمجمتها؛ فتعزز تلقيبها أم خويصة. عندما سمع زوجها بما حدث لولده انطلق مسلحاً بالدبوسة إلى بيت كبير العائلة لينتقم من سوء إدارته، ولكن هذا كان قد لاذ بالفرار حين سمع بعملية الثأر واستنتج أن قريبه سينتقم منه لموت ابنه.

الحلاق

سكت الحلاق ولم يعد المقص يطقطق حول رأسه؛ ففتح عينيه ونظر إلى الأمام ليشاهد انعكاساً لما يحدث في الشارع إذ ارتفع صوت أنثى: «إيه مش عاجبكم يا خولات». أبصرها الناس وهي تبتعد عن الرصيف وتواصل مسيرها على الشارع، وانطلقت أبواق سيارات، ثم مرت من أمام المحل رافعة تنورتها مظهرة عجيزتها دون أن يتوقف لسانها عن الشتائم للناس. تشجع ملتح يقف في الجهة المقابلة من الشارع: «عيب عليك يا بنت، اتقي الله». أنزلت التنورة؛ فغطت عجيزتها، ثم رفعت بكلتا يديها التنورة من الإمام لتواجه بما تحتها الرجل الملتحي.

«لا حول ولا قوة إلا بالله». قال الحلاق.

«لماذا يهرب الجميع من مجالها ولا ينظر إليها إلا من هو في مأمن؟» سأل الزبون ذاته بصوت مسموع؛ فأبلغه الحلاق أن الناس كلهم يخافون المجانين والشراميط، وهذه تجمع الخصلتين. واصلت سيرها مبتعدة عن المحل وهي رافعة تنورتها وتتراجم السباب مع الشجاع الوحيد على الجهة الأخرى. «والله هذا رجل غير جبان، حاول أن يؤنبها ثم أصبح يكيل لها الشتائم بالمقابل».

«لا يا أستاذ، هذا رجل غبي، لأنه يستفزها». صمت الحلاق ونظر الزبون إلى وجهه في المرأة يحثه على التوضيح؛ فأكمل: «هل يعتقد أنها طبيعية وقد تستجيب لمواعظه؟»

«لكنه يحاول عمل الحد الأدنى لدرء المنكر، وهو استعمال لسانه».

«الحد الأدنى يا أستاذ بقلبه، وليس بإثارتها، يمكنه الاتصال بالشرطة، وعليه أن يغض نظره عما تعرضه عليه». لاحظ الحلاق علامات استنكار على ملامح الزبون. «لو كانت صغيرة الحجم لهجم وأمثاله عليها وضربوها، ولكنها ضخمة وعدوانية ومجنونة أكيد، لذلك يرادحها من بعيد .. إنهم جبناء وأغبياء أيضاً». كان الحلاق والزبون على معرفة طويلة وكثيراً ما يتناقشان في شؤون الحياة.

«أوكي فهمت من حديثك أنهم جبناء، ولكن لماذا تتهمهم بالغباوة؟» سأل وهو يحني رأسه لموسى الحلاق ينظف الشعر عن رقبته.

«عثرت اليوم في الإنترنت على دراسة جيدة عن غباوة المتدينين». استدار والموس في يمينه ليهذب السالف الأيمن، بينما يثبت بيده اليسرى رأس الزبون. «ملخص الدراسة أن نسبة الإيمان لدى أغلبية البشر تصل إلى ٨٥ بالمائة، كلهم يؤمنون بالله واليوم الآخر والحساب والثواب وأن الله خلق سيدنا آدم أبا البشر ..» لا جديد هنا ظن الزبون وهو صامت بينما التف الحلاق إلى الجهة اليسرى من وجهه. «.. لكن استطلاع ٣٠٠٠ عالم أمريكي وبريطاني هم الأشهر على الإطلاق أظهر أن أقل من خمسة بالمائة منهم يؤمنون بفكرة خلق آدم والبقية يؤمنون بنظرية التطور».

«قصدك أنه كلما زاد العلم عند الإنسان زادت شكوكه وتساؤلاته وقل إيمانه!» قال الزبون وقد تحرر رأسه من يد الحلاق الذي باشر برش الكولونيا على الرقبة والوجه ويوحي برأسه بصحة الاستنتاج. قبل أن يسأله أين عثر على هذه الدراسة ركض الناس على الرصيفين في اتجاه واحد تلاحقهم الحجارة والسباب.

«ليت عندنا الآن واحد من العلماء الأذكياء إياهم لينقذنا من هذه المجنونة». قال زبون آخر كان ينتظر دوره ووقف ليجلس تحت يد الحلاق.

«للذكاء حدود في التعامل مع الأشياء، لكن الغباوة لا حدود لها». قال الزبون الأول وقد نقد الحلاق أجرته وأخذ يدرس الموقف إذا كان بوسعه الخروج إلى الشارع من دون أن يصيبه حجر طائش.

الأعراب وحكمة المختار

حليب الليل

زحفت الحرب وكوارثها من بلد إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى ومن بيت إلى بيت في تواصل منقطع النظير، ولسنوات طويلة أثرت أيامها في نفسية الناس وأظهرت المستوى الفعلي لثقافة وإنسانية البعض وانحطاط وأنانية الأغلبية، وهذا هو الحال في كل الحروب. كانت قرية المسرة، وهي في الحجم أقرب إلى مدينة، من المناطق التي حماها الله من الويلات المباشرة على عكس ما يحيط بها من مدن وقرى، وكان سكانها يعرفون رحمة الله بهم ويقدرونها في أقوالهم يوماً بعد الآخر.

أصاب البلاء قرية المضرة، القريبة، بدأ الحصار القوي إذ كان فيها مسلحون يعارضون القابلين، فأصر هؤلاء على استسلام أولئك ومنعوا عنهم سبل الحياة، لا ماء ولا كهرباء ولا وقود ولا طعام؛ فحصلت المجاعة وأكل السكان الفئران ثم القطط، وهربت الكلاب من قريتهم طلباً للنجاة. حاول بعض سكان المضرة إقناع المسلحين بالاستسلام أو التسرب خارج القرية رحمة بسكانها الذين انتقلوا لأكل أوراق الشجر، ولكن المسلحين وشيوخهم والمفتي وغيرهم ممن لم تظهر عليهم أعراض الجوع، أخذوا يُبشرون الناس بالجنة ويشجبون موقف كل من يرغب في الحياة.

منذ حصار المضرة عاظم سكان المسرة في تخزين ما يقع تحت أيديهم واقتصدوا في طعامهم، وأصبحوا يخزنون كل الزبدة الناتجة عن حليب مواشيهم ويستعملون الحليب المملح القابل للحفظ، لكن مأساة المضرة أجبرتهم على التفكير في طرق لمساعدة الجيران المحاصرين بالسلاح والجوع. هكذا وفي اجتماع لسكان المسرة اقترح المختار أن يتبرع الناس ببعض الحليب يصبونه مساء الخميس في إناء كبير وضع وسط القرية، وقال المختار إنه سيبحث عمن يوصل الحليب إلى الجيران المحاصرين، وأوضح أن التبرع في الليل لن يكشف هوية المتبرع خوفاً مما قد يحمله المستقبل.

في صباح الجمعة حُمل الوعاء إلى بيت المختار لتفحصه قبل البحث عمن سيحمل محتواه. أزاح المختار الغطاء واستعاذ بالله العلي القدير، فقد شاهد الوعاء مليئاً بالماء الصافي؛ فقد قرر كل متبرع أن يحتفظ بالحليب لنفسه، وظن أن الآخرين سيتبرعون حقاً وبالتالي إذا كان تبرعه ماء فلن يؤثر في كمية الحليب من الآخرين. أخبر المختار الإمام بما جرى وطلب نصيحته. قال الإمام: عليك باستبدال الماء بالحليب من مالك الخاص وإتمام المهمة لتفوز بالحسنات، أما الآخرون؛ فاتركهم لي.

عندما حان موعد خطبة الجمعة سأل الإمام المصلين من منهم تبرع بالحليب ليلاً؛ فارتفعت الأيدي، وهنا أقسم الإمام بالله أن أياً منهم لم يتبرع بالحليب؛ فاحتار القوم مما سمعوا وتمتم بعضهم أن

الإمام أصيب في عقله، وقال غيرهم إنه يتحمل وزر اليمين حتى يعفينا من احتمالات المسؤولية والمساءلة في المستقبل إذا جاء من يعتبر دعم جياع المضرة خيانة تستحق العقاب. لم يفكر أي منهم بصدق الإمام، أو يعترف لذاته بعدم تبرعه.

الذل

«قمة الذل أن نترك ديارنا ونلجأ إلى بلاد بعيدة يقطنها من هم ليسوا من جلدتنا أو ديننا ومع ذلك بعضهم يرحبون بنا، على عكس بلدان إخوتنا في العرق والدين..» قال الإمام للمختار ثم استرجع بعض مقولته مصححاً أن بعض الدول المجاورة والفقيرة تفعل ما بوسعها، وهناك جارة استوعبت بمقدار نصف تعداد سكانها. «اطلب من ربك في كل صلاة أن يكف عنا شر إخوتنا الأغنياء، فهم الذين حرضوا على الاقتتال ودعموا المنشقين، وورطوا البلاد في حرب أهلية، ثم تركونا ننزف ونتعرض للإهانات والإذلال بكل أنواعه».

«لا تيأس من رحمه الله يا مختار، أنت متعلم ومثقف ومؤمن بالله». بعد فترة صمت واستغفار من الاثنين سعى الإمام لتشتيت ذهن المختار وسأله عن أصعب فترات الذل والضياع التي مر بها البشر. «ربما كان ذل الإيمان أمام العلم هو الأكثر إحراجاً وإيلاماً لعزة نفس المؤمنين..» قال المختار بينما فغر الإمام فاه، إذ توقع من المختار حديثاً عن الحروب وذل الهزيمة وتأثيراتها في الناس من سلب ونهب

واغتصاب وتهجير، لكن المختار تعمق في الإجابة وأكمل: «ربما كان ذلاً عظيماً حين قال العلم إن الأرض كروية وليست مسطحة، وكان هذا حينذاك يعني كفر القائل ومحاكمته وقتله، ولكن في النهاية أقر الجميع أن العلم على حق وأنهم كانوا على باطل. بعد ذلك أذل العلم أهل الإيمان مجدداً حين أثبت أن الأرض ليست محور الكون وأنها هي التي تدور مع غيرها حول الشمس وليس العكس. ولا ننس أيضاً أن المسيحية اعتبرت القدس مركز العالم جغرافياً، وهذا هراء بالطبع تم التنازل عنه، وهناك من يؤكد الآن أن مكة هي المركز المغناطيسي للعالم ولم يتعظوا من كل تلك الهزائم. أو فلنقل إن العالم الغربي الذي اقتنع منذ قرون بصحة الاكتشافات العلمية يقفز للأمام قفزاً على كل الصعد ويتفرج علينا الآن كيف نمر زحفاً بالمرحلة التي تخلص منها.. لذلك تراهم قد أصبحوا بنزعة أكثر إنسانية تجاه الغير، بينما يذبح الجار عندنا جاره بدعم وتأييد من جاريهما..»

«لكننا وإياهم من خلقة ربنا سبحانه وتعالى، ولا بد من وجود حكمة في هذا الحال». تدخل الإمام مقاطعاً المختار الذي ضاقت عيناه وهو يستمع للإمام.

«ما قلته الآن يا شيخ هو جوهر الإهانة الأخرى التي تقبلها الغرب واستجاب بسرعة في تعامله معها للتخلص منها. أنت ما زلت تصدق ما كانوا يصدقونه في الماضي، إن أصل الإنسان سماوي، نزل من فوق قبل أقل من أربعة آلاف سنة. بينما هم اقتنعوا وأقروا نتيجة لإيمانهم

بالعلوم، أن أصل الإنسان حيواني أرضي تطور عبر ملايين السنيين، وتفاعلوا عملياً ونفسياً ضمن هذا التغيير؛ فاقتربوا من المفهوم الإنساني بينما نحن نتصرف ضمن المفهوم السماوي كالحيوان المتوحش.. أترى الفارق بين ما تظن أنه الحق وبين الحق نفسه؟» لم يبد أن الإمام فهم أي شيء، وانشرح صدره حين نظر إلى ساعته لتخبره اقتراب موعد صلاة العصر؛ فاعتذر من المختار وغادر المكان دون أن يجرؤ على دعوة محادثه لمرافقته إلى الجامع.

الكيد

اقتنع الإمام بأحقية أن يُطلق محمد زوجته صفية، ولأنها على قرابة بعيدة من المختار اتفقا على إبلاغه بالأمر. شرح الإمام نيابة عن محمد ما أُخبر به بأن صفية أصبحت تنفق أموال زوجها حتى لا يدخر ولا يتزوج عليها، واستشهد الإمام أمام المختار بالقرآن، أن كيدهن عظيم. «من هن ومن قال ذلك؟» استغرب الحضور سؤال المختار الملم بالقرآن والسنة. أجابه الإمام أن هذا كلام العزيز الحكيم في القرآن. «قد يكون كلام العزيز ولكن الله لم يقل هذا الكلام مطلقاً». فغرت أفواه الحضور؛ فطلب المختار من الإمام أن يقرأ ما يتعلق بذلك من سورة يوسف. تعوذ الإمام من الشيطان وسمى باسم الله وقرأ حتى وصل إلى «لما رأى قميصه قُد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم»؛ فأشار المختار له بالتوقف وسأله من هو القائل إذاً إن كيدكن

عظيم؟ «إنه عزيز مصر، الفرعون، هو من قال ذلك كما يخبرنا الله هنا في القرآن». قال المختار وهو ينظر إلى الحواجب التي رفُعت على أوجه الحضور؛ فأكمل: «زوجة العزيز ولعت حباً وشغفاً بيوسف وراودته عن نفسه؛ فهرب باتجاه الباب؛ فشدت قميصه وقدته. في هذه الأثناء فُتح الباب؛ فإذا بالعزيز يرى ويسمع من زوجته الاتهام ليوسف، وعندما تأمل الأمر قال إن كيدكن عظيم؛ فهل كلامه هذا يحلل ويحرم ويشرع! القرآن مليء بالقصص والأقوال على لسان الغير؛ فهل يصبح هذا كلام الله ونعتبره تشريعاً؟ ثم إن القصة حدثت من آلاف السنين؛ فكيف تُطبق حكمها على هذا العصر؟»

ظن محمد أن المختار يتفلسف حتى يُحبط خطة طلاق قريبته؛ فتشجع وقال: «لكن يا مختار ما تفعله صفية فيه الكثير من الكيد، تنفق مالي حتى لا أستطيع الزواج..»

«الله أحل لك زواج غيرها، والطلاق عند الله هو أبغض الحلال..» قاطع المختار محمد بإشارة من يده وبهذا الحديث وأكمل: «.. في الواقع أنت من تكيد لها. من أين لك المال لتنفقه زوجتك؟ ولماذا تعطيها المال؟ لقد تحايلت على الإمام ودبرتم المكيدة للمسكينة تماماً كما كاد أبناء يعقوب لأخيهم يوسف: (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ذلك هو كيد الرجال الذين دفعهم الحسد إلى إلقاء أخيهم في البئر دون طعام أو شراب وكذبوا على والدهم.. فأي كيد هو الأشر؟

كيد الحب أو كيد القتل؟ أنصحك يا محمد أن تكف عن الكيد، وأن تذهب وزوجتك إلى طبيب ليقرر أي منكما العاجز عن الإنجاب، أو اصبر كما صبر أيوب، أو يعقوب أقله».

العقل أولاً

قرر المختار أن لا يصلي العصر والمغرب بل يدمجهما مع العشاء قبل أن ينام، وأخذ يتذكر ويستعين بالقرآن بحثاً عن كلام لا يعبر عن وجهة نظر الله. فكر أن القرآن نزل على الرسول وأن كل ما فيه صحيح بمعنى أنه حصل، ولكن ليس كل ما فيه يجب اعتباره صالحاً للتشريع. قصص الأولين مثلاً لا يمكن اعتبارها تشريعات، وكل ما يُنسب في القرآن إلى الآخرين لا يجب اعتباره كلام الله، وكل ما نعجز عن فهمه يجب أن نؤول الفكر فيه ونقرب فهمه من دون أن يُكفر المؤول، إذ من الأفضل أن نحاول الفهم على أن نؤمن بالنص المبهم. تذكر قول الله السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما. هذا نص واضح غير قابل للتأويل، فهو يعادل بين الذكر والأنثى في العقاب الواحد للجرم الواحد. الله عادل لا يخطئ أبداً، والقرآن مُنزل من عنده، وبالتالي؛ فإقرار القرآن أن شهادة الأنثيين بشهادة رجل واحد لا بد لها من سبب منطقي مرتبط بالشهادة نفسها وليس بوزن الأنثى مقابل الذكر، وحتى نعرف السبب يجب الأخذ بالنص الواضح الذي يساوي بين الذكر والأنثى.

ارتاح المختار لهذه الفكرة التي سيقذفها على الإمام وبقية رجال القرية عندما يحضرون إلى مجلسه لاحتساء القهوة مثل كل ليلة، وأخذ يبحث عن الآيات المحتوية على فعل (قال) أملاً أن يكون معظمها قولاً منسوباً إلى غير الله. وجد في كل صفحة تكراراً لكلمة قال وظن أنها مكررة أكثر من ألف مرة؛ فالله يقول والشيطان يقول وفرعون يقول ويعقوب ونوح وعيسى وغيرهم يقولون والكفار وعشرات الفئات الأخرى لهم قول أيضاً. أغلق القرآن وأعاد فتحه عشوائياً: «قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون». فكر المختار أن هذا القول يمكن أن يفسر بمنع خروج الإخوة معاً. ثم أغلق الكتاب وأعاد فتحه: «قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» وكرر المختار فعله بإغلاق وفتح صفحات القرآن عشوائياً وهو يفكر كيف لو اعتبر كل هذا تشريعاً: «قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون». «قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون».

دارت فناجين القهودة السادة على الحضور الكثير الذين جمعهم اقتراب صوت القذف المدفعي. تمنى الإمام أن لا يكون المختار حانقاً عليه حتى الآن بعد أن اتهمه بالكيد مع محمد لطلاق صفية. «المهم يا شيخ أن تكون استوعبت أن كيد الرجال أشد من كيد النساء، والأهم أن نفهم القرآن حسب العقل وليس تبعاً للنص حتى وإن جهلنا تفسيره».

«أنت محق يا مختار ولهذا حين يصعب علينا فهم القرآن نلجأ إلى الحديث والسنة لترسم لنا الطريق..» تمالك المختار غضبه وهو يستمع للإمام.

«الحديث كتب بعد ثلاثمئة سنة من موت الرسول، ومئات الأحاديث غير منطقية وغيرها الكثير فيها شكوك. ثم لماذا تترك الأصل والعقل وتلجأ إلى الفرع». صمت المختار وهلة ثم سأل الحضور: «إذا وجدنا حكم الحديث يتعارض مع ما ورد في القرآن؛ فهل نصدق الحديث الذي يناسبنا ونترك القرآن؟» نفى الجميع ذلك وانحازوا إلى القرآن. «إن معظم جرائم العصابات مدعية الجهاد ترتكز على فتاوى تستشهد بأحاديث غير موثقة». قال المختار وهو ينظر إلى وجوه الحضور وأكمل: «هل يبرر القرآن أي جريمة مما يرتكبون يومياً؟» اهتزت الرؤوس بالنفي وسكت الإمام.

«هل سينفعنا أي شيء مما تقول لو لا قدر الله اقترب هؤلاء من قريتنا؟» كان سؤال هذا العجوز يعبر عما يدور في ذهن الرجال الذين لا يرغبون بطرح السؤال أو حتى بالاستماع إلى أي إجابة عما سيكون عليه الوضع إذا اجتاحهم الجراد.

«لو فهمنا ديننا عبر العقل منذ مئات السنين لما وصلنا إلى وضعنا الحالي». قال المختار ولم يعلق أي منهم إذ انتقل الحديث عن اقتراب القصف إلى مسامعهم، وما العمل إذا وقعت الواقعة.

الحمار

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». قاطع الإمام حديث المجتمعين في مجلس القرية عندما سمع نهيق الحمار. كانوا يتناقشون حول تقطع وضجيج وأنواع أصوات القذائف التي تصل إلى آذانهم، ويخمنون أين وصلت المعارك. «هل تظن أنهم يتقدمون مع الشياطين؟» وجه شاب من الحضور سؤاله إلى الإمام.

«ربما..» قال الإمام دون تردد: «فطالما الحمير تنهق؛ فهذا يعني أنها ترى الشياطين، ولا أدري من برفقتهم الآن».

«وهل هناك أشيطن من داعش، بالتأكيد الحمير ستنهق إذا رأتهم..» قال المختار ثم نظر إلى الإمام: «نحن هنا في حماية جيشنا ولله الحمد، وإذا اقترب أي من الشياطين سترى ملائكة السوخوي تجعلهم كعصف مأكول؛ فاطمئن إذا كنت خائفاً». كان المختار يلمح إلى النيات الخفية التي يظنها عند الإمام، وأكمل: «لو اقترب غير الجيش من قريتنا سنتحول إلى عبيد أو لاجئين، ولا تظن أنهم سيحترمون مقامك الديني؛ فأنت كافر مرتد بالنسبة لأولئك الحشاشين، على الرغم من كونهم مثلك يصدقون رؤية الحمير للشياطين، والديكة للملائكة».

«كل المسلمين يصدقون ذلك الحديث النبوي..» قاطع المختار الإمام بإشارة من يده وطلب منه عدم التعميم. «.. لكن هذا حديث عن أبي هريرة (إذا سمعتم نهيق الحمير؛ فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها

رأت شيطاناً؛ وإذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً) وأنا لم أخترع ذلك الحديث».

«صحيح أنك لم تخترعه ولكن عليك استعمال عقلك؛ فكل الديكة تصيح عند الفجر، وكل الحمير تنهق طلباً لشيء ما. ثم لماذا يرى الحمار الشيطان ولا يراه الإنسان أو الحصان، مع ذلك..؟»

«.. هذه حكمة الله». قال الإمام بثقة رداً على المختار.

«صاحبك أبو هريرة بالفعل محب للحيوانات وكانت هرته لا تفارقه، ولكنه يقول إنه صاحب الرسول ثلاث سنوات فقط، ولدينا الآن أكثر من خمسة آلاف وثلاثمئة حديث يقال إنها موثقة منسوبة إليه، وهناك أقوال بأن أحاديثه فاقت الثلاثين ألفاً، وهو بالطبع لم ينم في حجر الرسول طوال تلك المدة؛ فهل تظن أن كل ما يُنسب إليه صحيح بالفعل؟» صمت المختار ثم أخبر الحضور أن السيدة عائشة شككت في أقوال أبي هريرة حين نسب إلى الرسول أفعالاً كان يفعلها مع زوجاته؛ فنفت عائشة ذلك.

«يعني المختار يقصد أن القرآن الكريم هو مصدر الأحكام وفصل القول ولم يرد فيه شيء عن النهيق وحضور الشيطان، وإنما ورد أن صوته منكر». قال الشاب الذي تسبب سؤاله بهذا السجال، ثم قرأ على الحضور من هاتفه النقال: «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف

رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين». ارتفعت الأصوات ، منهم من يقول الله رؤوف رحيم، ومنهم من لاحظ مساواة الله بين الحمير والخيول، وثالث يقول إنه لا يعقل أن ينسب إلى الرسول قول يتناقض مع القرآن.

كان الإمام صامتاً منصتاً حتى أشار إليهم بالاستماع فأصغوا. «قال تعالى: مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين»

«وماذا إذن؟» سأل المختار الإمام والحضور: «الله يشبه جهالة اليهود بجهالة الحمار الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهذا لا يعني أن الحمار يرى الشيطان؛ فينهق». وأضاف المختار متبسماً بين تأييد واضح من الحضور: «بل إن الله استعمل الحمار آية كما جاء في البقرة: وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير».

أوباما المسلم

«ربما هناك اتفاق أميركي روسي على دخول قوات ناتو وقوات دول عربية من تبوك إلى سوريا للتمركز على حدود فلسطين من جنوب لبنان إلى جنوب الأردن..»

«عقلك ضرب يا شيخ» قال المختار مقاطعاً وسط ضحك من بعض الحضور، واهتمام من آخرين طلبوا من المختار إتاحة الفرصة للشيخ ليكمل حديثه».

«..أنا أقول ربما، وهذا يعني أن السعودية رتبت الأمر، وهي بوسعها الإيعاز لداعش لتسكت أو تهاجم أو تعمل ما يتناسب مع ما يخططون..»

«وما الهدف من هذه الخطة يا شيخ؟ مضايقة إسرائيل أو الهجوم عليها؟»

«دعني أكمل يا مختار» قال الشيخ وردد الحضور على المختار الطلب نفسه. تحرك الشيخ قليلاً ورتب ساقيه تحت فخذيه ونفخ صدره قليلا وقال وهو يعدل وضع العمة: «الرئيس أوباما الآن في المرحلة الأخيرة لإدارته، وقد عطله الإسرائيليون وأنصارهم كثيراً في السابق، وربما، أقول ربما، يريد حشد القوات على الحدود والطلب من إسرائيل الانسحاب إلى حدود ١٩٦٧ على أن تضمن هذه القوات أمنها الذي تدعي أنه مهدد». صمت الشيخ وهنة وتمالك المختار نفسه ولم يتدخل بانتظار انتهاء الشيخ الذي أضاف: «تعرفون أن أوباما في الحقيقة مسلم ولكنه ادعى أنه مسيحي حتى ينجح في الانتخابات، ولكنه كثيراً ما ينسى نفسه ويظهر أنه بالفعل مسلم، وفرصته الآن التظاهر بالهجوم على داعش في سوريا ليحقق الحل لقضية الشرق الأوسط». تحولت أنظار المستمعين إلى المختار بانتظار التعليق.

«أوباما مسلم!!» قال المختار وسرح قليلاً ثم استأنف: «ربما كان مسلماً، ربما على رأي الشيخ. لكن أخبروني أنتم هل هو مسلم سني أو شيعي؟» لم يتلق إجابات وإنما سمع همهمات متضاربة. «إذا كان مسلماً فهو بالتأكيد شيعي بدليل تدليله لإيران في عقد صفقة المفاعلات النووية ومخالفته أمنيات إسرائيل وتمنيات الدول العربية السنية وفي مقدمتها السعودية..» اهتزت رؤوس المستمعين بالتأييد فأكمل المختار: «وإذا صدق هذا الرأي فالرئيس الأميركي يوقع بالسعودية والدول العربية السنية ويغرر بها للتدخل بهدف الاشتباك مع قوات روسيا المتربصة بهم إذا اقتربوا من سوريا. هذا طبعاً معناه نصرة لسوريا وإيران وتوسيع الهلال الشيعي من إيران فالعراق فسوريا ولبنان مع إضعاف وتدمير بل وهزيمة للقوات العربية السنية..»

«يا مختار..» قاطع الشيخ الرواية: «أميركا مشاركة بقواتها مع الناتو والعرب في الزحف، وإذا ضربتهم روسيا فهذا معناه حرب عالمية ثالثة وقصف نووي..»

«صحيح، كلامك في محله، ولكني أفترض أن أوباما مسلم شيعي، والدمار التقليدي أو النووي سيكون في بلدان عربية سنية، وإذا تطور القصف النووي ووصل إلى الولايات المتحدة فهذا أيضاً مصلحة إيرانية، ويكون أوباما قد انتقم من السنة ومن الشيطان الأكبر ومهد الطريق لهيمنة إيرانية مدعمة بروسيا النووية في كل الشرق الأوسط، يعني أصاب ثلاثة أو أربعة عصافير بحجر واحد». ارتفعت الأصوات

بالاستنكار والاستغفار وإعلان الاكتفاء بما أصابهم من الدمار والدعاء لله بإصلاح الحال؛ فحالهم يؤلمهم والحرب تنهشهم؛ فأطلقوا العنان لمخيلتهم.

ماذا بعد؟

اجتاز منتصف عربة القطار وهو ينظر إلى وجوه الركاب، ثم احتل مقعداً، وانطلق القطار من ساربروكن في ألمانيا إلى شتراسبورج الفرنسية في طريقه إلى باريس. فتح كتابه لمواصلة الرواية، لكن حديث عربيين لم يشاهد أنهما خلفه تماماً شد انتباهه، وبدا أنهما توقفا عن الحديث أثناء توقف القطار في المحطة ثم استأنفاه: «وهل يعقل أن الدوافع الشخصية هي التي تسبب هذه الفوضى في المنطقة؟»

«كما قلت لك قبل قليل، بل للنساء أيضاً دور رئيس فيما حصل». أجاب الثاني الأول محاولاً إقناعه وأضاف دون انفعال: «الخلاف السوري السعودي بدأ مع خلاف حافظ الأسد وأخيه رفعت الذي انتقل إلى باريس.. تعرف طبعاً أن إحدى زوجات المرحوم الملك عبد الله تكون أخت زوجة رفعت الأسد..»

«وأنت تريد القول إن زوجة رفعت حرضت أختها لتدفع الملك عبد الله لمعاداة نظام حافظ الأسد وولده بشار من بعده؟» كانت نبرة الاستهجان طاغية على سؤال الرجل الذي يبدو من صوته أنه أكبر الاثنين سناً.

«نعم، بالضبط، ولكن هناك أسباباً أخرى شخصية؛ فقد كان بشار الأسد يقلد القذافي في بهدلة الملك عبد الله وأمراء عرب أثناء

اجتماعات القمم العربية». لم يسمع المتحدث أي تعليق؛ فواصل حديثه: «يمكنك مراجعة تلك الاجتماعات على اليوتيوب لترى وتسمع وتستوعب سبب الحقد الذي دفع إلى تجنيد مرتزقة إنجليز رافقوا طواقم إعلامية تقدمت ببث مباشر من حدود مصر حتى وصلوا باب العزيزية في طرابلس ولاحقوا القذافي حتى فعلوا به ما فعلوه». أقفل الراكب الجديد كتابه حتى لا يرى أي منهما أنه عربي لو نظر إلى الخلف أو تحركا إلى عربة الطعام، أراد أن يتنصت عليهما لغرابة ما يتجادلان حوله.

«ومن نصبوا بعد القذافي؟»

«الفوضى، أصلاً لم يكن في مخططهم إصلاح حال ليبيا، ولكن تخريب بيت القذافي. أما في سوريا؛ فكان مسعاهم تنصيب رفعت بدل ابن أخيه لكن الأمور أفلتت منهم وما زالوا يمولون ويسلحون المعارضة ويتسببون بخراب سوريا، بل حولوا الأمر إلى صراع طائفي..»

«وانقلب السحر على الساحر.»

«هذا صحيح لأن مخططهم كان قصير المدى..» ظن المستمع أن مخططهم كان غبياً وواصل الإنصات. «انضمت إيران إلى سوريا وعززت نظام الأسد، وفتحت للسعودية جبهة توريط في اليمن، بينما واصلت السعودية حرق أسعار النفط لتضر بإيران، لكن ومع زيادة إنفاقها بخرت مدخراتها ولجأت الآن للتقشف والاستدانة وفرض ضرائب على شعبها وعلى الحجاج».

«الأهم من هذا وذاك أن طهران توصلت لاتفاق مع واشنطن والدول الأوروبية، وانضمت روسيا إلى إيران في دعم سوريا، وها هي الكوارث تتوالى على الدول التي تصدت لسورية». فهم المنصت أن المتحدث يقصد التفجيرات في السعودية وفي فرنسا وتركيا، الأولى مولت وسلحت، الثانية شجعت المرتزقة على السفر إلى سوريا للانضمام إلى المعارضة، وتركيا أردوغان لا تدخر وسعاً في تأزيم الوضع، وتوقع أن هذا الحال والتحالفات لن تدوم. «هل لاحظت أن دمار الربيع العربي لم يصب سوى الجمهوريات العربية؟»

«أصاب أيضاً الجمهورية الفرنسية والتركية، وكل دولة تدخلت سلباً يرتد كيدها إلى نحرها بشكل أو بآخر». ساد الصمت وهلة حين دخل القطار في غابة كثيفة، وتنبه المتنصت أن أضواء العربة كانت مشتعلة طوال الرحلة. وضع يده على جيبه بشكل تلقائي حيث التذكرة، وكان قد جهزها مع جواز سفره، ولكنهم قطعوا الحدود الألمانية الفرنسية ولم يسأله أحد للآن عن تذكرة أو عن جواز سفر. فجأة خفت ضوء العربة وطغى الضوء الطبيعي من الخارج حيث امتدت حقول الحبوب على مدى النظر. «قلت إن كيدهم ارتد لنحرهم، هل تعتقد أن لأجهزة الدولة السورية أي دور فيما يحدث في السعودية وفرنسا وتركيا؟»

«أما هكذا أو ربنا ينتقم للغلابى والأيتام..» سمعت ضحكة قصيرة من الاثنين وتلاها الصمت حين فتح باب العربة ودخل مفتش

التذاكر. قفز ذهن المتنصت إلى سبب الخلاف السعودي القطري في دعم نظام محمد مرسي وعبد الفتاح السيسي، على الرغم من التوافق بين الدوحة والرياض في الشأن الليبي والسوري. عادت الأمور تختلط في ذهنه؛ فالسعودية وقطر لم تتفقا ضد القذافي ولكن كلاً منهما سعى ضده. كذلك بالنسبة لسوريا؛ فرغم دعم البلدين للمعارضة إلا أن كلاً منهما تدعم معارضة معادية للأخرى وهذا ما أعاق اتفاق المعارضة على بديل يتصدى للنظام، أما في قضية مصر فإن إخوانها في ظل مرسي لم يكونوا وهابيين؛ فدعمهتم قطر ودعمت السعودية السيسي ضدهم.. أفاق المتنصت على توقف القطار؛ فحمل حقيبته وترجل في واحدة من أجمل مدن العالم بينما ذهنه يعج بقضايا متكررة منذ ١٥٠٠ عام.

ظاهرة صوتية

«وكيف أعرف من سينجح؟ كلاهما زبالة، واحد عنصري أهبل والأخرى بائعة نفسها لإسرائيل منذ عقود مضت وهي مشاركة في الكوارث التي حلت بنا».

«إذاً لديك رأي وتتابع ما يجري في واشنطن. «قال لصديقه الصحافي المخضرم الذي اعتكف السياسة والحوارات احتجاجاً على سلبية المواطن والمسؤول العربي، الذي لا يقرأ وإن قرأ لا يفهم وإن فهم لا يتصرف ضمن ذلك الفهم، كما يقول عنهم. «أثناء تقليبي

محطات التلفزيون المختارة أعرف طبعاً عن المناقشة بين المرشحين، ولكني غير متابع بالشكل الذي يؤهلني للإفتاء من منهما الذي سيفوز، وبصراحة لا يهمني؛ فكلاهما ضرر إلينا كعرب ومسلمين. أما إذا نظرنا إلى القصة من زاوية الشعب الأمريكي الشقيق، فأنا أحسدهم بقدر ما أتحسر على حالنا». تبسم صديقه إذ أخرجه عن ابتعاده عن التعليقات السياسية. تناول فنجان القهوة ليستدرج صديقه بإكمال رأيه. «قد يرى البعض أن المناقشات مهاترات، وأن الحملات الدعائية بهلوانيات، لكن هذه الأساليب توضح للناخب ماهية المرشح وبالتالي يختار من يناسبه ثم يلتزم الجميع بعد الانتخابات بالنتائج».

«ونحن لدينا انتخابات..»

«بالله تأكل عنب وتنقطنا بسكوتك..» قاطع صديقه مشيراً إلى طبق العنب بينهما. «انتخاباتنا، إن وجدت، فهي دون برامج أو مناقشات، وفي أحسن الحالات هناك وعود جوفاء متكررة. إذا كانت انتخابات رئاسية فهي بمرشح واحد ونتيجة مزيفة مضمونة، وإذا كانت انتخابات برلمانية فهي قبلية وعائلية أو حسب الدفع النقدي لكل صوت، ومع ذلك لدينا أحياناً مرشحون، بل قوائم مرشحة، لا تنال صوتاً انتخابياً واحداً. وأنت تحكي عن انتخابات، أو تريد مقارنة انتخاباتنا بانتخاباتهم.. اشرب قهوة».

«ماذا ينقصنا عن إجراء حملات انتخابية، محطاتنا الفضائية بالعشرات، وقدراتنا الإنشائية والخطابية لا تضاهى..»

«.. صحيح فنحن ظاهرة صوتية، ورزقنا الله كثرة المحطات..»
صمت مفكراً إذاً كان عليه مواصلة الانخراط في هذا الموضوع أو تغيير مجرى الحديث لقضية أخرى. خشي أن يجرح شعور صديقه إذا ظن تعاليه؛ فأكمل: «محطاتنا كثيرة ولكن معظمها مثل عدمه، والقلة التي يُقبل عليها المشاهد مسيسة تخدم مصالح أنظمة بنت حرام. المهم يا صديقي ليس القدرة على الخُطب، ولم يعد الآن ينقصنا الحصول على أي معلومة نريد. كنا نظن في الماضي القريب أن مشكلاتنا ناتجة عن سوء فهم العالم لنا، وعن نقصان من يتحدث عنا بمهارة، وأننا إذا أوضحنا قضايانا فسوف نكسبها ويتغير كل شيء للأفضل. هكذا غرقنا في بحر معلومات ولكننا نعجز عن حل أي قضية، بل أمورنا تتعقد نتيجة لنقصان الوعي وطبعاً لعجزنا عن اتخاذ أي قرارات إيجابية، اللهم القرارات التدميرية للذات والجار والأهل والحارة والوطن. هل تعتبر أن المتفاوضين السوريين من كل الأطراف بمثابة بشر أسوياء وهم يجترون التفاهات بينما الشعب يهرب من العذاب والوطن يذوب. هل القيادات الفلسطينية يمكن وصفها بالبشرية وهم يجلسون أعجز من العجزة، ويتمسكون بالجلوس على الخوازيق.. وخذ على هذا المقاس في ليبيا والعراق واليمن السعيد. ماذا ينفعنا كل هذا الاستعراض المتواصل لتحليلات ولأخبار وصور وأفلام لما يحدث في وطننا إذا لم يدفعنا كل هذا لاتخاذ قرارات تغير مجرى الأحداث..»

«.. مثلاً؟»

«مثلاً حراك شعبي متواصل في كل بلد يطالب بانتخاب قيادات جديدة كما حدث في تونس. إلى متى ينتظر الفلسطينيون الإقدام على انتخابات تضعهم على بداية طريق صحيح، هؤلاء لديهم مشكلات مكثفة ولا حل لها إلا بالانتخابات، بينما بقية الدول عليها الإصلاح والتغيير الفوري قبل أن تنفجر أوضاعها هي الأخرى. المشكلة أن المتسلطين لا يعنيهم تدمير البلاد والعباد إذا كان الحل يعني إحالتهم على التقاعد. هل تعلم أن غالبية الزعماء والرؤساء والملوك العرب أعمارهم بين الستين والتسعين، يعني إذا اجتمعوا فهم يتحدثون عن أنواع الأدوية التي يتناولونها؟»

«لكن كل محاولة تغيير أدت إلى كارثة حتى الآن..»

«نعم والسبب هو طول عهود الاستبداد وانعدام فرص التجارب والتدرج للأمام، فإذا انفجر الوضع يلوح في الأفق ما هو أسوأ. نحن بحاجة لتغيير متواصل بطرق ديمقراطية، وبحاجة ألح إلى نظم تعليمية منفتحة على الآخر وبمنهج علمي ومنطقي وتربية متسامحة، لكن المتوافر للأسف هو العكس..» توقف لوهلة يرتشف بقايا قهوته وأنهى حديثه من دون النظر إلى صديقه: «بين شيوخنا وسوء ترامب أو كلينتون؛ فنحن ماكلينها ماكلينها.. الأمريكان لديهم ثأر عند العرب والمسلمين من غزوة ١١ سبتمبر في نيويورك وعلى الرغم من كل ما فعلوه بنا لم ينتهوا من تصفية الحسابات بعد».

الغباوة والذكاء

كل المعلومات متوافرة في ذهنه، لكنه عاجز عن تنظيم الأفكار، بماذا سيبدأ وإلى أي مدى سيتعمق في مقالته الأسبوعية التي يكتبها في العادة خلال ساعتين. أبعد ناظريه عن الكمبيوتر وخط بقلمه ملاحظات: رغبة ميركل في تخفيض كلفة الإنتاج، ممارسات سلبية من المهاجرين، احتجاج أوروبي لأسباب اقتصادية، نمو العنصرية وتقدم أحزابها في الانتخابات، تفكك الاتحاد الأوروبي، أينما حل المسلمون تتولد المشكلات، الإرهاب يجند المجرمين، تراجع تعداد الأطفال، زيادة المخاوف الديمغرافية.. توقف لحظات وارتشف من كوب حليب وقرفة ساخن وخط: تجربة القرود الخمسة لصنع الأغبياء.

«بعد أن قرر عواجيز إنجلترا إخراج بلدهم من السوق وحرمان الأجيال الشابة من المستقبل الأوروبي المشترك وكان ذلك ضد رغبة سكوتلنده وأيرلنده الشمالية، ها هي فرنسا تؤنب ألمانيا على استقبالها أعداداً مليونية من اللاجئين إنتاج الحرب في سورية والعراق. ما ينساه الأوروبيون أن وضعهم الحالي نتج عن مخطط بريطاني متكرر تاريخياً للفساد. حكومة مارجريت تاتشر دخلت الاتحاد الأوروبي لتفجره من الداخل؛ فأصرت آنذاك على ضم دول أوروبا الشرقية للسوق دون استعداد للأمر وفتح الطرق لتنقل العمالة، وهكذا غزا البولنديون وجيرانهم دول السوق وفي مقدمتها بريطانيا التي تطالب حكومتها

الحالية من الشركات إعداد قوائم بأسماء عمالها الأجانب، غير البريطانيين. هذه الحكومة طبعاً هي نتاج الفصل البريطاني عن أوروبا الذي تم تحت شعارات طرد الأجانب من البلاد والتخوف من حركة اللاجئين إلى أوروبا والاستقلال عن بروكسل».

توقف عن الكتابة وراجع ملاحظاته وأيقن أن المقالة ستطول إذا لم يوجز ويختصر من المواضيع. «الرئيس والحكومة الفرنسية تتخوف من تقدم حزب العنصري لابان وابنته، لذا ترفض استقبال لاجئين وتؤنب ألمانيا على فعلتها لأسباب اقتصادية. المعروف أن ألمانيا دولة مصدرة للصناعات، لكن أجور عمالها مرتفعة وبالتالي تتراجع صادراتها باهظة الثمن مقارنة بالإنتاج الصيني والأوروبي. هكذا قررت المستشارة ميركل وحزبها تجيير الأزمة السورية بفتح الحدود لمليون سوري سنوياً تحت شعار إنساني. أناس تربوا وتعلموا في بلادهم لعقود ويتم الآن الاستفادة منهم فور تعلمهم الألمانية خلال بضعة أشهر؛ فتهبط أجور الإنتاج وترتفع معدلات التصدير والدخل وتتوافر الأموال الضريبية لصناديق الضمان والصحة والتقاعد، وتتخلص البلاد من إشكالية تناقص سكانها وإنتاجهم وقلة ضرائبهم وتحل مشكلة من سيدفع للمتقاعدين رواتبهم المرتفعة». أراد للفقرة التالية أن تشير إلى مسؤولية العرب عن تزايد العنصرية في الغرب ولكن عليه صياغتها بأسلوب مبطن لا يربط بين وجود العرب والمسلمين في أي مكان وتولد المشكلات.

«عندما تلتقي حضارات مختلفة تتولد مشكلات بالطبع، خصوصاً إذا كان أحدهما هارباً من حرب ضروس إلى بلد لا يقطنها ملائكة فقط. بضعة أحداث هنا وهناك، تحرش، إرهاب، سرقة.. استغلت من قبل انتهازيين عنصريين أشهروا سلاح حماية الألمانيات والثقافة والمسيحية، وضخموا كل حدث إرهابي في أوروبا. نما حزب متطرف وبدأ يكتسح مقاعد في الانتخابات المحلية، وتعاظم الضغط على المستشارة من داخل حزبها بضرورة التراجع عن سياسة استيعاب اللاجئين. على الرغم من تحلي المستشارة بالشجاعة فلا يمكنها مصارحة العوام من شعبها بأن الرب هو الذي أهدى لنا هؤلاء اللاجئين الصناع المتعلمين لسد حاجتنا من نقص النسل والعمال والأموال ودفع رواتب العواجيز والعاطلين عن العمل ورواتب العنصريين.. مصارحة كهذه ستعني نهايتها وحزبها».

لديه اقتناع أن ميركل لن تصارح شعبها والعالم بحقيقة سياستها، لذا أراد للفقرة قبل الأخيرة من مقالته أن تعكس احتمالات ما سيؤول إليه الوضع ضمن المعطيات الحالية. «إذا تواترت الأحداث وقرر شعب آخر غير الإنجليز الانسحاب من الاتحاد الأوروبي، ونجح المتطرفون في فرنسا وهولندا في الانتخابات القادمة، مع تزعزع أو هزيمة للمستشارة ميركل؛ فهذا سيؤدي إلى سيادة الأغلبية الغبية سهلة الانقياد سعياً لإرجاع الماضي الذي يتصورونه سعيداً قبل الغزو الإسلامي العربي الأجنبي لبلادهم. هكذا سيعودون بسهولة للتفرقة

والصراعات الأوروبية التي استمرت قروناً قبل نشأة الاتحاد الأوروبي، والعودة للتراجع الاقتصادي، وبالطبع سيكون الفتح الإسلامي من المهاجرين لأوروبا قد حقق بداية غاياته على طريق إزالة الفوارق بين البلاد المسلمة وأوروبا».

تبقى يومان على موعد الانتخابات الأميركية، وهو يعايش الآن مجريات التراشق بمواضيع جوفاء بين المرشحين، دعارة، اتهامات جنسية، قصص تحرش للمرشحين، معاداة للأجانب. الذي يقلقه هو وجود نسبة عالية من الأمريكيين يؤيدون بالفعل المرشح الجمهوري ترامب وهذا ما أعاد لذهنه قصة القرود الخمسة؛ فقرر أن ينهي بها مقالته هذه كونها تعكس تمسك الرعية بشعارات وعادات متوارثة وغير منطقية.

«وضعت خمسة قرود في قفص وعُلق لها قطف موز وتحته سلم. عندما صعد القرد الأول السلم لأخذ موزة تلقى مع كل الآخرين سيلاً من الماء البارد؛ فتراجع عن غايته. حاول لاحقاً قرد آخر التقاط موزة؛ فتكرر الضرب بالماء البارد المزعج، وهكذا كفت القرود عن التطلع للموز. أخرج أصحاب التجربة قرداً وأدخلوا إلى القفص بديلاً له. على الفور توجه القرد الجديد إلى السلم سعياً للموز ولكن القرود الأربعة منعته واستعملت معه الضرب. تبع ذلك استبدال قرد آخر من الأربعة التي عايشت الرش بالماء البارد. القرد الجديد الثاني توجه إلى السلم وتلقى فوراً الضرب المبرح من الأربعة بما فيها القرد الذي لم يعايش

تجربة الماء البارد. استمرت التجربة حتى تم استبدال كل القرود التي عوقبت في الأصل بالماء البارد، لكن القرود الجديدة واصلت منع أي واحد جديد يُستبدل من الاقتراب من الموز وهي لا تعرف السبب الذي يدفعها لضرب كل جديد تسول له نفسه مخالفة العادات السائدة».

راجع مقالته تلك بعد خمس سنوات؛ فوجد أن ترامب قد نجح مرة وأزعج شعبه والعالم ثم فشل في الانتخابات التالية، والعنصرية تقدمت في أوروبا وتغلغلت أحزابها في البرلمانات؛ بل إن الحزب الفاشستي شكل وترأس الحكومة في إيطاليا، وبريطانيا واصلت الانهيار الاقتصادي بعد خروجها من الاتحاد الأوروبي، وحدثت استقالات متتالية لرؤساء الوزراء، وكان ما ساعد في ذلك التحول دخول القوات الروسية إلى أوكرانيا واشتعال الحرب، وتقديم أميركا وأوروبا مساعدات اقتصادية وعسكرية باهظة، ومن ثم مقاطعة روسيا وحرمان الغرب من الغاز الروسي وتعطل التدفئة المريحة وتعثر المصانع الغربية.. وكوارث أوروبية قيد الانتظار.. شعر بالارتياح؛ خصوصاً لما أصاب بريطانيا.

الخراب

حمير وبشر

في فترة هدوء للقصف، عزل ذاته عن الخوف والهلع والآخرين وباشر يتأمل: لماذا نتعود الأمور ونستسلم للمجريات المتكررة من دون أن نفكر في العواقب أو نسعى للتغيير؟ أليس هذا فعل حمير وحيوانات السواقي أيضاً، وحجة الشيوخ في اعتماد المقدس كمقدس غير قابلة للنقاش، وبالتالي لا مجال للنقد والتطوير والضرر بمصلحة فريق المقدسين؟ ألا يعم الخراب والفساد والفقر والحروب ويتكرر حيث يسيطرون؟ «أنا مخطئ ومذنب وشريك في صنع الكارثة واستمرارها؛ فأنا لم أتصد لهم في فترات السلام بما فيه الكفاية، ولم أطالب بالتغيير ولم أستقتل في رفع مطالب الانتخابات.» قال لذاته وتذكر أنه عاش على فتاتهم وأمن شرهم حتى وصل إلى هنا.. إلى أبواب جهنم نفسها.

قنبلة الطن

رفض الذهاب حيث كانت العمارة التي استثمر فيها كل رصيده واستدان ليكمل البناء، واتخذ إحدى شققها سكناً له وأجر البقية. رفض الذهاب بعد أن بلغه تفاصيل زوالها وبقاء حفرة حيث وضع أسسها.. يريد أن تبقى قائمة في مخيلته. حمد ربه الذي ألهمه لإنقاذ

ذاته والجيران. كان قد استنتج معرفة العدو لكل أعضاء حركة المقاومة وتتبع تحركهم عبر هواتفهم، وتذكر أن اثنين من مستأجريه ينتميان إلى المقاومة.

أفاق فجراً على هاجس، وضرب أبواب كل الشقق محذراً السكان أنه تلقى إنذاراً بقصف المبنى، وأنهم لم يحددوا ساعة القصف.. غادروا، ونزح هو إلى بيت نسيبه زوج ابنته، وقبل صلاة الظهر جاءه خبر القنبلة الأميركية والحفرة التي بقيت له.

الفخ

مَن الذي نصبه لنا؟ أذكياء العدو، أم أغبياء الذات؟ قال بصوت مسموع وهو يجالس ذاته بذاته: لقد اتضح لي أنه فخ مُحكم منذ هرولة قادة العالم الغربي إلى تل أبيب، وفتح المجال لهم ليدافعوا عن أنفسهم كيفما شاءوا. قال بعد صمت: السؤال مُحير كوني شخصياً فرحت يوم السابع من أكتوبر، وظننت أنه قد آن الأوان لأحزم حقائبي لأعود إلى يافا.. لقد صدّقت لوهلة توافر القدرة على التخطيط والتنفيذ وأننا أوقعنا بهم.. نعم راودتني شكوك بتصديق أن الشيوخ لديهم قدرة التخطيط، لكن الواقع قال نعم في الأيام الثلاثة الأولى، ثم في أسابيع التصدي، وما قيل عن أنفاق ٧٠٠ كيلومتر!! ظننت استحالة أن لا يكون بعضها ممتداً إلى يافا وتل أبيب والقدس. إذاً لقد استعد الشباب للفخ وسيصعدون من تحت الأرض لتوجيه

ضربات، وخلق رادع فعال ضد التغول المحتمل لعدو تم وضعه أمام مخاوف الفناء.

مرت الأيام ودارت الشهور وأصبحنا نحصي الشهداء المدنيين بالمئات ثم بالآلاف ثم بعشرات آلاف الضحايا والجرحى ودمار كل شيء، ولا رادع خرج من تحت الأرض، ولا ردع آخر من فوقها.. يا لغباوتي المطلقة حين صدقت لوهلة قدرة الشيوخ الغيبيين على إعداد فخ، ولو كان من إعدادهم لوجب القول إنهم أوقعونا في الفخ، ولا يهم لماذا وكيف، ولكن النتيجة هي الصادقة.

غزوة مانهاتن

أغمض عينيه وركز ذهنه للربط التاريخي بين ما جرى ويعلم به من المطالعة، وبين ما يجري ويعايشه ويركض تحت سياطه ويحاول الإفلات من بين أنيابه. في يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ غزا المتنطعون مانهاتن وهدموا البرجين عبر بث مباشر لاصطدام الطائرات، وقفز البشر من الشواهق للنجاة من النيران.. ثلاثة آلاف ضحية، وما بدا اغتصاباً للبيت الأميركي سيد العالم، وفرحة العرب والمسلمين سواء الشعبية العلنية، أو الأخرى الصامتة؛ فقد وصل الصبر مداه قبل ذلك على الانحياز الظالم من دون جدوى.

جاء المنظر الثاني التابع للأول في مخيلته: الانتقام الأميركي؛ فهؤلاء ليسوا كالبدو الذين يأخذون الثأر بعد ربع قرن ويقولون، لقد

استعجلنا. الأميركان دائماً مستعجلون إذا كان الأمر يعنيهم. قصفوا أفغانستان وغزوها، كونها تؤوي بن لادن وجماعته، ومن ثم ألبسوا التهمة للرئيس صدام؛ فدمروا العراق واحتلوه وشنقوا الرئيس ليلة عيد الأضحى لتكون رسالة للجميع، وتسببوا بقتل أكثر من مليون عراقي.

كاد ذهنه يباشر المقارنة ويفند بين ما يجري في قطاع غزة من حوله وبين ما جرى في العراق، لكنه ردع ذاته وتعمق في مشهد تاريخي ثالث أقدم: تسجيلات شهود عيان من الطرفين عما فعله الصليبيون، أكلوا الأطفال العرب بعد شيهم، وذبحوا بالسيف عشرات الآلاف يومياً، وبقروا البطون وأخرجوا الأحشاء، وسارت خيولهم بين الجثث ووصل الدم إلى ركبها.

المشهد الرابع: أحفاد الصليبيين إذاً خلقوا الصهاينة ويدعمونهم لامتصاص الدماء. هل ما يحدث الآن ببشاعة ما حدث آنذاك؟ ربما أبشع، قال لذاته؛ فالجثث في كل الشوارع، وتحت الأنقاض وكل الناس نازحة هاربة مذعورة، ولا مكان يعودون إليه إذا توقفت الحرب، وهذا إرهاب نفسي شديد يؤدي إلى الشعور بالضياع.. فتح عيونه وهو يتمتم أن كل العالم يعرف ويشاهد ما يحدث، الرسميون الصليبيون يدعمون الإبادة، واللجان والمؤسسات الدولية تماطل في الحسم، وفئات متزايدة من الشعوب تتعاطف مع الضحايا، لكن الإبادة مستمرة.. قرر أن ينهض ويراجع المذابح الكبرى في المنطقة وإذا كانت قد أدت

لانتقام وردود فعل، أم أنها تتوالى ويتم تناسيها لألفية أو أكثر، وهل العرب يسيرون بحكم وعادات البدوي، أو تحولوا إلى غنم وإبل؟

غنم وإبل

«لماذا نركز على إتهام الأغيار بالعنف والغباوة والسفالة.. ماذا عن العرب والمسلمين، بل والأوائل منهم»؟ ظن أنه لو بدأ بتعداد المقتلات قبل الإسلام لما انتهى من السرد.. «إذاً لنركز على المفاصل بعد الإسلام المفترض أنه هذب ووظب العرب وجعلهم خير أمة». صار يسترجع ويراجع ليتحقق: (موقعة الجمل) في البصرة عام ٣٦ هـ بين قوات الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب والجيش الذي يقوده الصحابيَّان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، بالإضافة إلى أم المؤمنين عائشة زوجة النبي محمد والتي قيل إنها ذهبت مع الجيش في هودج من حديد على ظهر جمل، وسميت المعركة بالجمل نسبة إلى ذلك الجمل.. كلهم من الصحابة، وكل منهم يريد القيادة والزعامة ومستعد لقتل الآخرين.. هنا انتصر الإمام علي. في العام التالي وبعد رفض معاوية ابن هند (التي أكلت كبد حمزة) وأبي سفيان مبايعة الإمام علي حدثت حرب صفين، التي قُتل فيها نصف جيوش المسلمين من الطرفين، وجلهم من الصحابة.

مرت بعض السنوات من الشقاق لدولتين، وتواصل الصراع حتى تنازل الحسن ابن ووريث الإمام علي لمعاوية بشروط، وبعد موت

معاوية تم قتل الحسين في كربلاء عام ٦١ للهجرة والتنكيل بأحفاد النبي نفسه. عام ١٣١ للهجرة انتهى حكم الأمويين في دمشق عبر ثورة دموية للعباسيين بقيادة السفاح بدأت من فارس والعراق.. هنا تبدأ أنواع وألوان الانتقام، والتقتيل.. وهي مذبحة لم تنته هناك، ولكنها تتكرر حتى يومنا هذا بأشكال متشابهة وأحجام متنوعة.

الخليفة العباسى الأول أبو العباس السفاح جمع من تبقى من الأمراء الأمويين وأمر بذبحهم أمام عينيه ثم غطى جثثهم ببساط ودعا بطعام وأخذ يأكل ويشرب بينما لا يزالون يتحركون في النزع الأخير، وهناك من يضربهم على رؤوسهم حين تتحرك، كما أنهم قاموا بنبش مقابر جميع الأمويين أينما وجدوها، وقاموا بمحاكمة بعض الجثث وحرقها.

في العام١٣١ للهجرة هُزم مروان بن محمد في معركة الزاب على يد عبد الله بن علي عم الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح، وتابع جيش العباسيين مسيره من شمال العراق قاصدًا دمشق التي كان مروان بن محمد قد تحصّن بها، غير أنّ أهل دمشق لا سيّما القبائل القيسية رفضوا مناصرته بل وقفوا ضدّه، لفتن عديدة نشأت منذ ضعف الدولة الأموية، كان منها نقل مروان بن محمد عاصمة الدولة من دمشق إلى حران.

صمدت دمشق شهرًا ونصف الشهر للحصار كما تنقل أغلب الروايات، ثم تمكن العباسيون من نقب السور عند باب الصغير، وقتل بنتيجة المعركة الوليد بن معاوية قائد الجيش الأموي المرابط فيه، ومنه

فتحت الأبواب، وارتكب العباسيون عند دخول حاضرة الخلافة الأموية قسطًا وافرًا من عمليات النهب والتدمير، وقد قال المقدسي إن عبد الله ابن علي أمر بأن يهدم السور حجرًا حجرًا، وقال ابن عساكر إن الجند العباسيين كانوا يجزّون الرؤوس في الطرق وينهبون ما يحصلون عليه من الأموال، كما قتلوا أغلب أعضاء الأسرة الأموية وصلبوا بعضهم الآخر من أمثال عبد الله بن عبد الجبار بن يزيد، ولم تسلم الأمويات؛ فعلى سبيل المثال نقل البلاذري أن زوجة هشام بن عبد الملك اقتيدت إلى البريّة وهي سافرة وحافية ثم قتلت فيها، كما أقدمت ابنة مروان بن محمد على الانتحار، وحتى أموات بني أمية نبشت قبورهم وأحرقت بقايا جثثهم.

خطر له فجأة الصراع الشيعي السني المتواصل منذ ذلك الزمان، واقتتال حركتي فتح وحماس على السلطة في غزة عام ٢٠٠٧ وما تلاه من ضياع، وعناد ورفض المصالحة والاتفاق حتى الآن على الرغم من الإبادة القائمة؛ فكل منهما يرفض التوافق والاتحاد مع الآخر! «هذا غيض من فيض مما نفعله ببعضنا كمسلمين وكعرب وكفلسطينيين، لنرى إذاً عينات من أفعال الغير بنا»..

الصليبيون

روى ابن الأثير في تاريخه عن دخول الصليبيين للقدس في الحروب الصليبية؛ فقال: «مَلَك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة،

لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود؛ فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف».

من الجانب الآخر وصف ستيفن رنسيمان في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون؛ فقال: «في الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين؛ فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث».. يا لهول التشابه، الفارق في نوع الأسلحة فقط، ظن وعاد يقارن.

وصف كثير من المؤرخين أحداث المذبحة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين إليها، وكيف أنهم كانوا يزهون بأنفسهم؛ لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع، وقد كان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال

المسلمين كما تشوى النعاج.. قال لذاته: إن المتدينيين اليهود لم يصلوا إلى مرحلة شواء الأطفال ولكنهم ردموهم تحت البيوت بعلم وعن عمد، وكان حاخامات الجنود يحثونهم على التدمير والقتل ثم ينفخون في البوق قبيل تحرك الجند إلى آلياتهم ومدافعهم لقتل الغزيين.

بالعودة إلى المتدينيين المسيحيين، يذكر الكثيرون ماذا فعل ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة – عند احتلاله عكا – بأسرى المسلمين؛ فقد ذبح ٢٧٠٠ أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكا، وقد لقيت زوجات وأطفال الأسرى مصرعهم إلى جوارهم.

ذكر «غوستاف لوبون» في كتابه «الحضارة العربية» – نقلاً عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبية على القدس – ما حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على حقد ديني أسود متأصل في نفوس ووجدان الصليبيين. قال شاهد العيان الراهب روبرت: «كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه؛ فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية! فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث».

تبسم وهو يتذكر أفعال جند إسرائيل وعلاقة البشري بالنهب في الحروب؛ فجند اليهود كانوا أيضاً وبعد كل موجة تدمير وترهيب في غزة ٢٠٢٤ يدخلون البيوت وينهبون ما فيها، وطبعاً نهبوا خزنات البنوك، وعادوا لتدمير كل أثر بعد ذلك.

قال الكاهن ريموند داجميل شامتاً: «حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها؛ فقد قطعت رؤوس بعضهم؛ فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم؛ فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحُرق بعضهم في النار؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا».. لله درك من تاريخ تتكرر بأسماء مختلفة وفي جغرافيا متنوعة، ولكن بالأحداث نفسها النابعة من الحقد الديني الأسود.. كل الأديان وأربابها هم من يستحقون ما يجري للمساكين المُضللين عبر التاريخ.

إليكم وصفاً من الماضي لما يحدث في حاضر قطاع غزة.. قال الكاهن نفسه: لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء (!) بذلك؛ فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على

إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى – الذين كان عددهـم ستين ألفاً – فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقـوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً.. ويقول: وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها: ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع والمختبئين في السراديب؛ فأهلكوا ما يزيد على مائة ألف إنسان، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية وغيرها بيد الصليبيين. نهاية القول، ولن يستوعب المقارنة سوى سكان قطاع غزة، وذلك على الرغم مما تتناقله المحطات التلفزيونية من صور وشروحات وأفلام.. فهذا شيء والحقيقة المعيشة شيء آخر.

لحوم البشر

في النصف الميلادي الأول كانت منطقة أرمينيا متنازعاً عليها بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفرثية، التي سبقت تشكل الإمبراطورية الفارسية، وحين عين الفرثيون ملكاً لأرمينيا قرر الرومان غزو أرمينيا. استغل اليهود فرصة تحرك الجيوش شرقاً وثاروا ضد الحكم الروماني في حوض البحر المتوسط و–تحديداً– في قبرص وبرقة الليبية والإسكندرية، وكان اليهود يعيشون مثل غيرهم في ظل الرومان، ولكنهم اعتبروهم كفاراً.. وكان ذلك قبل انتشار الدين المسيحي الذي لاقى بدوره العداء من اليهود.

في قبرص بدأت مؤامرة اليهود تتوسع بسرعة وذلك عام ١١٧ بينما القوات الرومانية في طريقها إلى الشرق تحت قيادة الإمبراطور تراجان. نهب اليهود جيرانهم الإغريق والرومان، ونهبوا وأبادوا مدينة سلاميس القبرصية، وأفاد المؤرخ كاسيوس ديو، بذبح الثوار اليهود ٢٤٠ ألفاً من القبارصة اليونانيين. ومع تقدم جيش تراجان مظفراً في بلاد الرافدين، بدأ الثوار اليهود في أعقابه يهاجمون الحاميات الصغيرة التي تتخلف عنه. وكانت الفوضى اليهودية قبل مذبحة سلاميس قد امتدت ووصلت برقة (ليبيا) البعيدة، والإسكندرية في مصر، ثم قبرص. وحرض اليهود على قيام ثورة في فلسطين، وانتشر العصيان المسلح اليهودي بخفة إلى الولايات التي كانت قد تعرضت للغزو حديثاً في الشرق وبلاد الرافدين. انضمت المدن التي تضم عدداً معتبراً من اليهود –نصيبين والرها وسلوقية وأربيلا (حالياً: أربيل في العراق)– إلى الثورة وفتكت بالحاميات الرومانية الصغيرة الموجودة فيها.

المهم ليس مبدأ الثورة ضد الإمبراطورية، ولكن الصبغة الدينية المتعصبة والانتقامية ضد العبادات الأخرى السائدة في الإمبراطورية. في برقة، دمر اليهود العديد من المعابد، من بينها المعابد التابعة للآلهة هيكاتي وجوبيتر وأبولو وأرتميس وإيزيس، إلى جانب البنى المدنية التي كانت بمكانة رموز لروما، ومن بينها معابد للسيزاريوم والبازيليكا والحمامات العمومية.

بلغ العنف في برقة أن أفرغ الولاية من سكانها إلى درجة دفعت

الإمبراطور التالي، هادريان إلى تأسيس مستعمرات جديدة: «اليهود... شنوا حرباً على السكان في أنحاء ليبيا بأكثر الأساليب همجية؛ فعم الخراب البلاد إلى حد كبير، إذ ذُبح من يحرث الأرض، وكانت الأرض لتبقى غير مأهولة لو لم يجمع الإمبراطور هادريان المستوطنين من أماكن أخرى وأرسلهم إلى هناك، لأن السكان مُسحوا عن بكرة أبيهم». وأضاف المؤرخ كاسيوس ديو متحدثاً عن حركات التمرد اليهودية: «في الوقت الذي عين يهود منطقة قورينا (برقه، ليبيا) شخصاً يدعى أندرياس قائداً لهم وراحوا يدمرون الرومان والإغريق معاً. كانوا يطبخون لحمهم، ويصنعون الأحزمة لأنفسهم من أحشائهم، ويدهنون أنفسهم بدمائهم، ويرتدون جلودهم كأنها ملابس. قطعوا العديد منهم إلى نصفين من الرأس حتى الأسفل، وكانوا يلقون بآخرين إلى الوحوش البرية ويرغمون غيرهم على القتال مثل مقاتلي الغلادياتر. وبالنتيجة الإجمالية، هلك مئتان وعشرون ألف شخص. في مصر أيضاً، اقترفوا العديد من الأفعال المشابهة، وفي قبرص تحت قيادة أرتيميو. وهناك، بالطريقة نفسها، لقي مئتان وأربعون ألف شخص مصرعهم. ولهذا السبب لا يستطيع يهودي أن يطأ تلك الأرض بقدمه، حتى لو ساقت الريح أحدهم إلى الجزيرة؛ فسيكون الموت مصيره». -بالطبع- تم القضاء على الثورات بعنف ولم يحقق اليهود على أثر ذلك سوى الكراهية داخل الإمبراطورية الرومانية، لكن اليهود عادوا في كل فرصة للتحالف مع الفرس في حروبهم ضد الرومان.. اليوم

يتحالفون مع أتباع الصليبية لإبادة الشعب الفلسطيني والاستيلاء على أرضه. صحيح أنهم لم يعودوا يطبخون الضحايا، ولكنهم يجوعونهم ويتركون جثث القتلى في الشوارع نهشاً للمفترسات.

مجرمون آخرون

بعد مائة عام على مجازر الصليبيين التي لم تتوقف، وفي عام ١٢٩١ للميلاد نجح المماليك في طرد الصليبيين نهائياً من سواحل بلاد الشام بعد احتلالهم لها مدة قرنين، وبعد سبع حملات صليبية على الأناضول والشام ومصر سقط فيها مئات الآلاف من الأبرياء بأساليب همجية تماماً، واصطدم فيها المشرق الإسلامي بموجات متلاطمة من صليبيي أوروبا بمختلف لغاتهم وانتماءاتهم الدينية وأمراضهم الفكرية.. قبل ذلك بـ٣٣ عاماً كان قد سقط آخر خلفاء بني العباس وسقطت معه بغداد، يوم ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ، وقتل من أهلها ما يقرب من مليون مسلم في أربعين يوماً ولكن هذه المرة على أيدي البدو المغول، الذين دمروا مكتبة بغداد، وألقوا الكتب فى نهر دجلة؛ فتحولت مياهه إلى اللون الأسود من أثر الحبر، وانساب جنود هولاكو في الشوارع، ينهشون المسلمين، وسالت الدماء بكثرة، وقُتل الرجال والشيوخ والنساء والأطفال الرضع.

يقول مؤرخ المغول «رشيد الدين الهمذاني» إن قتلى تلك المذبحة ٨٠٠ ألف شخص من خيرة الرجال والنساء والعلماء والأدباء، بل إن

بعض الناس اختفوا في الآبار وماتوا فيها، وكانت المذابح بالجملة؛ فكانت تقتل العائلة كلها دفعة واحدة، وكبار السن لم يسلموا منهم، وكان همهم أيضاً قتل الأطفال.. ما سر عداء المتوحشين للأطفال في كل عصر؟

يشير المؤرخون إلى أن المغول استخدموا كل الطرق الوحشية في قتل وتعذيب وإهانة سكان بغداد، وكان همهم سلب الناس حليهم وسرقتها. ومن أغرب ما يروى أن أحد جنود المغول شاهد امرأة مخمرة ابتلعت لؤلؤة لتخفيها؛ فقام ببقر بطنها لإخراج اللؤلؤة، وانتشر ذلك بين جنودهم؛ فزهقت أرواح النساء، خصوصاً الحوامل ظناً منهم أنها مملوءة بالجواهر، بل إن الناس ظنوا أن الساعة قد قامت، حتى إن المؤرخ ابن الأثير يقول: «لو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً».

قفزة زمنية

تمر القرون تباعاً من دون خلو أي منها من الحروب والتقتيل والظلم والاستغلال.. الظلم والعبودية لفئة يقابلها أرباح وتسيّد لفئات أخرى. في العام التالي على بداية الحرب العالمية الأولى، التي عُرفت في حينه بالحرب العظمى التي ستنهي كل الحروب، حدثت مذابح للأرمن في تركيا، حيث قُتل مئات الآلاف بأوامر من الوالي العثماني، وذلك بداية من أبريل ١٩١٥، وكانت الدولة العثمانية آنذاك ضمن

دول المحور التي تحارب ضد دول الحلفاء. عدد ضحايا مقتلة الأرمن تجاوز المليون قتيل، وهم مجموعات مسيحية تم قتلهم من قبل الدولة العثمانية، حيث تم إجبار المئات من الأرمن على السير مئات الأميال إلى الصحراء، وتم حرمانهم من الطعام والماء أثناء المسير، والتمثيل بالأطفال والنساء ببشاعة.

كان الأرمن من ضمن المجموعات الاثنية التي تعيش ضمن الدولة العثمانية، وحين باشرت قوى الغرب مثل روسيا وبريطانيا تفرض معاهدات على تركيا تطالبها بمنح الحريات والاعتراف بحقوق الأقليات باشر الأرمن التشجيع وطالبوا بتطبيق ما جاء في الاتفاقيات التي لم يكن السلطان عبد الحميد يفكر في تطبيقها.. كانت النتيجة مذبحتين صغيرتين قبل الحرب، ثم تقتيل وترحيل للأرمن إلى البلاد المجاورة، مثل اليونان وقبرص وبلاد الشام ومصر. تمت تلك الجريمة في ظل الحرب العالمية التي شغلت الجميع وانتهت في نوفمبر ١٩١٨ بهزيمة لتركيا ودول المحور، وبنتائج دمار هائلة لم يسبق لها مثيل حتى حينه. كان العدد الكلي للإصابات والقتلى في صفوف العسكريين والمدنيين في تلك الحرب أكثر من ٣٧ مليون نسمة، مقسمة إلى ١٦ مليون حالة وفاة و٢٠ مليون إصابة.

سلاح التجويع.. دوماً

وقعت في أوكرانيا مجاعة بين الحربين العظميين، بين عامي

١٩٣٢ و١٩٣٣، وخلفت تلك المجاعة نحو ١٠ ملايين قتيل (ثلث عدد سكان أوكرانيا وقتذاك)، ويقال إنها دفعت بتنامي ظاهرة أكل لحوم البشر، ويتفق معظم المراقبين الغربيين والأميركيين على أن تلك المجاعة تمت عمداً بيد الزعيم السوفييتي، جوزيف ستالين، إلا أن روسيا ترفض دفع أي تعويضات لضحاياها.

وفي القرن ١٩ وبالتحديد من ١٨٤٥ إلى ١٨٤٩، اجتاحت إيرلندا- التي كانت حينذاك تابعة للإدارة البريطانية- مجاعة كبيرة باتت من أهم الأحداث المحفورة في تاريخ البلاد وذاكرة الإيرلنديين وعرفت بـ«مجاعة البطاطا» التي تسبب بها وهندسها المستعمر البريطاني. خلال «مجاعة البطاطا» اضطر أكثر من مليون إيرلندي للهجرة إلى الولايات المتحدة، في حين لم يملك أبناء الطبقة الفقيرة سوى البقاء في ديارهم، في مشهد أشبه بالاستسلام للموت.. و-بالفعل- نصف الأيرلنديين ماتوا.

في ذروة المجاعة امتدت يد العون للشعب الإيرلندي من حيث لم يتوقعوا، من العثمانيين الذين يبعدون عنهم آلاف الكيلومترات، وكذلك الولايات المتحدة على الجانب الآخر من المحيط والتي أرسلت عشرات السفن الإغاثية محملة بالمؤن الغذائية. كانت إيرلندا حينذاك واحدة من مستعمرات بريطانيا، ورفضت حكومة لندن السماح لسفن المساعدات العثمانية بأن ترسو في ميناء دبلن، لذا؛ رست بميناء دروهيدا الذي يبعد ثلاثين ميلاً عن ميناء دبلن، وأفرغت حمولتها

هناك.. ولإبعاد السلطات البريطانية عن السيطرة والتوزيع أصبح البحارة العثمانيون ينزلون الحمولات في مناطق متنوعة على شواطئ أيرلنده.. اشتغل ذهنه بسرعة؛ فقد تذكر قول برلماني أيرلندي وهو يبرر اعتراف دبلن بالدولة الفلسطينية، مع النرويج وأسبانيا، قال: نشترك مع فلسطين في مأساة الاستعمار والتجويع... فحص ذاكرته؛ فوجد أن النرويج أيضاً تعرضت للاحتلال السويدي الجار، وأن أسبانيا عانت الحكم الفاشي حليف النازي حتى مطلع السبعينيات.. هذه شعوب تعرف ما يعانيه الشعب الفلسطيني، ولديها الشجاعة لاتخاذ موقف.

مذبحة و«اغتصاب» نانكينج

في عام ١٩٣٧ ارتكبت القوات اليابانية بحق سكان مدينة «نانكينج» الصينية مذبحة شنيعة، وكان ذلك خلال الحرب الصينية اليابانية، وخلفت المقتلة ما بين عشرات إلى مئات الآلاف من القتلى ونحو ٢٠ ألف حالة اغتصاب موثقة. -بالطبع- حاولت الحكومات اليابانية المتتابعة التقليل من شأن تلك المجازر، بل يحاول البعض إنكارها كلية، حتى الآن.

لندن برلين غزة

كان يسمع الانفجارات، وتؤكد له مشاعره ارتجاج الأرض من تحته، لكن الدمار لم يعد إليه مجدداً كما حدث قبل أسبوع حين أزال

صاروخ البيت المقابل على مسافة عشرة أمتار، وطارت أبواب ونوافذ كل الحارة، وزال أثر بيت الجيران واصطبغت الدنيا باللون الرمادي. ذلك لم يتكرر الآن، وهو ما زال يبحث، عبر الإنترنت واسترجاع معلوماته، عن مآسي العالم ليخفف من مأساته ومن هم حوله.. هل يتطور الإنسان من الداخل فعلاً، أو ما يتغير ويقال إنه تطور هي قشور خارجية؟ سأل ذاته ثم تأمل كيف لشعوب عانت التدمير والإبادة أن تتقبل ما يحدث لشعبه الآن من إبادة؟ اللهم نفسي إذاً! أجاب ذاته: إنني لم أحزن على موت أو تدمير الآخرين، وربما شعرت بشماتة حين أصابتهم أي كوارث.. لكن هناك الآن عبر العالم من يكترث للفلسطينيين ويعرض ذاته للأذى والمسألة في سبيل دعمهم.. هؤلاء بشر إنسانيون أكثر مني.

بين عامي ١٩٤٤-١٩٤٥، عانت لندن أضراراً جسيمة، حيث تعرضت للقصف على نطاق واسع من قبل سلاح الجو الألماني. قبل القصف تم إجلاء مئات الآلاف من الأطفال في لندن إلى الريف، ولجأ المدنيون من الغارات الجوية إلى محطات المترو، في المدة الأولى للقصف نزل على لندن ١٨٠٠٠ طن من المتفجرات. مع نهاية الحرب قتل ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠ من سكان لندن بسبب القصف، وأصيب أكثر من ٥٠٠٠٠ شخص بجروح خطيرة، دمرت عشرات الآلاف من المباني، وتشرد مئات الآلاف من الناس.

عندما دارت الدوائر على ألمانيا، وحتى نهاية الحرب، تعرضت

العاصمة برلين إلى ٣٦٣ غارة جوية، إذ قُصفت من قبل سلاح الجو البريطاني بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٥، ومن قبل سلاح الجو الثامن الأميركي بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٥، والقوات الفرنسية بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ كجزء من حملة ضد ألمانيا، وتعرضت أيضاً لهجوم من طائرات سوفياتية، وخصوصاً في عام ١٩٤٥ عندما حاصرت القوات السوفياتية المدينة. أسقطت القاذفات البريطانية ٤٥٥١٧ طناً من القنابل، وأسقط الأمريكيون ٢٣٠٠٠ طن. نزح المزيد والمزيد من الناس مع استمرار القصف. فر ١،٧ مليون شخص (٤٠ ٪ من السكان) بحلول مايو عام ١٩٤٥.

لندن وبرلين هما أشد ما تعرض للقصف الجوي في العالم الغربي على الإطلاق وذلك حتى بداية القصف على غزة بعد السابع من أكتوبر ٢٠٢٣. القنابل التي أسقطها الجيش الإسرائيلي المُدعم أميركياً وبريطانياً وألمانياً في أثناء الشهور الأربعة الأولى من العدوان تفوق تلك التي استخدمتها روسيا في حربها على أوكرانيا على مدى عامين. وحسب تقديرات صحيفة «كول هعير» الإسرائيلية أن كمية القنابل التي استخدمها الجيش الإسرائيلي في غزة تفوق تلك التي استخدمها الزعيم الألماني السابق أدولف هتلر خلال الحرب العالمية الثانية.

قال رئيس المرصد الأيرومتوسطي إنه ووفق الاعترافات الإسرائيلية «فإن التقديرات تشير إلى ما لا يقل عن ٧٠ ألف طن من

المتفجرات، أي ما يعادل ٣ قنابل نووية، ألقيت على قطاع غزة في الأشهر الأولى، وهو رقم غير مسبوق في تاريخ الحروب إذا أخذنا في الاعتبار مساحة قطاع غزة». وأوضح أنه تم «تدمير نحو ٧٠ ٪ من البنى التحتية والطرق والمباني بالقطاع»، مشيراً إلى أن «أحياء وبلدات مُسحت تماماً، كما حدث في بيت حانون. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بكثافة نارية كبيرة لم تتوقف حتى هذه اللحظة». كل ذلك في الشهور الأربعة الأولى فقط من العدوان الذي لم يتوقف ولم تخف حدة الدمار والإبادة المتواصلة، وبالتالي يسهل حساب كمية المتفجرات والقتل مع كل شهر إضافي. مع الشهر الخامس للعدوان كان وزن القنابل التي أُسقطت على سكان القطاع يعادل وزن كل ما تم إسقاطه على برلين ولندن طوال سنوات الحرب العالمية الثانية، ٨٧ ألف طن متفجرات.. وهذا عملياً يفوق قوة تدمير أربع قنابل مثل هيروشيما.

الهولوكوست

الذين يبيدون قطاع غزة وسكانه هم الذين تعرضوا للإبادة أثناء الحرب العالمية الثانية، ويدعمهم الذين شاركوا في تلك الإبادة، والذين رفضوا استقبال اليهود اللاجئين لإنقاذهم من المحرقة، وهم أيضاً الذين زجوا بهم إلى فلسطين ضمن مشروع استعماري استيطاني ويدعمون مشروعهم هذا بكل ما يمكنهم الآن ضد شعب فقير غير مسلح عملياً، مُحاصر ويتم عقابه جماعياً على أخطاء ارتكبها المعتدون

أصلاً.. بمعنى أوضح تمت ترقية اليهود من خانة المظلومين إلى خانة الظالمين، واستبدلوهم بالفلسطينيين.

عاد يفكر.. كيف يمكن ذلك؟ كيف لأبناء وأحفاد الهولوكوست فعل ذلك من غير مراعاة لموازين قوى.. بحث ووجد أنه بعد الحرب العالمية الثانية تم إجراء العديد من التجارب والأبحاث النفسية لإيجاد أجوبة مقنعة عن كيفية اتباع الإنسان لأوامر قد تعتبر غير أخلاقية أو إنسانية. من أشهر هذه التجارب تجربة عالم نفسي أميركي إذ قام بتجنيد متطوعين مقبولين من الناحية الثقافية والاجتماعية، وقام بتوزيع الأدوار عليهم دون أن يدري المتطوعون الغرض الرئيس من التجربة. قام العالم النفسي بوضع أحد الأشخاص في غرفة مغلقة لا يمكن لأحد رؤيته وأعطي لهذا الشخص تعليمات أن يقوم بصورة متعمدة بالخطأ في هجاء بعض الكلمات. على الجانب الثاني من الغرفة كان هناك شخص مزود بقائمة من الكلمات التي طلب منه طرحها على الشخص الموجود في الغرفة ليقوم بتهجئتها بالصورة الصحيحة، وإذا أخطأ الشخص على السائل أن يضغط على زر يؤدي إلى صعق الشخص بالكهرباء مع ازدياد الجرعة كل مرة يرتكب فيها الشخص خطأ آخر، ولم يكن هناك في الحقيقة أي جرعة كهربائية ولكن السائل لم يعرف هذه الحقيقة والشخص الموجود في الغرفة كان يتصنع الصراخ من الألم كل مرة يُضغط فيها على الزر. لم يكن لكل المشتركين أي مانع من تنفيذ هذا الأمر مما أدى إلى الاستنتاج بأن للإنسان نزعة باتباع

الأوامر إذا ما اعتقد بأنها صادرة عن أشخاص مسؤولين حتى إذا كانت هذه الأوامر منافية للمنطق.. «إذا كان هذا حال البشر باتباع أوامر بشر مثلهم؛ فما بالك بالأوامر الربانية، أو تفسيراتها بالقتل والسبي إلخ؟» سأل ولم يجب.

بحث عن تجارب أخرى؛ فوجد تجربة سجن ستانفورد. في هذه التجربة، تم منح طلاب جامعيين أدواراً وهمية كحراس وسجناء، لفهم الرد الطبيعي على الأسر والآثار السلوكية المترتبة على جميع المعنيين. وقد أظهرت التجربة أن من لعبوا دور الحراس بدأوا بإظهار زيادة في السلوك العنيف والمعادي للمجتمع. وأظهر واحد من بين كل ثلاثة حراس سلوكاً سادياً حقيقياً، وصل إلى درجة تخويف وإهانة السجناء الذين كان يحرسهم أثناء التجربة. ووجد أيضاً بعد المزيد من البحث تجارب على حيوانات تؤدي إلى النتائج نفسها.

ما هو الهولوكوست؟

هل الهولوكوست نتيجة لحيونة الإنسان في مرحلة وحقبة ما؟ هل يمكن تبرير أي عقاب جماعي إبادي لجماعة بشرية؟ أو جماعات بشرية؛ فالهولوكوست لم يكن ضد اليهود فقط، وإنما توجه لهم وللغجر والمعاقين والشواذ وأجناس بشرية غير آرية؟ وكيف يمكن للشعوب الأوروبية التي سكتت على إبادة هؤلاء أن تؤيدهم الآن وتسلحهم لإبادة الشعب الفلسطيني؟ أسئلة كثيرة طرأت على ذهنه؛

فقرر التجاوب معها من دون رفض حدوث الهولوكوست؛ فمن ينكر حدوث ذلك قد ينكر بعد عقد من الزمن حدوث الإبادة الجارية للفلسطينيين.

الهولوكوست ليس مصطلحاً ألمانياً أو عبري الأصل، بل جاء من اليونانية مثل الكثير من المصطلحات الأخرى.. وهلوس تعني الكل، وكاوستوس تعني محروقاً.. وبالعبرية يقولون عن تلك المذبحة شواه أو هشوآه، يعني محرقة.. وليس شواء كشواء الصليبيين للأطفال العرب وأكلهم، إذ لم يأكل الألمان اليهود، ولم يحرقوهم، وإنما قتلوا عمداً الكثيرين منهم عبر إدخالهم إلى غرف الدشات لتغسيلهم، وهناك خُنقوا بغاز ثاني أوكسيد الكربون، ونقلت الجثث إلى أفران حرق للتخفيف في عملية الدفن والتخلص من الجثث.. ومهما كان؛ فالأمر فظيع لأن السبب للقتل غير منطقي، وعنصري نابع من عقيدة ألمانية بتفوق العنصر الآري، وبالتالي يتوجب التخلص من الأجناس الأخرى بداية ممن هم في ألمانيا أو وقعت بلادهم تحت الاحتلال الألماني، أو من سيأتي عليهم الدور للإبادة حين يكتمل احتلال الجيش النازي للعالم.

قتل ١١ مليون إنسان بسبب هذه السياسة الألمانية، منهم ستة ملايين يهودي أوروبي وخمسة ملايين غيرهم من الغجر والمعاقين عموماً والشيوعيين والشواذ. بدأت فكرة الإبادة قبل هتلر بكثير؛ ففي ١٩٠٤ نشر طبيب ألماني أفكاره لخلق مجتمع نقي ذكي، وبالتالي

ضرورة التخلص أولاً ممن لا يستحقون الحياة، حسب رؤيته. لم يحدد ذلك الطبيب أي فئة اجتماعية أو دينية يتوجب التخلص منها. لكن الفكر النازي بعد صعود هتلر اتخذ من اليهود عدواً إلى جانب الأعراق الأخرى وطور العلماء نظريات أنهم بشر وضيعون، وكان النازي قد باشر بفكرة القتل الرحيم للمرضى والمعاقين.

في مطلع أبريل ١٩٣٣ أعلن الحزب النازي يوماً لمقاطعة الأعمال والبضائع اليهودية في ألمانيا كثأر من اليهود ومن الأجانب الذين ينتقدون في صحفهم الحزب النازي، وتصدت قوات العاصفة النازية للمحلات ووضعوا عليها إشارات وهددوا أصحابها.. وقعت أعمال عنف، وفي الأسبوع التالي أصدر الحزب النازي قرارات بطرد اليهود من المؤسسات الحكومية، ومنع زواج اليهود من غيرهم ومنع الطلاب اليهود من مدارس الحكومة، وتقرر تشديد أسلوب تشجيع اليهود على الهجرة إلى الأسلوب القسري، ثم تطورت الأمور إلى وضعهم في معسكرات منتشرة عبر البلاد التي احتلها الألمان تباعاً.

الفلسفة النازية بررت هذا الأسلوب بأحقية الألمان كونهم عرقاً نقياً في حكم العالم والتخلص ممن هم تحت البشر، أو الذين يسميهم وزراء إسرائيل اليوم حيوانات بشرية.. آنذاك اعتبر الألمان اليهود والغجر والبولنديين والسلافيين والأفريقيين، حيوانات بشرية.

في العدوان على غزة تم فقدان عدد كبير من الناس الذين تم شحنهم إلى إسرائيل، والثابت أن أكبر مخزون من الأعضاء البشرية

يوجد في إسرائيل وهي أكبر مصدر لبيع هذه الأجزاء عالمياً.. ولا يدري أحد ما هي التجارب التي يجريها العلماء الصهاينة على الأسرى والمخطوفين الذين لا يطلق سراحهم طبعاً ولا يعرف أحد مصيرهم. ويقال إن التحقيقات مع النازيين والناجين من المعتقلات تؤكد استعمال العلماء النازيين لليهود وغيرهم كحيوانات اختبار لتطوير فعاليات قتل.. مثل اختبار كمْ واحداً يمكن لرصاصة أن تقتل، وتأثير قنبلة يدوية في الأجساد، واختبارات للسموم والغازات، أو وضعهم في حاويات مغلقة ذات ضغط عال، وتجارب التجميد وإعادة الدفيء، واهتم النازيون بالتجارب على التوائم. من التجارب الأخرى محاولة تغيير لون العين في الأطفال، وعمليات لنقل أو زرع الأعضاء في الجسم، وتجارب لمنع الحمل والإنجاب وتجارب أخرى.

توالت العقود منذ نهاية النازية ومحرقة اليهود، وتغيرت القوانين الدولية ونشأت منظمات دولية حقوقية وإنسانية، وأقيم كيان لليهود على حساب فلسطين وشعبها، ووصلنا إلى عملية إبادة منظمة من اليهود وجيشهم وحكومتهم للفلسطينيين.. كل ما في هذه المقتلة من تصريحات إسرائيلية وأفعال وصور وممارسات وهيجان اليمين اليهودي والمعتقلات والتجارب وسرقة الأعضاء، وغير ذلك.. كله يُذكر بأفعال النازيين التي تم حفظها وترديدها وتدريسها من قبل اليهود للعالم.

حتى عملية السابع من أكتوبر من قبل المقاومة الفلسطينية تشابه في ظروفها ونتائجها انتفاضة يهود معسكر وارسو عام ١٩٤٣ التي

يعتبرها اليهود بطولة، بينما يعتبرون عملية المقاومة الفلسطينية هذه ضد الاحتلال والحصار، إرهاباً يبرر لهم إبادة كل سكان قطاع غزة، أو أقله طردهم من بلادهم والاستيلاء عليها. وكما كان هتلر يرفض اعتبار واحترام بقية العالم بصدد معاملته لليهود وللسكان المحتلين عموماً؛ فإن نتنياهو وحكومته اليمينية الدينية يرفضان احترام أي قانون ومطالبة دولية لوقف الإبادة والتجويع ومحاولات الطرد.

الغيتو، ضحايا الضحايا

الغيتو مصطلح شهير روجه اليهود عبر العالم ونسبوه إلى النازي.. لكنه في الحقيقة دلالة على كراهية اليهود في أوروبا قبل وطوال قرون من نشأة النازية.. ويبدو من تعمقه في الذات اليهودية أنهم يرون الآن تطبيقه على الفلسطينيين كشيء طبيعي؟ «الغيتو» هو اسم الحي اليهودي في البندقية الذي أقيم عام ١٥١٦، وأجبرت سلطات البندقية يهود المدينة على العيش فيه. وأمر الكثير من الزعماء في أوروبا، والسلطات المحلية، أو الإمبراطور شارل الخامس بتأسيس الأحياء اليهودية في فرانكفورت وروما وبراغ ومدن أخرى في القرن السادس عشر والسابع عشر. ثم جاء هتلر والنازية في ثلاثينيات القرن العشرين واحتلوا البلدان المجاورة لألمانيا وباشروا في إقامة أحياء الغيتو لليهود لعزلهم عن بقية المجتمع، تمهيداً إما لقتلهم حين تسمح الظروف، أو لترحيلهم خارج إطار ألمانيا

ومحيطها.. هل يذكرنا هذا بشيء ما بعد اغتصاب فلسطين، وما جرى في حرب غزة ٢٠٢٤؟

قطاع غزة محاصر منذ عقود من قبل إسرائيل التي تتحكم في كمية الغذاء وعدد السعرات الحرارية للسكان، وأثناء حرب ما بعد السابع من أكتوبر تم استعمال سلاح التجويع والتعطيش والقتل الإبادي والدفن بالجرافات وعدم السماح بانتشال الجرحى والقتلى من تحت الإنقاذ، وبالطبع تدمير المستشفيات علناً... كل ذلك تم إثباته من محكمة العدل الدولية وتم النظر في مذكرات اعتقال لرئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير دفاعه ورئيس أركانه من قبل المدعي العام لمحكمة الجنايات الدولية، وهذه سابقة لم تحدث قبل ذلك في التاريخ الغربي.

أما الغيتوات في الضفة الغربية، المحتلة أيضاً من الإسرائيليين منذ عام ١٩٦٧؛ فبلغت مئات القرى والمدن الفلسطينية وارتفع عدد الحواجز إلى ٧٠٧ حواجز بعد السابع من أكتوبر ٢٠٢٤. هذه الحواجز تمنع التواصل الحر بين المدن العربية نفسها، ويتم منع أي عربي من الوصول إلى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ حيث يعيش المستعمرون اليهود.. ويتوجب الحصول على تصريح لكل من يجتاز الحواجز، ويتم منع العرب من استعمال الشوارع الإسرائيلية أو أي مواصلات عامة أو طائرات طبعاً.. هذه هي الغيتوات الفلسطينية المقامة بأوامر وحراسة عسكرية إسرائيلية وأذونات مفتوحة لإطلاق النار على المخالفين.. وكل من يشاهد الصور في غزة والضفة ويطالع الأخبار سيرى تطابقاً

تاماً مع الصور والأخبار التي يتم نشرها ووضعها في المتاحف الغربية عما كانت تعانيه غيتوات اليهود.

اختلاف المفاهيم

يأتي المستعمر الغريب ويصر على تطبيق مفاهيمه، ومن لا يستوعبها ويلتزم بها؛ فهو غبي متخلف لا بأس من إزاحته بشكل أو بآخر. راودته هذه الخاطرة الاستنتاجية عندما سأل ذاته لماذا طال زمن هذه الهجمة الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني.. حاول طرح أسئلة على العم جوجل؛ فوجد الإنترنت غائباً -كما هو الحال- معظم زمن هذا العدوان؛ فقرر تنشيط الذاكرة واستنطاقها والبحث عن إجابات.

من المعروف أن الإسرائيليين وصلونا نازحين هاربين من الغرب، وبالتالي ثقافتهم وقناعتهم وتجاربهم غربية، وجيلهم الأول الذي ربى الأجيال التالية، عايش هزائم وانتصارات وإبادات في العالم الغربي. هناك في الغرب ومنذ آلاف السنين يوجد مفهوم للمنتصر وللمهزوم، وتوجد أساليب جلية تعكس هذه المفاهيم، وهي حتماً غير مفاهيمنا للنصر والهزيمة والاستسلام؛ فهذه القيم غير موحدة عبر العالم. ارتاح لهذه البداية التي تبرر استمرار العدوان والإبادة على الرغم من فارق القوة والأسلحة المستعملة بين الطرفين.

هم أعلنوا على الملأ أن هدفهم إبادة حركة المقاومة الإسلامية،

أو استسلامها وتسليم قادتها ومقاتليها أنفسهم للأسر والمحاكمات، وبالتالي تحميلهم كل التهم طالما أنهم اعترفوا بالهزيمة واستسلموا. ولأن هذا لم يحدث على الرغم من كل القتل والتدمير الذي تسببوا به للمدنيين؛ فهم لن يكفوا عن الإبادة حتى تنالهم هم الهزيمة، سواء بالضغط والتدخل العالمي، أو عبر خسائر جمة في جنودهم، أو تحرك شارعهم وتغيير الحكومة.. حينذاك فإن أي ناجٍ ولو كان مصاباً في الطرف الفلسطيني سيعلن النصر الذاتي وهزيمة إسرائيل لأنها لم تنتصر، وسوف يصدقه الشعب الفلسطيني.

لقد استسلم اليهود دوماً لعدوهم في الغرب، وهربوا.. وفي كل الحروب الغربية من أيام السيف والخيل، حتى عصر الصواريخ والقنابل النووية؛ فالمهزوم في الغرب يرمي سلاحه أمام عدوه، أو يعلن الاستسلام والاستعداد للمحاكمات، أو ينتحر ويترك القادة العسكريين للاستسلام.. لا بد من نهاية وإعلان مهزوم ومنتصر، والمهزوم يخضع لقوانين ومعاهدات وشروط المنتصر.

العرب قبل وبعد الإسلام لا يعرفون فكرة الاستسلام.. طالما هناك قدرة على القتال يقاتلون كما في حرب البسوس التي استمرت أربعين عاماً لأسباب تافهة بمنظور اليوم، ولكنها مرتبطة بالعزة ومفهوم الكرامة. الضعيف يهرب من المعركة قبل حدوثها أو مع ليلها؛ فتظهر الشمس ويكونون قد تبخروا، وطالما ابتعدوا والتجأوا إلى قوم آخر تزول أسباب مواصلة الحرب.. والحرب عند العرب غزو ونهب

وسلب وسبي وقتل من يدافع ومن ثم عودة سريعة بالغنائم؛ فلا توجد حضارة وأبنية يتم الاستيلاء السياسي عليها.. لكن بعد التوسعات الإسلامية خارج الجزيرة صار هناك كل هذا بالإضافة إلى الاحتلال الجغرافي والهيمنة السياسية الدينية الاجتماعية.

إذاً.. استنتج؛ فالإسلام تشرب العادات الحربية العربية، وأعاد صياغتها في حكم وأمثال وآيات، ولا يوجد ما يفيد بمقولة (استسلم حينما تخور قواك لتنجو بالحياة). الإسلام عزز الأمر بمصير الجنة لمن يصمد ويستشهد، وهذه خصلة فريدة غير موجودة لدى الثقافات الأخرى و-خصوصاً- الغربية.. هكذا ومهما حدث من دمار وتجويع في غزة، وطالما أطل مقاتل كلما تيسر وأطلق قذيفة؛ فلا منتصر إسرائيلياً ولا هزيمة لفلسطيني، وحتى وهم في قمة سيطرتهم واحتلالهم لكل فلسطين وجوارها العربي لم يعترف الفلسطيني بضعفه ويعلن استسلامه. وهذا بالأخص ما يجنن المستعمر الصهيوني وأنصاره في الغرب، فهم قوم لا يستسلمون ويعلنون النصر عبر طفل ناج يخرج من تحت الأنقاض.

اختلاف مفاهيم، نعم، استنتج، ولم يقرر إذا كان هذا إيجابياً أو سلبياً.. يقيناً إن غالبية سكان قطاع غزة يتمنون وقف الحرب، ويعرف أن غالبيتهم لم يكونوا من مؤيدي حزب المقاومة الإسلامية قبل السابع من أكتوبر.. لكن حتى هؤلاء المدنيون على اختلافهم لم يظهر منهم من يرفع الراية البيضاء.

من الهوامش

- خطرت له الإناث؛ فتذكر أن الأكثر إغراء مما عايشه، هو جلوس تلك الصبية حول طشت الغسيل بجانب الترعة..
- كانا في بداية الشباب، وناما في أول يوم تعارف عاريين في سرير ضيق.. ولأنه لم يحدث أي شيء آخر ظنت أن هذه بداية جيدة للصداقة؛ فسافرت صباح اليوم التالي لإنهاء علاقتها مع صديقها الأول.. عندما عادت ندمت، إذ وجدته قد ارتبط بغيرها.
- إذا أفاق من دون أحلام، ينشط ذهنه في استعادة شريط المهام من الأمس ومخطط العمل اليوم.. وإذا أفاق وسط حلم جميل، يتجاهل كل شيء ويحاول العودة لاستكمال الحالة ومواصلتها؛ فيفشل؛ فيسرح قليلاً ثم ينهض.. والإفاقة من كابوس يتبعها الجلاء الفوري عن الفراش دون أي محاولات للانتقام أو التعديل.. فقط الهروب.
- شغل الركن العلمي في ذهنه ليهتدي إلى سر الوضع

الخاص بين الذكور للأنثى، خصوصاً حتى سن الأربعين! استنتج أن بويضاتها تنتهي بذلك العمر بينما لا يكف الرجل عن الإنتاج حتى ساعته الأخيرة، ولذلك فهي سهلة العطب، قصيرة الصلاحية، ضرورية للاستمرار البشري، ويجب أن تحظى من الجميع بعناية خاصة، خصوصاً حين تتوافر فيها خواص الصحة والجمال بقدر كبير، والعقل أيضاً.

- مات جدي وجدتي، وأبي وأمي، وأعمامي وعماتي، وأخوالي وخالاتي.. ولا أشعر أنني أحل لغيري بدل أي منهم.
- لو كان بوسعنا إيقاف وتجميد لحظات السعادة مهما كان نوعها وسببها لتحسنت الحياة..
- عواقب الخوف أشد وأدهى من طلب النجاة بالخنوع.
- الملاك هو الذي يصبر على صديقه حتى يمل صبره، ويصبر على صبره حين يكرر الصديق الإساءة.
- إطعام النفس يجيعها والقدرة هي في ضبطها.
- لن يستوعب الإنسان أغلاله إلا إذا كسرها له آخرون.
- في عقلي أشياء تكونت بالميراث والتجربة والمراس ولن تجد أفكارك عندي أبداً.
- الإفراط في الوعي قد لا تحمد عقباه.
- انتهت القوافل؛ فانتشرت الكلاب.

- المثقفات هن روح الزمان والمكان وورورده، وأساس للسعادة.
- لم تسأل ذاتها قبل زواجها إذا كانت العنوسة أفضل من نهيقه.
- مرت لحظة جنون في عقل العاقل، وأظهر المجنون لحظة تعقل.
- امتلأت الصحراء بظلال الرجال، لكن لم يكن هناك أحد.
- امتلأ جوف الأرض بالجثث، لكن حفنة قليلة من الأرواح هي التي عانقت السماء.
- هدف الأديان الإنقاذ من العبث والهدر في الدنيا، ومن الفناء النهائي بعد الموت.
- المؤمن الغبي ينافس الكافر الغبي.
- الواحة الصغيرة هي أمل الضال في الصحاري.
- راحة البال تحول أي مكان إلى جنة.
- الجهالة خيانة غير متعمدة.
- الحرية والديموقراطية والثقافة أسس الدولة الناجعة، كما يثبت الواقع والتاريخ.
- الثقافة تمهد للديمقراطية وللحرية، وهكذا تُبنى الدول المحترمة، ولا يوجد طريق أقصر من ذلك للخروج من الدوامة.

- الاستعمار يأتي من الخارج والاستحمار ينبع من الداخل.
- قال المواطن للمسؤول شاكراً: لقد غمرتمونا بفضائلكم وفضلاتكم.
- يقول ابن حزم: لم ينل الخلافة في الصدر الأول (العهد الأموي) من كانت أمه من الإماء سوى آخر ٣ (من أصل ١٤)، ولم ينل الخلافة في الدولة العباسية ممن كانت أمه من الحرائر سوى العباس السفاح والمهدي والأمين، (من أصل ٢٦ خليفة حتى وفاة ابن حزم) ولم ينل الخلافة في دولة بني أمية بالأندلس من كانت أمه حرة أصلاً!
- لن تقوم للقوم قيامة طالما بقي هناك من يتهم الآخرين بالكفر، وطالما بقي عندهم حكام يحتمون بالدين.
- الرقابة الدينية، والسياسية، والأمنية، تحول القوم إلى أعجاز نخل خاوية.
- الأغبياء في العموم يفهمون الدين برؤيتهم ويريدون الحفاظ عليه ضمن مفاهيمهم ولذلك يحاربون بشراسة أي مفاهيم ورؤية أخرى للدين ويحرضون على العودة إلى الماضي.. وحيث يكثرون يعم الجهل والتخلف والفقر والخراب.